علماؤنا..والإرهاب

بقلم الشيخ . محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وبعد ...

أعجب كل العجب بعد كل أزمة نمر بها من أفواه وأصوات تعلو وترتفع بالحوار مع الشباب ، وضرورة إخراجه من التطرف ، وإبعاده عن الإرهاب ثم تنعقد المؤتمرات وتتمخض عن بيانات وهتافات وتوصيات بإقامة ندوات للتوعية ، ثم تجوب هده القوافل شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بمواضيع محددة قاصرة ، ومناقشات من جانب واحد ، يبررون ضياع الأحكام والشرائع ، فيلعنون التطرف والإرهاب فى جانب الشباب ولا يلعنونه عند السلطة ، علاجهم مرض ، ووصفهم عمى ، ونصيحتهم متهمة لأنهم يكيلون بمكيالين .

لذلك نحن نصرخ ونبكى ونسألهم . يامن تزعمون النصح والإرشاد والتوجيه لماذا لا تقولون للمسئولين أولاً طبقوا فينا شريعة الله ؟

لماذا تحجبون عنا شرع الله ؟ لماذا تحرموننا من بركات تطبيق الشريعة ؟ لماذا لا تنادون بالرجوع إلى دين الله عقيدة وسلوكاً ؟ أين أحكام الله فى أرضه ؟ أين شريعته المباركة ؟ لماذا لا تصححون للحكام طريقهم ؟ أم أنكم فى حاجة لعلماء حق يصححون لكم طريقكم ؟ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1] .

إن الإصلاح له طريق واحد إذا ابتعد عنه الإنسان تقلب فى الشقاء

إن الذى يزعم الإصلاح الاجتماعى والثقافى والاقتصادى والسياسى على غير شرع الله ومنهجه واهم واهى البنيان ، فإذا أراد العبد أن يصل إلى الحق فعليه أن يقف أولاً على الطريق ثم يعمل حتى يصل ، يا قومنا نحن واقفون الآن على غير الطريق وأنتم تدعوننا نعمل فمهما عملنا واجتهدنا فلن نصل لأننا على غير الطريق سرنا ، ألا تزون ثمرة الإصلاح الذى تنادون به من سنوات ، إنها أزمات وكوارث

ومصائب تتوالى فى البر والبحر والجو ، بالغرق والسيول والنكبات ، والخسائر والديون ، إنهم - فى طريقهم للإصلاح - يجربون كل شيء إلا شرع الله ، مع أنه لا إصلاح ولا مخرج مما نحن فيه من فتن وشقاء إلا بنور الله وشرعه نستقى منه العقيدة والعبادة والمعاملة يقول ربنا سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[1]

يا من تتوجهون للشباب بالنداءات والشعارات طالبوا الحكام بتطبيق شرع الله حتى يتغير المناخ الذى نعيش فيه ، حتى نرى النور وتتغير الدنيا وتحيا الأمة وتصبح عزيزة ، ويندثر الباطل والفهم السقيم ، ويتكشف من يعملون فى الظلام ، فالنور يبدد الظلمات ، ويهدى الحيارى فتتجلى الحقائق ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾[2] .

إن مثل الشباب الآن كمثل رجل جلس فى حجرة مغلقة مليئة بالدخان المشبع بالأوبئة ويشتكى من مرض فى صدره ، فيعطيه الطبيب الدواء والمسكنات ولا تأتى معه بنتيجة ، ولا يبرأ من مرضه ، ما فائدة الدواء وأنت حريص على الداء ؟ ! ، إذ لا بد من إبعاده عن المناخ السيىء والطعام والشراب الخبيث حتى ينفع الدواء ويأتى الشفاء بإذن الله .

إن المناخ الذى نحيا فيه تشرب فيه الخمر ويرخص لها بزعم رواج السياحة ، وانتشر الزنا حتى وصل الحال إلى الأسوأ ، وما حادث العتبة الشهير عنا ببعيد ، بل وغيره الكثير ، وانتشر الربا ، وعمت به البلوى ، وخرجت الفتاوى المريضة تؤيده وتحميه ، وتأصلت الرشوة وكثرت المحسوبية وانتهكت الحرمات .

المناخ الذى نعيش فيه يحج فيه الآلاف بل الملايين كل عام إلى طنطا البدوى يطوفون بمعبودهم ، ويذبحون عنده الذبائح ، ويقدمون القرابين ، وينذرون له النذور ، ويطلبون منه المدد والبركات ، ويستغيثون به ويلتمسون النفحات ، ويتمسحون بالأخشاب ، ويقبلون الأعتاب ، ويزعمون أن من قبل الأعتاب ما خاب ، ويختلط الرجال بالنساء بزعم أنهم إخوة فى الطريق ، وتراهم يدخنون ويعكفون على الشيشة ويتعاطون المنكر ، ويتراقصون بالتمايل والتصفيق ، ويقوم فيهم مغنٍ بالدف والناى والمزمار ويزعمون ذلك الإفك ذكراً . وترى أحدهم إذا قام نادى يا بدوى وإذا حزبه أمر نادى على أم هاشم وإذا ابتلى بشيء استغاث بأم العواجز والرفاعى والدسوقى ... فقد أعدوا لأمورهم غير الله ، فلا يذكرون الله إلا قليلاً ، وإن ذكروه فذكر كذكر المشركين كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾[1] .

المناخ الذى نعيش فيه ، تركت فيه شريعة الله ، أباحوا الزنا إن كان بالتراضى ، والربا إن كان للضرورة ،

والعرى والسفور إن كان الاختلاط بريئاً ، ولما تبدلت الأحكام زادت السرقات ، وفى كل عام تنشب الحرائق وتضيع الأموال المسروقة فى المحروقة ، وينقذ ما يمكن إنقاذه .

المناخ الذى نعيش فيه تطورت فيه المناهج وحذف منها ما يتصل باليهود أو الجهاد أو تعليم الفضائل واستبدلت بمناهج عوجاء عمياء لا تقيم الصلب ولا تبقى الولاء ، وانتشر الغش وأصبح حقاً مكتسباً ، وانحط المستوى الأخلاقى والتعليمى ، كانوا قديماً يقولون لنا : إنها وزارة التربية قبل التعليم فحذفت التربية وأصبحت وزارة التعليم فلا وصلنا للتربية ولا أبقينا على التعليم .

المناخ الذى نعيش فيه كثر فيه العاطلون من حملة الشهادات والمؤهلات يتجرعون الغلاء والوباء والفقر والجوع فانتشرت السرقات ، بل والقتل من أجل الحصول على المال للطعام والشراب والسكن والزواج ، أزمات يجر بعضها بعضاً ، فتراهم من التيه والحاجة والفقر فى غفلة يبحثون عن الطعام فإن وجدوه فالكساء فهم يطلبون الكفاف وربما لا يجدونه ، فإن فريقاً منهم لجأ للقبور يسكنون فيها ويعيشون .

المناخ الذى نعيش فيه قل فيه الناصح الأمين وقل المنذر والموجه حتى أصبح كثير من الناس يتعاملون ويتصرفون على خلاف منهج الله وشرعه ، وابتعد أكثر العلماء عن حياة الناس ، فلم يستطيعوا تحديد الداء ولا وصف الدواء .

المناخ الذى نعيش فيه يوجهه التلفاز والصحف والإذاعة ، وهذه مليئة بالعرى والرقص والفحش والسوء والدعوة إليه والأغانى الهابطة والفن الهابط حتى أننا بين الحين والحين نسمع أن فلاناً الممثل ضبط فى تعاطى هيروين أو اتجار فيه ، أو قضية دعارة ، أو وجد متعفناً فى شقة مفروشة عارياً بجواره الخمر ، أو ما شابه ذلك ، هؤلاء أبطالهم الذين يرويدن لنا أن نقتدى بهم ونسير على هديهم .

المناخ الذى نعيش فيه ظهرت فيه صيحات خبيثة تحرم الفضيلة وتحاربها وتبيح العرى وتحض على الرذيلة ، فمغرض يكتب ليحرم النقاب وآخر يتهكم بالمحجبات ، وثالث يبيح الربا ، ورابع يحل الشرك ودعاء غير الله ، فهم يحاربون الفضائل ويحسبون أنهم مهتدون ، وهم أس الفساد منهم خرج وإليهم يعود .

ماذا تنتظرون ونحن نتنفس فى هذا المناخ المعاصى ونأكل الربا ، ونشرب الإثم ونكسى بثياب دخل فيها الحرام ثم ندعوا الله فأنى يستجيب لنا ؟ ؟

يا أهل النصح ، يا أهل العلم يا من تصفون الدواء أريحونا من هذا الجو الملبد بغيوم المعاصى ، حتى ينفع الدواء ويأتى الشفاء ويذهب الداء بإذن الله أما وشريعة الله معطلة مهانة ، والشرك منتشر فى احتفالات رسمية وموالد شركية ، وقباب تقام ، وأضرحة تزار ، ومقاصير يتمسح بها ، وأعتاب يسجد فيها لغير الله ، فهل يأت لإصلاح من كل كذلك ؟ .

ثمرات وفضائل التوحيد

بقلم الشيخ رئيس أنصار السنة
محمد رزق ساطور بترعة غنيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه ..

وبعد :

فإن توحيد الله تعالى أول الفرائض على المكلفين ، وما من رسول ولا نبى إلا وقد دعا قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك ، ونصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة تتحدث عن وجود الله وما له من أسماء حسنى وصفات علا وهو توحيد الإثبات والمعرفة ، وتتحدث عن عبادة الله وحده لا شريك له وهو توحيد الألوهية والعبادة ، وتتحدث عن الأوامر والنواهى وهى مستلزمات التوحيد وحقوقه ، وكذا عن جزاء التوحيد وثمرته ، وجزاء من أعرض عنه ، وهذا يدل على أهمية التوحيد ، فمن تخلف عن التوحيد فقد حرم خير الدنيا والآخرة ، ومن وحد الله تعالى فقد حاز الخير كله ، وها نحن نذكر شيئاً من فضائل التوحيد وثمراته التى يسعد بها الموحد فى الدنيا والآخرة .

أولاً : الأمن التام والهدى الكامل فى الدنيا والآخرة :

يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ ، ولما نزلت هذه الآية قال أصحاب رسول الله ﷺ : أينا لم يظلم نفسه ؟ فأنزل الله ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ ﴾ ، فالذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك هم الذين لهم الأمن والهداية دون غيرهم من الناس ، ولا يهب الأمن إلا الله ، فمن أراده فليطلبه منه سبحانه بتوحيده وعبادته وطاعته واجتناب ما حرم والبراءة من الشرك ، وقال جل شأنه : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، فالأمن يأتى من التوحيد ، لا من المال ولا من الولد ولا من الجاه ولا المنصب ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ ، فالطريق للأمن واضح بين ، بترك الشرك وعبادة الله وحده ، والحكم بكتابه وسنة رسوله ﷺ ، وعدم التحاكم لغيره مهما كان ، فالله تعالى يقول : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ ، فتطبيق شرع الله أمان لهذه الأمة التى تلاحقها المصائب والكوارث والنوازل والبلاء والغلاء ، وتهافت الأعداء وتداعيهم عليها كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، حتى هانوا على أعداء الله ، واستكانوا للذل والصغار ، وليس ما يحدث للمسلمين فى البوسنة عنا ببعيد من قتل وتنكيل ودمار وتعذيب ، بل ووحشية واغتصاب للمسلمات ، وانتهاك للحرمات ، إليك أشكو يا الله ضعف حالنا وهواننا على الناس ، فاللهم مزق الصرب الصليبيين الحاقدين كل ممزق ، وشتت شملهم ، وفرق جمعهم واجعل الدائرة عليهم وأهلكهم كما أهلكت عاداً وإرم ، واشف صدور قوم مؤمنين ، وكذلك ما يحدث للمسلمين فى فلسطين من تشريد وتجويع وقتل وإبادة ، فاللهم عليك باليهود فإنهم لا يعجزونك ، بل وما يحدث فى كل بقاع الأرض لأن الأمان فى شرع الله ، وكما قال النبى ﷺ : « النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ . وأنا أَمَنَةٌ لأصحابى فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون ، وأصحابى أَمَنَةٌ لأمتى . فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون » ، فالنجوم ما دامت باقية فالسماء باقية فإذا انكدرت النجوم وتناثرت وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت ، والنبى ﷺ أمنة لأصحابه من الفتن والحروب وارتداد من ارتد واختلاف القلوب ، وأمنة من أن يأتيهم العذاب ، ونحو ذلك ، والصحابة رضوان الله عليهم أمنة من ظهور البدع والحوادث فى الدين والفتن فيه ، ولم يبق إلا شرع الله أمنة من الشرك والكفر والنفاق والصد عن سبيل الله والاعتداء والظلم والذل والصغار .

حتى نقول لكل من رضى الخطا
مع كل هالك هاوى البنيان
دين الإلٰه وشرعه وكتابه قد قام
من حفظ الإلٰه الواحد المنان
فهو الحفيظ تعالى أن يُحفظ له
أو أن يدافع عنه كل مُصان
وهناك يبدو ديننا مع عِزَّة
أكرم بها للصادق الروحانى

وهناك يظهر للمجاهد نوره
حتى نطهر سائر البلدان
وهناك نطمع فى الثواب ونرتجى
عفو الإله لنا مع الرضوان
من عاش منا سوف يرضى ربنا
بالقلب والأعضاء بالأركان
حتى نلاقى ربنا فى يومنا
فيكون راض عنا بالإيمان
يا رب إنا قد طمعنا فى الهدى
حتى نلاقى الخلد عند جنان
رضوان ربى نعم خير يرتجى
عند اللقاء ورحمة الرحمن

ثانياً : النجاة فى الدنيا والآخرة :

والنجاة الخلاص من الشىء، والنجاة فى الدنيا من شرورها ورجسها ونصبها وشقائها وهمها وغمها وكربها وحزنها وضنكها وذلها وغيها ، والنجاة فى الآخرة من النار وعذابها وما فيها من كربات ، قال جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ، فالنجاة مِنَّةٌ من الله يمن بها على من يستحقها وهم أهل التوحيد ، ولذلك قال النبى ﷺ : « قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله ، قالوا : يا رسول الله ولا أنت ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » ، لقد خاب وخسر من فرط فى النجاة قبل أن يأتى الوقت الذى يقول فيه : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ، عند ذلك يأتى الجواب واضحاً صريحاً ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ ، ورحم الله من قال :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجرى على اليبس
إن كل الطرق مسدودة أمام الخلق إلا طريق الله المستقيم من سلكه نجا ، ومن تخلف عنه هلك ، إن الدنيا تشعبت بالناس وتغلغلت فى نفوسهم حتى جرت فى العروق مع الدماء ، فساءت الأخلاق وضاعت القيم عند الناس إلا من رحم الله وقليل ما هم ، فالناس هلكى إلا من أخذ بأسباب النجاة ، لقد أذن الفجر وطلع النهار ووجب الصيام حتى نلقى الله ، الصيام عن الموبقات والكبائر والمعاصى والتقصير ، والنجاة فى التمسك بحبل الله المتين ، والاهتمام بأمر المسلمين ، ورفع الأذى عن المنكوبين ، وكلمة حق فى وجه الظالمين ، وإعلاء كلمة الدين ، والنجاة فى البعد عن الفتاوى المريضة الآثمة التى يحملها من يفتى بها على ظهره يوم القيامة كما قال سبحانه : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، النجاة فى الصدق مع الله ، ولذلك لما دخل ثلاثة – ممن كان قبلنا – غاراً يلتمسون الراحة فجاءت صخرة من أعلى الجبل وأغلقت باب الغار ، قالوا : إنه لا ينجيكم إلا أن تدعوا الله بصالح العمل وكانت الأعمال الصالحة من بر الوالدين والتوبة والانخلاع عن المعاصى والزنا ، والأمانة سبباً للنجاة فى الدنيا وهى أولى بالنجاة يوم القيامة .

ثالثاً : الكرامة : أى الإكرام لهم فى الدنيا والآخرة ، لأنهم أكرموا أنفسهم عن أن تتدنس بشىء من مخالفة ربهم ، فالله تعالى كرم بنى آدم ، فمن وفى بعهد الله استمر فى الكرامة ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه فلا يقيم له ربه يوم القيامة وزناً ، أما أهل التوحيد فإن الله تعالى قال عنهم : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً ﴾ ، وقال سبحانه عن مؤمن سورة يس : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وفى قراءة « من المُكَرَّمِين » ، قال ابن كثير : « بإيمانى بربى وتصديق المرسلين » ثم أورد حديث عروة بن مسعود الثقفى رضى الله عنه حين قال للنبى ﷺ : ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى أخاف أن يقتلوك » فقال : لو وجدونى نائماً ما أيقظونى ، فقال له رسول الله ﷺ « انطلق » فانطلق فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غداً بما يسوءك فغضبت ثقيف ... فرماه رجل فأصاب أكحله[٥] فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : هذا مثله كمثل صاحب يس ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد من أهل الجنة يَسُرُّهُ أن يرجع إلى الدنيا غير الشهيد فإنه يحب أن يرجع إلى الدنيا يقول : حتى أقتل عشر مرات فى سبيل الله مما يرى مما أعطاه الله من الكرامة » .

والكرامة فى الدنيا ليست كما يظنها الجهال من المتصوفة أنها أكل كثير وشرب كثير لمن يطلقون عليهم لفظ الولاية ، فقد خلعوا الولاية على كل أبله رث الثياب ، وزعموا زوراً أنه مكشوف عنه الحجاب ، ليعلم ما وراء الباب ، وظنوا الكرامة أن يترك شيخهم الصلاة مع الناس بزعم أنه من أهل الخطوة يصلى فى الحرم ، أو يزعمون أنه إذا مات طار نعشه ، وامتنع عن حامليه ليقيموا له القباب ، وليسجدوا على الأعتاب وليستغيثوا بالتراب ، ويقف الجاهل منهم خاشعاً أمام القبر أتقن من خشوعه فى الصلاة إن كان يصلى ، وينادى العظام النخرة ، معتقداً فيها النفع والضر ، والخير والشر ، فيقول : جئت لك والعارف لا يُعرف والشكوى لأهل البصيرة عيب ، وهل تركوا شيئاً من العيب لم يفعلوه ، بل إن إمامهم عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات يذكر الرجس والنجس والفاحشة واللواط والزنا من كرامات أوليائه ، وهذا من العمى . وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فما لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ أما الكرامة الحقيقية لأهل التوحيد فى الدنيا إكرامهم بالنعم والفضل والخير والتوفيق للطاعة ، وإبعادهم عن المعصية ، وإمدادهم بالملائكة وتأييدهم ، وإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم منهم إلى غير ذلك من الكرامات الحقيقية التى وقعت للصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان .

محمد رزق ساطور

النصيحة المفتقدة

بقلم الشيخ

محمد رزق ساطور

رئيس فرع أنصار السنة بترعة غنيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله ومن والاه وبعد :

فإن الحوادث الأخيرة والتي توجه لرموز الحكم في هذا البلد ؛ يتخذها كثير من المغرضين والمفسدين ذريعة لتوجيه الطعن والانتقاد ، بل الإجهاز على الإسلام والمسلمين عامة ، ونحن في البداية ضد تلك الأعمال الهمجية والاعتداءات الوحشية على الأبرياء ، حتى لا يظن أحمق أننا نبرر الجريمة ضد الشرفاء أو الأبرياء ، ولكن ليس معنى وقوع ذلك وحدوثه أن المسلمين – كل المسلمين – هم المسئولون عما يحدث .

إن الذي يُحمل المسلمين آثار تلك الأفعال مغرض مريض ، بل حاقد أثيم ، وجاهل أو متجاهل للحقيقة الواضحة .

إن المسلمين اليوم يئنون من الجراح والضربات المتتالية التي توجه إليهم في كل بقاع الأرض ، لقد امتلأ الجسد بالآلام ، ولم يبق موضع إصبع إلا وفيه طعنة بخنجر ، أو رمية بطلقة ، أو عاهة من قنبلة ، لقد تمزقت الأشلاء ، واستهان بها الأعداء ، وانتهكت الأعراض ، وتعرت الأبدان ، وجاعت الأكباد ، ولا تكاد هذه المصائب تهدأ في مكان ، إلا وتزداد في مكان آخر بأشد مما كانت عليه ، فالوضع لا يحتمل ما ينعق به المنافقون والعلمانيون وغيرهم . إن الذي يوحي إليه خياله المريض بأن يستغل هذه الحوادث للطعن في الإسلام

لن يفلح ، بل سيرد إليه كيده في نحره ، وسوف تنتهي تلك السباقات في توزيع الباطل والاتهامات ، فالإسلام شامخ لن يستطيع أحد أن يطعنه ، ولا أن يقوضه ؛ لأن الله تعالى هو الذي يحفظه ، والذي يطعن فيه حاله يشبه حال الذي قيل فيه :

كناطح صخرة يومًا ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

لقد اجتمع أعداء الإسلام قديمًا وحديثًا ليكيلوا له الضربات فلم يفلحوا ولن يفلحوا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال/٣٦] .

فهذه طبيعة الإسلام التي جعلها الله تعالى لا يستطيع أحد أن ينال منها ، وإذا زين الشيطان لأحد أن يقترب منها ؛ فإن الله ينصر دينه برجال ، قال فيهم رسول الله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »[1] ويقول ﷺ : « لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك »[2] .

لقد تعالت صيحات العلمانيين بالطعن في اللحية والنقاب ، والتحريض على منع أصحاب اللحى من الوظائف والتضييق عليهم وعلى المنتقبات ، وكذا التحري عنهم والاستهانة بهم ، وتعبئة الرأي العام ضدهم ، حتى انطبع في أذهان العامة – نتيجة هذه الحملات المسعورة – أن الملتحي هو الإرهابي أو المتطرف أو في طريقه إلى ذلك .

إن الله تعالى توعد الذين يتهمون الأبرياء فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩]

إننا في حاجة ماسة إلى كثير من المصارحة ، فلم يعد التكتم في مثل هذه الحالة يفيد ، وليس الكلام عن هذه الظاهرة تجريحًا ولا شرودًا ، فحينما اتُّهِمَ المخلصون في نصيحتهم ، وتهجم المنافقون عليهم ليخرسوا صوتهم ، واستمع الحكام لهم ، ولم يلتفتوا لنصح الناصحين ، ساءت الأحوال وفسدت ، واستحكم المرض بالأمة ، وطفح ما حرصوا على كتمه والتكتم عليه ، وبدا في أشنع صوره ، واندثرت

النصيحة واستغنى عنها من هو في أمس الحاجة إليها ، فالدين في كلمة واحدة قالها النبي ﷺ « النصيحة » ، ولذا كان من الواجب على الأمة النصيحة ، وعلى الحكام الاستماع والانتفاع ، فالنصيحة تبرز الحق وتحدده ، وتبين الصواب وتوضحه ، وتمحو الباطل وتسحقه وتقوضه وتدمغه ، فالآخذ بها منتفع يُذْهِب عن نفسه الأذى والظلم ، ويبدله بالبهاء والضياء والعدل .

إن من تمام النصيحة : أن نعلم أن أصل الداء لفساد المجتمع وما فيه من انحراف وبلاء يكمن في البعد عن شرع الله تعالى ، عقيدة وشريعة وعبادة ، وإذا أردنا العلاج فلنبدأ بالمصارحة ، إن البعد عن العقيدة الصحيحة يوقع في الشرك والنفاق والكفر ، ويورث في القلوب المرض والقساوة والغفلة ، ويصيب العين بالعمى ، والأذن بالصمم ، والعقل بالغباوة وعدم الفقه والتدبر ، ويصيب البدن بالبلادة وموت الإحساس .

إن فساد العقيدة يعني فساد المجتمع بأسره ، إن المجتمع المكي في عصره الجاهلي كان يعرف الخالق والرازق والمحيي والمميت ، ولكنه انزلق في ظلمات الشرك ، فلم تنفعه هذه المعرفة القاصرة ، ولم تنقذهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة ، قال سبحانه : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُل أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُل مَن رَّبُّ ٱلسَّمَوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُل أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُل فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤-٨٩]

وقال جل شأنه : ﴿ قُل مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] .

مع هذا الاعتراف عبدوا الصالحين من دون الله ، ولجأوا للأصنام يسألونهم النفع والخيرات ، ويعتقدون فيهم القدرة على دفع الكربات ونيل القربات قال سبحانه : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس :

١٨] ، عند ذلك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأصبحوا خاسرين ، ولذلك وصفهم النبي ﷺ بقوله : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ... »[٣] .

فحد السرقة كان موجودًا في الجاهلية ، ولكن لما ضاعت العقيدة الصحيحة تخلف التطبيق الصحيح لحدود الله ، فسرق الشريف فتركوه ، وسرق الضعيف فأقاموا عليه الحد ، فلا بد من وجود العقيدة الصحيحة أولًا ؛ لأنها هي التي تحمى الشريعة من أن يتلون الناس عند تطبيقها .

ومظاهر العقيدة الفاسدة في مجتمعنا متعددة . فمنها ما ذكرناه قبل ونذكره دائمًا ، في ما نراه من الآلاف التي تحج إلى قبر البدوي كل عام ، ويذبحون عنده القرابين ، ويقدمون النذور ، ويتمسحون بالأخشاب ، ويطوفون بالقبر كأنه البيت الحرام ، ويعتكفون عند مقصورته يطلبون بركاته ، وترى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ينقلون مراسم الليلة الختامية ، وهم بذلك يؤيدون الشرك ، ويشاركون في انتشاره ؛ بل إن العوام يعتبرون نقل مثل هذه الموالد الشركية عبر التلفاز دليلاً صريحاً على إباحته ، أما علموا أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله من ذبح لغير الله »[٤] واللعن : طرد وإبعاد عن رحمة الله ، فكيف يذبح عند المقاصير والقبور ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم ، ولقد قال النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه »[٥] ، وأتى رجل النبي ﷺ فقال : إني نذرت أن أذبح إبلاً ببوانة قال : « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟» قالوا : لا قال : «فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟»، قالوا : لا ، قال : «أوف بنذرك. فإنه لا نذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم »[٦] ، فالذبح لا يصح في أماكن نصب الأوثان التي يستغاث عندها بغير الله ، ولا في الأماكن التي يقيمون فيها الموالد الشركية وأعياد الجاهلية ، ولذلك إذا أردنا أن نبدأ العلاج النافع لإصلاح المجتمع فَلْنُزِلْ مظاهر الشرك ، ولتهدم تلك الأوثان التي يتوجه إليها الناس طالبين منها ما لا يطلب إلا من الله الواحد القهار ، إنك ترى حول الأضرحة أصنافًا من البشر : هذا جاء يطلب من الشيخ الولد ، فلقد كبر سنه ولم ينجب بعد ، وهذه

ومن مظاهر العقيدة الفاسدة : تلك القوانين سيئة السمعة التي اخترعها البشر ليعبِّدوا الناس لها ، ويطبقوها فيهم ، وينزلوها منزلة الشرع الذي لا يخالف ، فالزنا بالتراضي بينهم عندهم كالزواج ، والربا المحرم تفشى وانتشر بذلك ، والخمر الخبيث تباح للسياحة ، والرقص والخنا يباح باسم المدنية والحضارة والفن ، والأصنام والتماثيل تباح باسم الرسم والفن ، لقد مرت علينا فترة سابقة كانوا يمنوننا بتطبيق الشريعة ، وانبثقت لجان ، واجتماعات وأبحاث ، حتى قالوا لم يبق إلا قرار ، ثم دست القوانين التي هُيِّئت تبعًا للشريعة ، وغيبت الشريعة داخل أدراج مجلس الشعب ، ونسيت وانتهت هذه الفترة وكأن شيئًا لم يكن ، كيف يستقيم الحال على هذه القوانين العمياء العرجاء السوداء التي لا أمل فيها ولا رجاء ، ولا زرع حولها ولا ماء ، فغياب الشريعة عن أرض الواقع ، وعدم تطبيق الحدود ، سبب من أسباب الهلاك في الدنيا قبل يوم القيامة ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ . أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠] ، لا أحد أحسن من الله حكمًا ؛ بل قال سبحانه : ﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ .. ﴾ [النساء: ٥٨] . فمن حكم بشرع الله فقد حكم بالعدل ومن لم يحكم به حكم بالظلم والجور والفساد ، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] ، فالذي لا يتحاكم إلى شرع الله ، يزعم الإيمان ويبتعد عنه ، يؤمن بالطاغوت بدلًا من أن يكفر به ، ولذلك قال جل شأنه ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] .

فلا ينبغي أن يحكم في العباد إلا الله بشرعه وهدي رسوله ﷺ ، ولا يحكم سواه في قليل ولا كثير ، ولذلك قال الله تعالى على لسان يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : ﴿ يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ

أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠] .

فالحكم عبادة ودين ، فإن كان بشرع الله؛ فقد عبدنا الله وأطعناه، ونفذنا دينه وحكمه ، وإن طبقنا غير شرع الله فقد عبدناه من دون الله ، قال سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ... ﴾ [الشورى: ٢١]، **فهل يصلح أن يشرع مع الله شركاء ؟! قال جل شأنه :** ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس : ٣٤، ٣٥] ، **وقال سبحانه :** ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : ٤٠] . **فإن كان الشركاء لا يملكون شيئًا ولا يعلمون شيئًا وهم ضعفاء عاجزون أموات غير أحياء ، يقررون اليوم القانون ، ثم يعدلونه غدًا ، يعدلون التعديل ، ثم يعدلون المعدل ، ثم يحذفون ويجددون لقصورهم وجهلهم، فكيف نعتمد على البشر ونترك الله الحي القيوم ، ثم نزعم أن هذه القوانين فيها السعادة ، والأمن والحزم والاستقرار، كلا ثم كلا إن الأمن الحقيقي في شرع الله وحده** ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [**الأنعام : ٨٢**] .

اللهم هل بلغت . اللهم فاشهد .

---

(١) رواه ابن عدي (١٥٣،١٥٢/١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩/١٠) ، وجاء من طرق كثيرة لا تخلو من ضعف إلا أن ابن القيم قواه بتلك الطرق في مفتاح دار السعادة .

(٢) متفق عليه : أخرجه البخاري في المناقب (٦٣٢/٦) (٣٦٤١) ، وفي التوحيد (٤٤٢/١٣) (٦٤٦٠) ومسلم في الإمارة (١٥٢٤/٣) (١٠٣٧) .

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٥١٣/٦) (٣٤٧٥) ومسلم في الحدود (١٣١٥/٣) (١٦٨٨) .

(٤) أخرجه أحمد (١٠٨/١) ومسلم (١٥٦٦/٣) (١٩٧٨) ، والنسائي (٢٣٢/٧) (٤٤٢٢) .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (٤٧٦/٢) ، والبخاري في الأيمان والنذور (٥٨١/١١) (٦٦٩٦) .

(٦) أخرجه أبو داود في الأيمان (٦٠٧/٣) (٣٣١٣)

أَلَا مِنْ وَقفات

بقلم الشيخ

محمد رزق سلطور

رئيس أنصار السنة بسرعة غنيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد .

فإن وقفة العلماء والفقهاء وأهل الاختصاص الأخيرة ضدوزير التعليم في قراره بمنع ارتداء الطالبات الحجاب الذي شرعه الله تعالى في المدارس ودور التعليم تحرك فينا الساكن ، وتجعلنا نشعربأن هذه الأمة بخير ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ،وأخذت على يد الظالم ترده إلى الحق ردًّا جميلًا ولا تتركه يهلك ويهلكها ، لقوله تعالى :

﴿ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾

[الأنفال : ٢٥] ، وإذا كان قرار يحارب الحجاب قد حمل علماء الأمة على القيام بالإنكار والنصيحة، فإنني أدعو الله تعالى أن يوفق علماءنا لوقفات أخرى ، يوضحوا فيها الحق ويعلنوه وينصروه، ليكشفوا الباطل ويفضحوه ويدحضوه .

ولتكن وقفة أمام القوانين
لجائرة الظالمة التي تُحكَم بها ،
تى نحكم بشرع الله وحده ،
هذه مهمة وضعها الله تعالى
لى عاتق العلماء المخلصين
وضحوا الحق للأمة حتى
راه ، ويزيلوا الغشاوة التي
مست أعين الناس ليظهر الحق
ليًا ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ
ذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ
بَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
نَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُولَٰٓئِكَ
عَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ إِلَّا
ذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟
وَلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ
رَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٧٤] ،
يقول جل شأنه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كْتُمُونَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
كِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا
لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ
لَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ
قِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
لِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٤] .

هذه الوقفة ضد قوانين
ضلال التي تبيح الخمور
الفجور والتبرج والسفور
الخنا والربا وتضيع

هذه الوقفة ضد قوانين الضلال التي تبيح الخمور والفجور والتبرج والسفور والخنا والربا وتضييع الفروض وتعطل الحدود .. إلى غير ذلك من المخالفات لشرع الله ..

الفروض ، وتعطل الحدود ،..
إلى غير ذلك من المخالفات
لشرع الله القويم إن الله تعالى
يقول : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ
ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا
مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾
[النساء : ٦٥] ، ففي الله
تعالى الإيمان عمن لا يحكم الله
ورسوله، ويكن طيب النفس
مستسلمًا مذعنًا راضيًا دون أي
حرج ، ولذا فإنا نسأل قومنا :
من نطيع ؟! أنطيع الله الخالق
الرازق المحيي المميت القادر
القاهر، أم نطيع العبد الفقير
الضعيف العاجز القاصر الهالك
الميت الذي لا يملك لنفسه نفعًا
ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا
نشورًا ؟!

وإذا كان رفع الصوت فوق
صوت النبي ﷺ يحبط العمل،
لقول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ
آمَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ
بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ
أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات :
٢] ، فما بالكم بمن يرد
شريعته ويزعم أنها رجعية
ويدعي أنها غير صالحة في هذا

العصر ؟!

لقد تطاول المعري قديمًا على الشريعة فأنكر حد السرقة، وادعى التناقض بينه وبين حد القصاص لمن اعتدى على الآخر بقطع يده ، فقال وبئس ما قال :

يَدٌ بخمس مِئٍ من عَسْجد[1] وُدِيَت
ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له
ونستجير بمولانا من العار

فأجابه بعض الفقهاء بأنها كانت ثمينة لما كانت أمينة فلما خانت هانت وقال :

يد بخمس مئٍ من عسجد وديت
لكنها قطعت في ربع دينار
حماية الدم أغلاها وأرخصها
خيانة المال فانظر حكمة الباري

وقال غيره :

هناك مظلومة غالت بقيمتها
وههنا ظلمت هانت على الباري

وأجاب شمس الدين الكردي بقوله :

قل للمعرّي عارٌ أيما عار
جهل الفتى وهو عن ثوب التقى عار
لا تقدحن زناد الشعر عن حِكَم
فإن تعدت فلا تسوي بدينار[2]

الحكم بشرع الله دين وعبادة من أوجب العبادات وأعظم القربات فمن حكم بشرع الله فقد عبده ، ودان له وخضع له ومن حكم بغير شرع الله فقد جعل لله شركاء .

فعلماء الأمة ينكرون على أهل الضلال ، ويردون الناس إلى الحق المبين ، بالحجة والبيان ، والحكم بشرع الله عبادة لله وخضوع ، قال سبحانه : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].

فالحكم بشرع الله دين وعبادة من أوجب العبادات وأعظم القربات ، فمن حكم بشرع الله فقد عبده ودان له وخضع له ، ومن حكم بغير شرع الله فقد جعل لله شركاء ، كما قال سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] فكيف يترك الناس رب الناس ويلجأون إلى غيره ، ليسن لهم القوانين ويشرع لهم الشرائع ، والله تعالى يقول : ﴿ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس : ٣٥] ويقول :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] .

إن الله تعالى الذي خلق هو الذي يأمر هذا الخلق وعليهم أن يطيعوا أمره ، ويلزموا شرعه ، قال سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] فكما أن الناس يعترفون بأن الله هو الخالق ولا يزعمون أن أحدًا من الناس - حتى من يعبدونهم من دونه - له شيء من الخلق ، فلا بد أن يعترفوا له وحده سبحانه بالأمر والتصرف كما اعترفوا له بالخلق والتدبير ، كما قال سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص : ٦٨] ، وقال جل شأنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. ﴾ [النور : ٥١] .

لذلك لا بد أن يقف العلماء وقفة تحسب لهم في وجه المد العلماني اليهودي الصليبي الحاقد على الإسلام وأهله ، ليردوا الحكام إلى شرع الله المحكم ، فلا يحكموا غيره في قليل ولا كثير ، فالإسلام هو النور والحياة ، قال سبحانه : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، والله تعالى يبارك الأرض ومن فيها إذا طبق أهلها شرعه والتزموا أمره ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، أما أهل الباطل فمثلهم كما قال سبحانه : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

إن علماءنا الأجلاء يجب عليهم أن يبينوا للناس قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ .. ﴾ [النساء : ٥٩] .

فطاعة الله طاعة مطلقة ، وطاعة رسوله ﷺ طاعة مطلقة ، أما طاعة أولي الأمر فهي مقيدة مشروطة بطاعة الله ورسوله ، ولذلك قال : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ ﴾ فهل

نتنازع مع الله ؟ معاذ الله ، أم هل نتنازع مع رسول الله ﷺ ؟ معاذ الله ، إذًا التنازع بيننا وبين أولي الأمر واقع لا محالة ، فإن تنازعنا معهم وجب علينا أن نرد النزاع إلى الله ورسوله ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فكيف يشرعون الشرائع يبطلون بها الحدود ثم لا ننكر عليهم ؟!

إن الحكام والمحكومين إلى زوال ، ودوام الحال من المحال ، ولو دامت لغيرهم ما انتقلت إليهم ، فهلَّا يتذكرون أو ينتصحون أو يفيقون من سباتهم ، إنهم عبيد عاجزون عن قريب يموتون ، وعلى رب العزة سيعرضون ويسألون ، فهل أعدوا للحساب جوابًا ؟ وهل استعدوا للقاء الله كما يستعدون للقاء شعوبهم ؟ وماذا يقولون لله تعالى يوم الوقوف في ساحة الحشر حينما يسألهم - وهو أعلم سبحانه - لماذا لم تطبقوا الشرع الحنيف الذي أوحى به إلى خيرة خلقه ، ولماذا جعلتم حد الزنا حبس شهر أو يزيد ، وإذا تسامح الزوج سقط الحكم بالكلية ؟ أأنتم أعلم أم الله ؟ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

ولماذا أبحتم الخمر بغرض السياحة ؟ ولماذا أبحتم الربا بفتاوى مريضة ؟ ولماذا حاربتم الفضيلة وأذنتم بالرذيلة ؟ ولماذا ادعيتم أنكم أعلم بمصالح العباد من خالقهم ؟ إن لم يكن ذلك بالقول فبالفعل ، إلى غير ذلك .

إن الله تعالى سيسأل كل راع عن رعيته ، أفلا سألت نفسك : كم من رعيتك لا يجد له مأوى ومسكنًا وملجأ يبيت فيه غير المقابر ؟ كم من رعيتك من لا يجدون الكساء وإن وجدوه فلا يجدون الغطاء ، يسكنون العراء يفترشون الأرض ويلتحفون السماء ؟ كم من رعيتك من يخشى من قول الحق ؟ كم من رعيتك كرهوا الإسلام والالتزام واللحية والحجاب والنقاب بسبب إعلامك الخبيث والهجمة الشرسة على الفضائل بحجة محاربة التطرف والإرهاب ، كم من رعيتك من لا يجد الرغيف الحلال والحياة البسيطة ، وإذا أراد العمل الحر تتبعته الإتاوات والضرائب حتى تقعده فلا يقم بعد ذلك أبدًا ؟ كم من رعيتك نصحك ؟ وهل استجبت للنصح ؟ أم إنهم ينقسمون بين منافق لئيم ، وساكت رجيم ، وناصح حليم أمين كريم .

إن الإصلاح الحقيقي يبدأ بإصلاح العقيدة أولًا ، بالإيمان بالله قولًا وعملًا ، والأخذ بشرع الله كله ، لا أن نأخذ البعض ونترك البعض ، إن موسى عليه

الصلاة والسلام لما وجد بلدًا تعبد عجلًا أقبل عليه وحرقه ودمره ، قال سبحانه : ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه : ٩٧] ، ضاع عجل من الذهب في اليم نسفًا لتبقى عقيدة التوحيد ، لم يقل موسى عليه السلام نصهر هذا العجل ونحوله إلى سبائك وعملات ذهبية تحدث رواجًا اقتصاديًا في المجتمع ، ولكنه حرَّقه ثم نسفه في اليم نسفًا حتى لا تفسد عقائد الناس .

إن ديننا هو كل رأس مالنا وهو أغلى ما نملك فهل نفرط فيه ؟ أو نرى المفرطين والمفسدين والظالمين ونسكت ؟!

يا حكامنا لا تحرمونا من أن نعيش في ظل شرع الله المطبق ؛ لأنكم بذلك تحرموننا من نور الحق وبركته وحفظه ورعايته ، لأنكم تتحملون مسئولية غياب شرع الله عن أرض الله .

يا علماءنا اتحدوا وانصحوا وبينوا كل الحقائق لعل الله أن يخرج بكم العباد من الظلمات إلى النور ، ولتكن لكم وقفات ووقفات لرد الناس إلى شرع الله ؛ لعل الله تعالى أن يتقبل منا إيماننا وديننا وأعمالنا وصلاتنا ، ويبارك لنا في أبنائنا ونسائنا وشبابنا وشيوخنا ، وأن يرفع عنا البلاء والشقاء والمرض والهم والغم والكرب ، وأن يغنينا من فضله ويسبغ علينا نعمه الظاهرة والباطنة أكثر وأكثر ويرضى عنا وينصرنا على القوم الكافرين . اللهم هل بلغت ، اللهم فاشهد .

(١) العسجد : الذهب .

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم بتصرف (٢/٨٢، ٨٣) .

خمسٌ لم يعطهن نبي قبلي

الشيخان: عن جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « أُعطيت خمسًا لم يُعطهنّ أحدٌ من الأنبياء قبلي : نصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيّما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلّت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة ، وكان كل نبيٍّ يبعث في قومه خاصة . وبعثت للناس كافة » .

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله ومن والاه ، وبعد :

إن قصة ابني آدم فيها من العبر ، والفوائد الكثير ، ولذلك نريد أن نتعرف عليها في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ . لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [سورة المائدة الآيات : ٢٧ - ٣١] هذه القصة تبين : آفات إبليس وانتقالها إلى ابن آدم الأول ، وقد ورث القاتل من الشيطان : الجسد ، والحقد ، والعداء ، والبغض والظلم ، وتبنى هذه المهلكات ، وأراد أن يفرغها على أخيه ، ونذكر الفوائد في هذه القصة مستعينين بالله :

دروس وعبر من قصة ..

ابْنَيْ آدَمَ

بقلم
محمد رزق ساطور
رئيس فرع أنصار السنة بترعة غنيم

أولًا : لما كان كل ذي نعمة محسود ، وكانت النبوة والرسالة من أعظم النعم ، وقد أوتي النبي ﷺ هذه النعم ، فحسده اليهود ، ومكروا به ، وكادوا له ، فأخبر الله رسوله ﷺ بخبر ابني آدم ، وأمره أن يتلوه عليهم ؛ ليعلموا عاقبة الحسد من : خسران وكفران ، حتى يرتدعوا ويرعووا ويتوبوا إلى الله رب العالمين ، ولا يتاجروا في الحسد ويبالغوا فيه ، حتى لا تسوء خاتمتهم وينقلبوا خاسئين خاسرين .

ثانيًا : لمَّا ادَّعى اليهود والنصارى دعواهم الباطلة فقالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] فأخبرهم أن هذه الدعوى لا تنفعهم مع كفرهم ، كما لم ينتفع ولد آدم عند معصيته ؛ بكون أبيه معظمًا عند الله . فبدلًا من الدعاوى العريضة ، والأوهام الكاذبة عليهم أن يتوبوا إلى الله تعالى ، وإلا كان مصيرهم الندامة والحسرة ، مثل ابن آدم القاتل .

ثالثًا : في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

لأن القرآن الكريم هو : الكتاب الحق أنزله الله بالحق : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ١٤٤]، لأن أهل الكتاب تعود فريق منهم ، بل وأتقنوا كتم الحق ، قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦]، حتى يعتبر أهل الكتاب بهذا القصص الحق ، فلا يحملوه على اللعب والباطل ؛ لأن القصص الحق هو : قصص القرآن ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران : ٦٢]، وكما قال سبحانه : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف : ١٣] أما غير قصص القرآن فقد دخله الزيف والتحريف ، والكذب والبهتان ، لذلك دعي أهل الكتاب للحق حتى يؤمنوا به .

رابعًا : في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ .

قال ابن قتيبة : « والقربان : ما تقرب به إلى الله تعالى من ذبح وغيره » ، وذلك أن القاتل حين ضن بأخته على أخيه ، وأراد أن ينكحها ، فقال : فلنقرب قربانًا فأينا تقبل قربانه فهو أحق بها ، فقرب كل منهما قربانًا ، وكانت علامة القبول : أن تنزل نار من السماء تأكل القربان المتقبل ، قال ابن عباس : « كان الرجل يتصدق فإذا قبلت منه نزلت نار من السماء فأكلته ، وكانت نارًا لها دويٌّ وحفيف ، وقال عطاء : كان بنو إسرائيل يذبحون لله ، فيأخذون أطايب اللحم فيضعونها في وسط البيت تحت السماء فيقوم النبي في البيت ، ويناجي ربه فتنزل نار فتأخذ ذلك القربان ، فيخر النبي ساجدا فيوحي الله إليه ما يشاء » .

كما قال سبحانه عن اليهود : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٨٣].

فابنا آدم قربا قربانًا لله رب العالمين ، وهذا يدل : على حرمة القربان لغير الله .

خامسًا : في قوله تعالى : ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ ﴾ .

فالمسألة لا تتوقف في القربان على مجرد الأداء ، فرب مؤدٍّ للقربات والطاعات ترد عليه أعماله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣]، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا . ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ - ١٠٥]، وهذا يدل على أن العمل قد يتعرض للمحبطات التي تفسد العمل وتضيع ثمرته : كالكفر ، والشرك ، والرياء ، والردة . والنفاق ، ورفع الصوت على النبي ﷺ ، والجهر له بالقول ، وبغض ما أنزل الله ، ومعاندة الرسول ﷺ ، وغير ذلك من محبطات الأعمال . ومن ثم يجب الاحتراز عنها أملًا في الانتفاع من الأعمال الصالحات بالقبول والرضوان عند الله .

سادسًا : في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

وهذا يدل على : أن أهل الباطل لا ينتفعون بالحق ، ولا يتعظون بالمواعظ والآيات ، لأنهم في عمى عنها ، فقد رد الله على قابيل قربانه ، فبدلًا من أن يقبل على نفسه فيلومها على تقصيرها ، ويعلم أنه عوقب بسبب نفسه ، فيقبل على نفسه يهذبها ويطهرها مما علق بها وأفسدها ، حتى يغير الله حاله كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، بل لم يفعل شيئًا من ذلك ، ومن شدة العمى عن الحق بارز أخاه العداء ، وكأنه السبب في رد قربانه ، تمامًا كما فعل إبليس حين طرد من رحمة الله ، فبدلًا من أن يتوب ويندم ويلوم نفسه على كبرها وفجورها ؛ أقبل على آدم يناصبه العداء ، ومن هنا نعلم : أن المعاصي تُسقى لأهلها من قِبَل الشيطان الرجيم : ومن ذلك أيضًا نعلم : أن أهل الباطل يكرهون أهل الحق ، ويناصبونهم العداء دون ما سبب أو إساءة بدرت منهم ، ولذلك أهل الباطل يتآمرون على أهل الحق : فيقتلونهم ويعذبونهم ويسجنونهم ؛ حتى لا يسمعوا لهم ، فهم يكرهون كلام أهل الحق ، فإن سكتوا كرهوا سكوتهم ، يكرهون أفعالهم ، ودعوتهم ومنهجهم ، بل يكرهون الخير الذي يأتي من قِبَلهم ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، فبدلًا من أن يقولوا اهدنا إليه طلبوا العذاب .

وبنو إسرائيل حين طلبوا أن يُبعث لهم ملك ليقاتلوا في سبيل الله ، فلما أخبرهم به استنكفوا ورفضوا : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ... ﴾ [البقرة : ٢٤٧]، فلا يظن أهل الحق أن ما يتهم به أبناء الصحوة الإسلامية باتهامات من تطرف وإرهاب وقتل وغيره من الافتراءات المستمرة التي يلقيها أهل الباطل ويدَّعون أنها السبب في العداء ، كلا ؛ بل هي طبيعة الصراع ، فأهل الباطل يساومون أهل الإيمان ليتركوا دينهم ، ولا يرضون بديلًا عن ذلك .

وقد كانت هذه هي سنة الله مع الأنبياء والمرسلين وأقوامهم ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، وقال سبحانه : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] ، فلقد أصبحت الطهارة والعفة جريمة يتهم بها الأطهار المؤمنون في مجتمع اللوطية الذين انتكسوا عن الفطرة السوية ، فانقلبت موازينهم وقوانينهم ، واعتبروا الأطهار خارجين عن المجتمع ، رافضين لقوانينه ، حريصين على هدم حضارة اللوطية ، وما أشبه اليوم بالبارحة ، فلقد حوربت الفضيلة ، وثارت ثائرة العلمانيين على الحجاب والنقاب ، فقالوا : أخرجوها من المدرسة والجامعة ، في حين أنهم رحبوا بالسافرات المتبرجات المغيرات لخلق الله ، وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم : ١٣] فالجاهلية لا ترضى عن الإسلام ولا عن أهله ، ولا تسالم الإسلام ولو سالمها ، ولذلك قل لي بربك ما الذي جناه أهل البوسنة والهرسك حتى تستأصل شأفتهم ، ويقتلوا تقتيلًا ، وتنتهك أعراضهم ، ويتيم أطفالهم ويشردوا ، ويستغيثون ويكون ، وقد جف دمعهم وتبدل بالدم ، أملًا في أن يرحمهم أحد ، وصدق قول القائل :

لقد أسمعت لو ناديت حيًا
ولكن لا حياة لمن تنادي

أين مبادىء من يزعمون المبادىء ؟ وأين هي حقوق الإنسان ؟ وأين الرحمة والرفق بالأطفال ؟ وأين .. ؟ وأين .. ؟ ، كل ذلك موجود ميسر عاجل غير آجل لغير المسلمين ، أما المسلمون فلا يستجيب لهم أحد ، ويكفيهم الله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٣٧] ،

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦] ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧].

أما أهل التخاذل والذين في قلوبهم مرض ، أهل النفاق الرخيص والضلال المبين ، فإنهم يسايرون الحال ، ويمشون في الركاب طمعًا في الفوز بالمال وراحة البال . فتراهم يصححون الباطل ، ويجادلون في الحق بعد ما تبين ويتناصحون بالتخاذل . كما يقول القائل : إن وجدت بلدًا تعبد عجلًا فاجمع له من الحشائش وأطعمه ، ومنهم من يقول : دعونا نأكل عيشنا بجبننا . أو يقول : الباب الذي يأتيك منه الريح أغلقه واسترح ، وكأنهم يقولون :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوّم
إن قيل إن نهاركم ليل فقولوا مظلم
أو قيل هذا شهدكم مر فقولوا علقم
أو قيل هذا طاغوت تقي فقولوا نعلم
أو قيل ماذا تستحقوا فقولوا نعدم

فانظر إلى الحضيض الذي يشعر به أهل الباطل ، أهل التبرير ، مصيبة المجتمع الذين يزينون الباطل ، ويحرصون عليه . ألا ساء ما يزرون .

إن قول الحق لا يقصر من العمر ، ولا يدني الأجل ، ولا يباعد الرزق ، أو يفوت الخير .

لشهر الجمعيات والمؤسسات الخاصة

طبقًا للقانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤

تشهد مديرية الشئون الاجتماعية بالشرقية .

بأن جمعية : أنصار السنة المحمدية الكائن مقرها بناحية العواسجة مركز ههيا قد تم شهرها طبقًا لأحكام القانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤ .

بشأن الجمعيات والمؤسسات الخاصة ، واللائحة التنفيذية لذلك القانون تحت رقم ٩٠١ محافظة الشرقية اعتبارًا من ١٩٩٤/٩/٥

للعمل في ميدان : ١ - الخدمات الثقافية والعلمية والدينية .

٢ - المساعدات الاجتماعية .

٢

دروس وعبر من قصة ابني آدم عليه السلام

بقلم
الشيخ محمد رزق ساطور
رئيس فرع أنصار السنة بترعة غنيم

سابعًا : في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

والمتقون : الذين يتقون المعاصي أو يتقون الشرك ، والتقوى من صفات القلوب ، فلقد أشار النبي ﷺ إلى صدره وقال : « التقوى هٰهنا »[1] ، وكأن ابن آدم أرشد أخاه إلى سبب حرمانه ورد قربانه ، فإن كنت صادقًا فأقبل على قلبك وجمِّله وحسِّنه بالتقوى ، وقد نصحه وأبلغ في النصح حين بصَّره بعيبه ليتلاشاه فيقبل الله منه .

والتقوى هي الأساس في الخير والإيمان ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ثامنًا : في قوله تعالى : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة : ٢٨] .

أراد ابن آدم أن يرد أخاه عن الظلم فذكره بتقوى الله ، ثم أبدى له المسالمة ، وأنه لا يستحل قتله ، ولا بسط يده إليه بما لا يليق ، وما لم يأذن به الله ، وهكذا أهل الحق يعظمون حدود الله فلا يعتدون ، ولا يستبيحون لأنفسهم الحرام .

إن أسلوب الرحمة والعفو والتسامح والإحسان يرد النفس عن غيها ، ويهدىء الحسد ويسكن الشر ، ويرد الآخر إلى الصواب ، لقد كان في هذا الكلمة الكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

تاسعًا : في قوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] .

أي: أن تركة المدافعة لم يكن عن عجز أو ضعف أو قلة حيلة ، بل لقد ورد أن هابيل كان أقوى من القاتل - قابيل - لكنه تحرج من قتله خوفًا من الله ، فالخوف من الله تعالى يحجز العبد عن الحرام ، ويصده عن الغي والباطل ، ولذلك لا يوجد حصن للمجتمعات التي تزعم أنها تملك أسباب الأمن إلا بالخوف من الله ؛ لأن الخوف من الله يعني المراقبة لله في السر والعلن ، فكم من خائف من السوط والسجن والعقاب في الدنيا إن أتيحت له الفرصة عثا في الأرض فسادًا ، بل إننا نرى الذين يعاقبون بالحبس في السجون للاتجار في المخدِّرات والمسكرات ؛ يخرجون بعد أداء فترة العقوبة أكثر تمرسًا وإصرارًا على القبائح ، فلا يهذب النفس ، ولا يقوم اعوجاجها إلا شرع الله والخوف من الله .

وهذه موعظة ثالثة يلقيها ابن آدم لأخيه ليرده عن غيه ، فهو قد دله على التقوى ثم المسالمة ، وعدم البدء بالاعتداء ، والإحسان ، ثم تأتي الموعظة بالخوف من الله ، وحينما يعلم العاصي أن المطيع الذي تقبل قربانه يخاف الله ؛ فينبغي له أن يتأسى به في ذلك لأن هذا باب القبول .

عاشرًا : في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة : ٢٩] .

وذلك لأن الظالم إذا لم يجد يوم القيامة ما يرضي خصمه - ولا بد من القصاص - فحق العباد لا يترك الله منه شيئًا ، فإنه يحمل من سيئات الذين

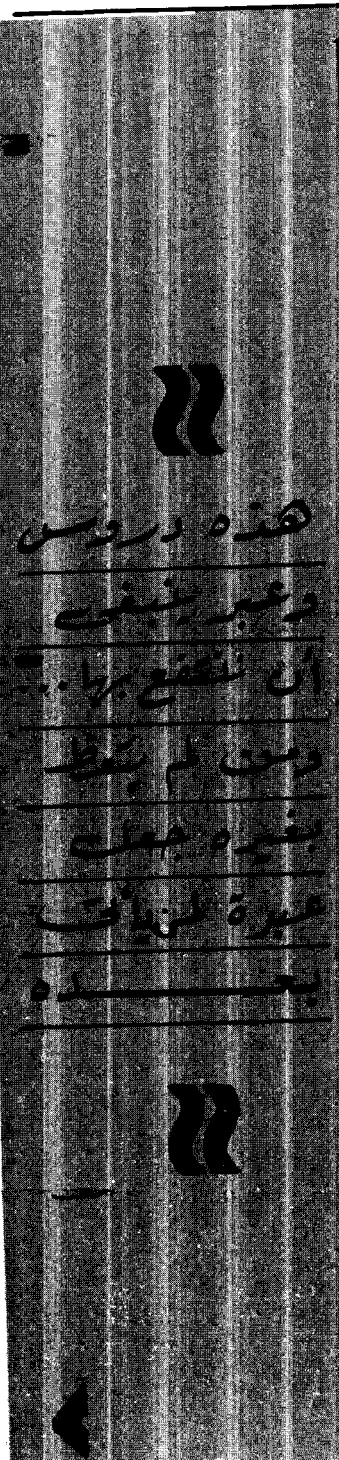

ظلمهم ، فهو يحمل إثمه وإثم من ظلمهم ، فابن آدم يذكر آخاه بيوم الحساب والجزاء ، يوم لا درهم ولا دينار ، كما قال النبي ﷺ : « أتدرون ما المفلس ؟.» قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال : «إن المفلس من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه ، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار »[٢] .

وهذا زجر وتخويف من تبعة الإثم في يوم لا مرد له من الله ، والإنسان مشفق على نفسه من آثامها ، ويخشى الهلاك بسببها ، فكيف إذا حمل أوزارًا

حادي عشر : في قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ ﴾ [المائدة : ٢٩] .

ثم خوفه بسوء العاقبة والمنقلب والمآل إن استمر في غيه وعناده ، خوفه بالنار ، وما أدراك ما النار ! قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : ١٠٦] ، وقال : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٩] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا. هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٤] .

ويقول رسول الله ﷺ : « نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم » قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا »[٣] ، ولو أن الباغي استحضر العذاب لانزجر عن الظلم والاعتداء، ولذلك اجتهد هابيل في بذل النصيحة لأخيه بكل صورها ؛ ليرده عن الباطل ويدعم الخير فيه ، لكن القلوب القاسية لا تؤثر فيها نصيحة ولا ينفعها وعظ ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤] .

ثاني عشر : في قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٩] .

المعصية ظلمات بعضها فوق بعض، فما زال ابن آدم يزجر أخاه عن المعصية ، ويحضه على

التقوى ، ويظهر له التسامح في أبهى صوره ، ويخوفه من الله ، ومن عقابه في النار ، وأن الظالم يستحق النار والنكال والعذاب ، كل هذه النصائح الغالية يستجيب لها داعي الفطرة المستقيمة ويعلم أنها الحق ، ولكن القلب المظلم الأعمى عن الحق ، المريض بالشهوات والشبهات ، الذي غيم عليه الران وطُبع عليه وختم ، فانصرف عن الحق ، واتبع هواه وكان أمره فرطًا ، لا يمكن أن يستمع للحق ، وإن استمع فلا ينتفع، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢ - ٢٣] .

ثالث عشر : في قوله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ [المائدة : ٣٠] .

بعد هذه المواعظ ، التي تحرك الجبال، لم يستجب لها داعي الفطرة القويمة بل ردت نفسه النصح وقاومته ، بل طوعت فحسنت وسولت وشجعت وسهلت وهونت وزينت وبررت له قتل أخيه ، وهذا يشعر بأن النفس فيها وازع للخير لا ينزوي إلا إذا بررت النفس الخبيثة للإنسان فعل السوء ، ولذلك إذا نظرت إلى أنواع الفساد بين الناس ؛ تجد أن أحدًا لا يقدم على المعصية إلا إذا سولت له نفسه وهونت له تلك المعصية ، فربما تزين النفس الخبيثة لبعض الناس أن يأكل أموال اليتامى ظلمًا بالتبرير ، كالذي يقيم السرادقات عندما يموت الميت ، ويأتي بالقراء يقرأون القرآن ، ويذبح الذبائح ، فإذا انفض السرادق وانصرف الناس ، ذهب أولئك إلى تركة الميت فأخذوا منها ما بذلوه في البدع والمنكرات ، مع أن هذه الأموال أصبحت أموال الورثة بما فيهم اليتامى ، فلكي يبتدع ويتظاهر أمام الناس أنه جاء لميته بسرادق سعته كذا ، وقارئ من الإذاعة من المشهورين يتعاطى كذا وكذا ، ولكي يحقق ذلك يأكل أموال اليتامى ظلمًا ، ولو حكموا الشرع لأحسنوا إلى ميتهم بحسن تغسيله وتكفينه والصلاة عليه وإكثار المسلمين للدعاء له ودفنه ثم الاهتمام بعياله وترك أموالهم لهم هذا أنفع للجميع لولا تدخلات وتبريرات وتسهيلات النفس الخبيثة .

وعلى ذلك فقس ، فمن أراد أن يعق أباه وأمه ، تبرر له النفس الخبيثة ذلك

بأن مَنْ كبر سنه فإنه يهرف بما لا يعرف ، أو أن أمه تظلم زوجه وتفعل وتفعل ، كذلك المرابي ، وشاهد الزور ، والكذاب ، والسارق ، والزاني ، والمبتدع ، والمشرك ... ، لا يقدم الإنسان على الشر إلا إذا قامت النفس الأمارة بالسوء بدورها في تزيين هذا الشر ، عند ذلك يقدم الإنسان على الحرام بلا أدنى وازع ، بل ربما لا يلوم نفسه على ذلك . نعوذ بالله من الخذلان .

فابن آدم لم يقبل على فعل القتل إلا بعد ما سهلت له نفسه قتل أخيه فقتله .

رابع عشر : في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

خسر دنياه وآخرته ، فقد خسر أخاه ، ففقد الناصر والرفيق والناصح الأمين ، وخسر نفسه فأوردها المهالك ، خسر ود أبيه وبر أمه ؛ فأصبح عاقًّا لئيمًا ، خسر المرأة التي قتل ليتزوجها ، ففي شرع الله من اعتدى بالقتل عوقب بعكس مقصوده ، فمن قتل ليرث لا يرث ، ومن قتل ليتزوج لا يتزوج ، وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير فهو من الخاسرين .

وهذا درس لأهل الباطل الذين يفخرون بالاعتداء على الآمنين من أهل الإيمان أن مآلهم إلى الخسار ، وسعيهم إلى البوار ، ودنياهم شقاء وآخرتهم دمار .

خامس عشر : في قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة : ٣١] .

هذا المبعوث جاء لمهمة وغاية وهدف محدد ، جاء لينبه ابن آدم الذي ضل عن طريق الله، فحينما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به ، وتحير في أمره ؛ لأنه أول ميت من بني آدم ، انظر إلى هذا القاتل مع بطشه وشدة فتكه واعتدائه على أخيه ، وقف عاجزًا ضعيفًا قليل الحيلة متحيرًا . لا يهتدي إلى ما يصنعه مع أخيه ، فبعث الله غرابًا ؛ ليدله على ما يفعله بأخيه . والتقدير أنهما غرابان قتل أحدهما الآخر ثم واراه في التراب ، وهذه طريقة في التعليم ، وهي التعليم بالتلقي ، وبالتأسي فينبغي أن ينتفع الإنسان بما يراه ، فلعل ما يراه يكون مقصودًا له ليتعلم منه ، ولا ينبغي أن يهمل الآيات والعبر المشاهدة بل عليه أن ينتفع بها . وهذا الدرس يدل على أن ابن آدم حين يضل عن طريق الله فشر الحيوان يكون أهدى منه سبيلًا ، فمع أن الغراب يضرب به المثل في الخراب فيقولون

عن الأرض الخراب : أرض طار فيها الغراب ، وعن الرجل حين يظهر شيبه : طار غراب رأسه ، ويقولون : أزهى عيشًا من غراب ، وهذا وأبوه أشبه بالغراب من الغراب ، ومع ذلك ففي كل شيء وجه حسن وفائدة مرجوة ، فقد كان الغراب دالًا على مكرمة لابن آدم وهي سنة الدفن ، فالغراب دل على خير ، فماذا فعلت أنت ؟ .

سادس عشر : في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ [المائدة : ٣١] .

لقد تحسر وتلهف وندم على أن الغراب أهدى منه سبيلًا ، فهو منذ أن قتل أخاه في حيرة من أمره ، لا يدري كيف يصنع به ، فإذا بالغراب ، يأتي بما عجز هو عنه ، ويرق الغراب على الغراب ولا يرق ابن آدم على أخيه ، عند ذلك تحسر على فوات الفهم والإدراك والتصرف ، وهذه نتيجة حتمية لكل من ضل عن طريق الله .

سابع عشر : في قوله تعالى : ﴿ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ﴾ [المائدة : ٣١] .

فالبدن بعد الموت سوأة يجب أن يوارى ، وقد أكرمنا الله بأن هدانا لسنة الدفن إكرامًا ورفعة لبني آدم ، ولقد ظن ابن آدم القاتل أنه لو واراه من البداية ما علم به أحد ، وهذا سبب من أسباب تحسره ، ولا يعلم أن الله جعل في كل مستور ما يكشفه ، ولا بد للمكتوم أن يظهر ، ولذلك لما قتل الإسرائيلي أخاه وظل يبكي ويصرخ عليه وتوهم بذلك أنه لن ينكشف أمره ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّارَأْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٢] . وكُشِف أَمْرُه .

لذلك فإن للمعصية أثرًا في الوجه مع أنها قد تفعل في الخفاء ، فهي تسوده وتظلمه وتنزع منه نوره وبهاءه ، وللطاعة أثرها على الوجه من النور والقبول والبهاء والجمال ، ولذلك قيل : من حسن عمله بالليل حسن وجهه بالنهار .

ثامن عشر : في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٣١] .

وذلك أنه رأى أخاه في البداية تقبل الله منه قربانه ، وعند موته بعث الله غرابًا إكرامًا للميت ليدفن وهذه مكرمة أخرى ، ثم الغراب أهدى من القاتل سبيلًا ، وأرأف منه بأخيه وأرق ، وهذا حرمان للقاتل من الرحمة والرأفة والود ، فندم

أن فاته ذلك كله ، وليس ندمه توبة لله وتحسرًا على ما جنى واقترف ، ولذلك لم ينتفع بهذا الندم ؛ لأنه تحسر على فوات حظه من الدنيا ، وليس لعظيم جرمه وجنايته ، فحرم من خيري الدنيا والآخرة .

هذه دروس وعبر ينبغي أن ننتفع بها ، ومن لم يتعظ بغيره جعل عبرة لمن يأتي بعده .

فاللهم اجعلنا هداة مهديين ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد رزق ساطور

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (١٩٨٦/٤) (٢٥٦٤) ، والترمذي (١٩٢٧) ، وأحمد (٢٧٧/٢) ، والبيهقي (٩٢/٦) .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (١٩٩٧/٤) (٢٥٨١) ، والترمذي (٢٤١٨) ، وأحمد (٣٠٣/٢) .

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٨٠/٦ ، ٣٨١) (٣٢٦٥) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣) ، ومالك في الموطأ (٩٩٤/٢) في صفة الجنة .

فضل الحب في الله تعالى

مسلم:عن سعيد بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظِلّي » .

مالك:عن معاذ رضي الله عنه أنه ﷺ يقول : « قال الله تبارك وتعالى . وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ » الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم لله .

الترمذي : تعالى الترمذي صحيح عن معاذ رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور . يغبطهم النبيون والشهداء » .

مع السيرة

الشيخ محمد رزق ساطور
مدير إدارة التعليم وشئون القرآن
بالمركز العام

دروس وعبر من قصة نبي الله سليمان عليه السلام

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمه للعالمين .

وبعد ..

إن في قصص القرآن الكريم من الدروس والعبر والعظات الكثير التي ينبغي أن نتأملها ونتدبرها لننتفع بها ، ومن هذا القصص الكريم قصة نبي الله سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ونلتقي في هذه العجالة مع آيات سورة النمل والتي تقص علينا نبأه مع جنوده ، تبدأ بقول الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٢٠ - ٤٤]

نبدأ بذكر تلك الدروس والعبر فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : في قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ .

فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ .

[سورة النمل : ١٧]

فجنود سليمان عليه السلام كثيرون ، من الجن والإنس والطير ، ومع كثرتهم فكان حاله عليه السلام مع جنوده التفقد لهم ، لأنه راعٍ ومسئولٌ عن رعيته ، يهتم بجنوده ولا يهملهم ، بل يرعاهم ويتحسس أحوالهم ليصلحها لأنه مسئول عنهم فلا ينبغي أن يضيعهم ، فالطير يأخذ حقه من العناية والرعاية ، فتفقد الأحوال لا تجده إلا في عالم الأنبياء والأتقياء الذين يخافون من السؤال عند لقاء الله ويتأهبون له ، يخافون أن يُسألوا عن الرعية ، أما إذا تخلف الدين عن حياة الناس عقيدة وعبادة وشريعة حاكمة فالأمر يختلف

تمام الاختلاف فالحكام عند غياب الشريعة لا يتفقدون الرعية ولا يقسمون بالسوية ولا يجهزون السَّرية ولا يعدلون في القضية، لا يشغلهم طير، ولا يهمهم حيوان، بل لا يسألون كيف يعيش الإنسان، هل يسكن البيوت والقصور أم ينام على الأرصفة والقبور، هل يأكلون ويشربون أم لا يجدون ما يسد الرمق ويقوى العود، هل هم آمنون في قراهم ونجوعهم أم جرفتهم السيول ودمرتهم الأعاصير، وصعقتهم الكهرباء أم سقطت عليهم الصخور فسحقتهم مع بيوتهم، ومن نجى من السيل ربما غرقت بهم السفن، ولعبت بجثثهم الأمواج، أو التهمتهم الأسماك، ومن نجى من كل ذلك اكتوى بنار الغلاء والوباء، إن عاشوا لم يشعر بهم أحد وإن ماتوا لم يألم لهم أحد، ففي غياب شريعة الله عن أرض الله لا يحرص الحكام على شيء إلا على مصالحهم الذاتية، ومنافعهم الدنيوية التي شغلتهم عن تفقد أحوال الرعية، انشغلوا بالكراسي المزخرفة والأضواء الباهتة والمناصب الزائلة التي لا تدوم لأحد، ففرعون مع ما كان يتمتع به من ثياب فاخرة، وخيول ومراكب فارهة، وجنود تحفه من كل جانب، لما تكبر واستكبر وعلا في الأرض وتجبر، واستعبد المصريين واستذلهم، شاء الله سبحانه أن يموت فرعون تحت سنابك الخيل، فيستغيث فلا يغاث، ويعتذر فلا يقبل منه، يقول ربنا سبحانه ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾.

[يونس : ٩٠ - ٩٢].

فهل اتعظ من خلفه بتلك الآية واعتبر بها، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.

[ق : ٣٧].

فنبي الله سليمان يتفقد جنوده من الطير على الرغم من كثرة جنوده، وما كلف به من الدعوة إلى دين الله رب العالمين، وكذلك أهل الإيمان لا يضيعوا رعيتهم لأنهم مسئولون عنهم أمام الله، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعاهد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض حواش المدينة من الليل، فيستقي لها ويقوم بأمرها فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرَّة كُلاً يُسْبَقُ إليها فرصده عمر، فإذا بأبي بكر الصديق الذي يأتيها وهو يومئذ خليفة. [أسد الغابة لابن الأثير (٣ / ٣٢٧).

وعن عمة حُبيب بن عبد الرحمن قالت نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين: سنتين قبل أن

يُستَخلف ، وسنة بعد ما استُخْلِفَ فكان جواري الحي يأتينه بغنمهن ، فيحلبهن لهن » [أسد الغابة (٣ / ٣٢٨) .

ولما بويع الصديق بالخلافة قالت جارية من الحي : الآن لا يحلب لنا منائحنا فسمعها أبو بكر فقال : بلى لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه ، فكان يحلب لهن ، فربما قال للجارية أتحبين أن أُرْغِيَ لك[1] أو أن أُصَرِّح ؟ فأي ذلك قالت فعل » المصدر السابق .

ورحم الله عمر فقد جاءه أعرابي فقال :

يا عُمَرَ الخير جُزيت الجنّة
جَهِّز بُنَيَّاتي واكْسَهُنَّه
أقسم بالله لَتَفْعَلَنَّه

قال : فإن لم أفعل يكون ماذا يا أعرابي ؟ قال : أقسم بالله لأمضينّه ، قال فإن مضيت يكون ماذا يا أعرابي ؟ قال :

والله عَنْ حَالي لَتُسْأَلَنَّه
ثُمَّ تكون المَسْأَلات عَنَّه
والواقف المسئولُ بَيْنَهُنَّه
إمَّا إلى نار وإمَّا جَنَّة

قال فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه ثم قال : يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره ، والله ما أملك قميصاً غيره » .
أسد الغابة (٤ / ١٦٥) .

وحينما مر عمر بامرأة وحولها صبيان يبكون وإذا قدر على النار قد ملأتها ماء ، فدنا منها وسألها : أيُشٍ[1] بكاء هؤلاء الصبيان ؟ فقالت : بكاؤهم من الجوع قال : فما هذه القدر التي على النار ؟ فقالت قد جعلت فيها ماءً أعللهم بها حتى يناموا أوهمهم أن فيها شيئاً من دقيق وسمن . فجلس عمر فبكى ثم جاء إلى دار الصدقة فأخذ غرارة وجعل فيها شيئاً من دقيق وسمن وشحم وتمر وثياب ودراهم حتى ملأ الغرارة ثم قال : يا أسلم احمل عليَّ ، قال فقلت : يا أمير المؤمنين أنا أحمله عنك ، فقال لي : لا أمَّ لك يا أسلم أنا أحمله لأني أنا المسئول عنهم في الآخرة - قال فحمله على عنقه حتى أتى به منزل المرأة ، قال أسلم : وكانت لحيته عظيمة فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته حتى طبخ لهم ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا ... فلم يزل كذلك حتى لعبوا وضحكوا » المصدر السابق .

فالإيمان والتقوى والخوف من الله والرجاء في النجاة أخذ بقلوب الحكام فحكموا بشرع الله وعدلوا فأمنوا فرضي الله عنهم وأرضاهم ، ولكن إذا تخلف الإيمان وحُكِمَ بغير شرع الله عميت القلوب فتخبطت ، فضل سعيها وحبط عملها ، وأهلها يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ثانيا : ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ .

لقد لفت نظر نبي الله سليمان عليه السلام غياب هدهد لا يملأ الكف وهذا يدل على كمال الاعتناء والاهتمام والتفقد ، إن الإنسان ليعجب ويقف أمام هذا الموقف بكل تقدير ، إذ كيف لا يغيب عن نبي الله - مع كثرة جنوده واتساع ملكه - هدهد لا يكاد يظهر ، خاصة إذا قارنت هذا الحال مع حال بعض المسئولين

الذي يوقعون على تقريرات العمل والعمال، وربما لا يعرفون عنهم شيئاً، ولا عن الإنتاج والحوافز، مما يدفع بعضهم عند التسوية يشعلون الحرائق حتى تضيع الأموال المسروقة في الأشياء المحروقة ويتحول الجناة في نظر شعوبهم إلى قادة وكبار، أو أولئك الذين يطورون المناهج ويريدون أن يزيلوا الهوية الإسلامية اعتماداً على تقارير كاذبة لا تمت للحقيقة بصلة. أو أولئك الذين يأخذون بالظنة ويتهمون الأتقياء بالتطرف والإرهاب، لأنهم يعتمدون في أحكامهم على قوم خربت ذممهم، لا يفرقون بين الحق والباطل أفلا يتأكد هؤلاء من تلك التقارير قبل أن يصدروا الأحكام فيضلوا ويُضلوا ويظلموا فكم هدمت تلك التقارير السوداء شبابا فيهم الخير إن وجّهوا، وكم يتمت من أطفال، ورمّلت من نساء، أفلا يتفقدون الرعية بدلا من الظنة والاتهام فنبي الله سليمان يسأل سؤالا محدداً مالي لا أرى الهدهد.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ﴾.

فنبي الله سليمان لا يصدر الحكم قبل العلم، ولذا فهو يسأل عنه فربما غاب عن عينه، أو توارى بشيء أو أصابه مكروه فخلفه، فحتى لا يحكم عليه مسبقا قبل أن يعرف حاله سأل عنه. وما أحوجنا إلى التثبت قبل إصدار الأحكام، فهذا رسول الله ﷺ يرى سليكاً الغطفاني يجلس في المسجد وهو يخطب دون أن يصلي فيسأله: أصليت يا سليك؟. فلعله صلى في مكان لم يره النبي ﷺ ثم اقترب ليستمع، ولذا سأله النبي ﷺ، فلما قال: لا، قال له: قم فاركع ركعتين»[1].

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا يدل على الحزم مع الجنود، فالمخالف يستحق التعزير أو إقامة الحد أو العفو إن ظهر عذره، ولا ينبغي أن يعجل في الإنكار والتعزير إلا بعد التيقن منه، فمن أصاب من تلك القاذورات شيئاً فبدا أمره وثبت فعله بالشهود العدول، أو الإقرار الصحيح أقيم عليه الحد، وإن لم يبلغ الحد فالتعزير بالتوبيخ والتأديب ليستقيم على أمر الله، ومن بدا عذره وأزال عن نفسه الريب والتهمة نجا من التعزير والحد.

فنبي الله سليمان يتهدد الهدهد الغائب، ولا يقضي في شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ويتبين عذره، ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي لم يغب زمنا طويلا.

خامساً: في قوله تعالى ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.

أي علمت شيئا لا تعلمه، وفي هذا دليل على بطلان قول الرافضة: أن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه، وكذا بطلان عقيدة المتصوفة الذين يزعمون أن شيوخهم يعلمون الغيب، ويزعمون أيضا أن من وقف عند القبر ونادى على الشيخ قضيت حوائجه، فتراهم

يقفون عند الأعتاب ويتمسحون بالأبواب ويتعلقون بالمقاصير بحجة أن شيخهم مكشوف عنه الحجاب ، فيعلم ما غاب ، فيرتمون عند قبورهم صائحين : يا شيخ فلان جئت لك والعارف لا يعرّف والشكوى لأهل البصيرة عيب ، مع أن ذلك شرك بالله رب العالمين ، فلا يعلم الغيب إلا الله ، ولا يكشف الكرب إلا الله ، ولا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله قال سبحانه : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾ [النمل : ٦٥]

وقال سبحانه : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ... ﴾ [الأنعام : ٥٠] فهذا نبي الله سليمان يخفى عليه أمر ملكة سبأ مع أن المسافة بينهما كانت قريبة ، كما أخفى الله على يعقوب عليه السلام مكان يوسف عليه السلام ، كما أخفى على رسولنا ﷺ أمر الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سماوات ، وإذا كان رسل الله وأنبياؤه لا يعلمون الغيب فمن باب أولى فإن غيرهم لا يعلمون الغيب ، حتى لا يتعلق أحد بأحد من الخلق ، ويخلصوا أمرهم لله رب العالمين ، فهذا هدهد صغير لا يملأ الكف يقول لسليمان عليه السلام ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ ولا ينكر عليه هذه المقولة .

أما المتصوفة فقد جعلوا شيوخهم فوق الأنبياء ، وفي كتاب الطبقات الكبرى للشعراني ما يندي له الجبين وتشيب من هوله الولدان بزعم أن ذلك الخبل كرامة ومن جملة ذلك في (٢ / ٨٦) أنه ذكر في كرامات سيده إبراهيم المتبولي فقال : « وكان إذا رأى إنساناً يعلم ما في نفسه وما هو مرتكبه من الفواحش » .

وذكر في كرامات سيده شمس الدين الحنفي (٢ / ٩٤) أنه « وقع لإمام زاويته أنه خرج للصلاة فرأى في طريقه امرأة جميلة فنظر إليها فلما دخل الزاوية أمر الشيخ غيره أن يصلي فلما جاء الوقت الثاني فعل كذلك إلى خمسة أوقات فلما وقع في قلبه أن الشيخ أطلعه الله على تلك النظرة استغفر وتاب فقال الشيخ ما كل مرة تسلم الجرة » اهـ .

وذكر النبهاني في جامع كرامات الأولياء (١ / ٢٧٧) عند الكلام على الخشاب « خطر ببال أبي مدين طلاق زوجته واستخار الله ثم رأى أن يستأذن في ذلك أبا العباس الخشاب فإنه كانت له حالة تعليم من الله فوافق هذا الخاطر دخول الخشاب على أبي مدين فقبل أن يكلمه أبو مدين قال له الخشاب : يا أبا مدين يقال لك أمسك عليك زوجك فمسكها » اهـ[1] . أرأيت ذلك الضلال والبهتان والتخرص ، الأدهى من ذلك أنهم يعتبرون ذلك الخبل والتخريف من كرامات أوليائهم وإذا اعترضهم أحد أثبتوا له بالكذب أن ذلك عين الكرامة ومن ذلك ما ذكره النبهاني « ... كانوا اعترضوا على الشيخ حسن سكر الدمشقي فدعوه إلى النزهة ليمتحنوه فذهب معهم ولما

جلسوا قال له محي الدين أبو لبدة لا بد أن تظهر لنا كرامة فقال هاتوا لي مائة من المتالكات وهي قطع صغيرة من الفضة المغشوشة فجاءوا له بمائة متاليك فأخذها وألقاها في فمه وابتلعها وفي الحال جلس بصورة من يقضي حاجة

الإنسان فأخرجها من أسفله دنانير من الذهب فأخذوها ... » (١ / ٤٠٢) جامع كرامات الأولياء . فلقد فطن الهدهد واهتدى إلى ما لم يفهمه المتصوفة ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] ؛ فلا

يعلم الغيب إلا الله فلا ينبغي أن يعتقد العبد لا في ملك مقرب أو نبي مرسل أنه يعلم الغيب لأن ذلك علمه عند الله الواحد القهار .

(البقية في العدد القادم) .

---

(١) يعني أتحبين لبناً تعلوه رغوة أو صريحاً خالصاً لا رغوة عليه .

(١) أي على أي شيء يبكون .

(١) الحديث رواه مسلم في الجمعة باب التحية والإمام يخطب (٨٧٥) (٥٩) ، والبغوي في شرح السنة (٤ / ٢٦٤) .

(١) هذا من جهلهم بالشرع واللغة ، والصواب « فأمسكها » .

زواج النبي ﷺ بحفصة بنت عمر - رضي الله عنهما

البخاري وأحمد : أن عمر - رضي الله عنه - حين تأيّمت حفصة - رضي الله عنها - من زوجها . وكان ممن شهد بدرًا . وتوفي بالمدينة . قال عمر : فلقيتُ عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فعرضت عليه حفصة . فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر . فقال : سأنظر في أمري . فلبثت ليالي ثم لقيته فقال : قد بدا لي أن لا أتزوج يومي : فلقيتُ أبا بكر - رضي الله عنه - فقلت له : إن شئت أنكحتك حفصة ابنة عمر . فصمت ولم يرجع إليَّ شيئًا . فكنت عليه أوجد منّي على عثمان . فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه . فلقيني أبو بكر - رضي الله عنه - فقال : لعلّك وَجَدْتَ عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة . فقلت : نعم . فقال : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها . فلم أكنْ لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ . ولو تركها لقبلتها .

الشيخ محمد رزق ساطور
مدير إدارة التعليم وشئون القرآن بالمركز العام

سادساً : في قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ فما أكثر الأنباء في سبأ ، تتزاحم الأنباء لدرجة أنك لا تستطيع أن تجد خبراً تصفه بأنه يقين ، فالخداع والكذب والتمويه والتضليل والتزييف تجعل الأنباء مختلفة ، فالناس يشيعون الأكاذيب ثم يصدقونها ، وهذه من الآفات التي غلبت عليهم ، ومن الأنباء السيئة القبيحة التي انتشرت بين الناس في هذه الأيام بدعة منكرة ، وضلالة بينة وكذب صريح .

دروس وعبر من قصة نبي الله سليمان

أنه في إحدى قرى محافظة المنوفية ظهر عدة دجالين كل منهم يزعم أنه بلمسة من يده يعالج الإيدز والفشل الكلوي و ... غير ذلك من الأمراض المستعصية ، أحدهم يزعم أن معه كذا بليون من الجن يقومون بالعلاج وهذا زيادة على كذبه في ادعائه يروج لعقيدة فاسدة يزعم فيها أن الجن يعالجون المرضى ، أو يملكون لأنفسهم نفعاً أو ضراً ، ومن ثم هو يعبد الجن من دون الله ، فهو يطيعهم فيما يأمرونه ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [سورة الجن الآية : ٦] ، ونبي الله سليمان دعا دعوة لله رب العالمين فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [سورة ص الآية : ٣٥] .

فمن زعم أنه يعالج بالقرآن ، والقرآن بريء من تلك الخرافات والافتراءات فالقرآن شفاء لما في الصدور وشفاء للأبدان ، ولكن للمؤمنين الذين لا يشركون بالله شيئاً ، ولا يعتقدون في غير الله ، ولا يلجأون لغير الله ليشفيهم بلمسة يده ، فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يخدمون الدين يسيئون إليه والدين منهم براء ، ويصدق عليهم قول القائل :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فالمريض إذا اعتقد أن الشفاء من فلان أو من الجن أو

من أحد غير الله سبحانه فقد أشرك بالله ، والأدهى من ذلك أن أحد هؤلاء الدجالين قد نشروا له في كتاب صورة أمام قبر البدوي وهو يدل على خراب في الاعتقاد ورحم الله من قال :

لا يغرنك ذو ثياب نقيت
وهي بالماء والصابون نظيفة
تشبه البيضة لما فسدت
قشرها أبيض والباطن جيفة

ولذلك تجد الأنباء يتناقلها الناس وتحمل في طياتها شراً مستطيراً فيذهب الناس إلى تلك الأماكن بالمئات أو الآلاف ، وإذا قلت لهم ، إن ما تفعلونه شركاً صريحاً ، وضلالاً مبينا ، قالوا : ألا ترى إلى تلك الجموع أكلها باطلة ضالة ، قلت إن استدلالهم بالكثرة يذكرنا بقصة رجل بخيل كان له ابن على عهد ملك يدعى « قاراقوش » وكان ملكاً ظالماً ، فكان ابن الرجل البخيل يعلم أن أباه غني ، فاستدان من الناس على أمل أن يسددهم حين موت أبيه ، فمرت الأيام والشهور ولم يمت أبوه ، فطالب أصحاب الديون الولد بحقوقهم ، فلم يجد الولد حيلة إلا أن أوثق أباه بالحبال وأشاع في الناس أن أباه قد مات ثم وضعه في النعش وحمله ليدفنه ، فمر به على قصر « قاراقوش » فتحرك الرجل في النعش ونادى بأعلى صوته على الملك فقال : أيها الملك أنقذني ، فإني حي لم أمت وظل يستغيث فنظر الملك إليه ثم قال له أنت تزعم أنك حي ، وخلفك عشرة آلاف كلهم يشهدون بمشيتهم خلفك أنك ميت ، فهل أصدقك وأكذبهم ، انطلقوا به إلى القبور . وقال سبحانه : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

[سورة الانعام الآية : ١١٦]

ويقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَكْثَر ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

[يوسف : ١٠٦]

ألا يعلم أولئك الذين يذهبون للعرافين والدجالين قول النبي ﷺ : « من ذهب إلى كاهن أو عرّاف فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[1] ، ولكن القلب إذا عمى عن الحق رأى المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً .

وهذا يذكرنا أيضاً بحال رجلين عاشا على خداع الخلق ، والتكسب من الكذب والأساطير في الموالد ، ولما تعبا من كثرة الترحال ، قال أحدهما للآخر نريد أن نستقر في هذا البلد ، قال : فماذا نصنع ، قال : نقيم ضريحاً نتكسب منه ، فوجدا حماراً ميتاً فدفناه ، ونصبا عليه قبة عالية ، وجاءوا له بمقصورة ذهبية أو فضية ، وأذاعوا في الناس بأمر ذلك الولي الذي ظهر في مكان كذا ، وأقاموا له مولداً ، فامتلأ صندوق النذور ، فسرقه أحدهما فسأله الثاني فظل يقسم له برأس الشيخ ...، حتى قال له : هل نسيت ؟ لقد دفناه سوّياً !! ولكن الناس تعودت على تلقف الأخبار المكذوبة ونشرها على غير وجهها ، ولكن المؤمن لا ينخدع بالأخبار المزيفة والأنباء المشبوهة لأنه يستبين له وجه الحق ، ولذلك الهدهد يعلم أن سبأ مليئة بالأنباء المتضاربة ، أنباء مسمومة قاتلة ، فهو لا ينقل أي نبأ ، بل إنه تأكد

بنفسه من صدق ذلك النبأ فقال : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ ولذلك لا ينبغي أن تستمع إلى كل ما يقال ، ولا تقل كل ما تسمع ، بل تخير من الأنباء ما تتأكد من صحته حتى لا تخدع أو تنخدع .

سابعاً : في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾

هذا هو النبأ اليقين الذي تأكد منه الهدهد قبل أن يقوله لسليمان عليه السلام ، امرأة تملك وتحكم وتتحكم وتلي أمور الرجال والمملكة بأسرها شيء لا يكاد يُصَدَّق ، فالمرأة ضعيفة ، ومتسترة في بيتها ، أنى لها أن تملك الرجال ، والنبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال : لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة »[1] فالمرأة لا تصلح في أن تتولى القيادة أو الرياسة على الرجال ، لضعف عقلها وقوامة الرجل عليها ، والأحكام الخاصة بها كمنع الرجال من الدخول على النساء ، وعدم اختلاطها بهم ، وما يطرأ عليها من حيض ونفاس وحمل ورضاع ، وتغير الأحوال والعاطفة عند موت قريب أو هلاك حبيب وعند طلاقها ، أو إذا تزوج بأخرى معها ، وهي أيضاً لا تزوج نفسها ولا تطلق نفسها ، بل ذلك لوليها ، وهي أيضاً لا تصلح لإمامة الرجال في الصلاة ، ولا تؤذن ، ولا تخطب الجمعة أو العيد ، ولا تتزوج أكثر من رجل في وقت واحد ، ولا تبدي زينتها لغير محارمها إلى غير ذلك من الأحكام الخاصة بالمرأة والتي تحول بينها وبين الولاية العظمى على الرجال ، ولذلك تعجب الهدهد حينما وجد المرأة بما فيها من قصور قد ملكت الرجال ، وهذا عكس الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

ثامناً : في قوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

والمرأة إذا أوتيت من كل ما تطلبه دخل عليها الفساد ، وانظر إلى حال المرأة التي يجمع لها الرجل أجمل الحلي وأفخر الثياب والقصور والمراكب الفارهة والأثاث ، فهي لا تقنع به وتتطلع إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيفسدها أو يعمل على ذلك ، هذا إذا ابتعدت المرأة عن دين الله ، لأنها إذا لم تشغل نفسها بالحق ، شغلتها بالباطل ، أما إذا آمنت واتقت ربها تصرفت في أموالها تبعاً لأوامر الله وهدي رسوله ﷺ فأحسنت إلى نفسها وإلى خلق الله ، فهذه المرأة جمعت مع توليها زمام الأمور في المملكة أوتيت بكل ما تريد ، وهذا يدل على التمكن في الملك .

تاسعاً : في قوله تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

والهدهد قد جمع في أسلوبه بين التقرير والتشويق لمعرفة الخبر الذي هو عذره في التأخير ، حتى يرغب نبي الله سليمان عليه السلام في أن يصغى إليه ، ولما يعلمه الهدهد فيه من محبة الجهاد ، ليغزوها فكيف تملك امرأة قوماً وتحتفظ لها بعرش عظيم .

• والهدهد يُفرّق بين عرش المرأة وبين عرش الرحمن

سبحانه في الوصف فعرش المرأة عرش عظيم ، أما عرش الملك جل جلاله فكما قال سبحانه ﴿ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ . فعرش الله سبحانه هو العرش العظيم الحقيقي المعرّف بالألف واللام ، لكن عرش المرأة ﴿ عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ نكرة ، وكذا عروش الملوك زائلة ، لو دامت لغيرهم ما انتقلت إليهم فهي عروش مؤقتة إما أن تزول عن أصحابها وإمّا أن يزولوا عنها ، ولذلك مَنْ أحسن من الحكام وحكم بشرع الله سبحانه وترك الهوى والباطل واتبع سنة النبي ﷺ ، وابتعد عن الكذب والبخل والصلابة والحسد والجبن ، انتفع بعرشه فانتقل إلى الآخرة تحت ظل عرش الرحمٰن يوم لا ظل إلا ظله . وقد وصف الهدهد عرشها بالعِظَم بالنسبة إليها وإلى أمثالها من ملوك الدنيا ، أما وصف عرش الله بالعظيم فهو بالنسبة إلى جميع المخلوقات من السمٰوات والأرض وما بينهما ، فبينهما بون عظيم وفرق بيِّن .

عاشراً : في قوله تعالى : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ .

ظل الهدهد مشغولاً بالمرأة التي تولت أمرهم حتى في محراب العبادة وقد تحولت وجهتهم وضلت عقيدتهم وانحرفت فطرتهم وانتكست نيتهم وتغيرت قبلتهم ، فرآهم يسجدون للشمس من دون الله .

وهذا دليل على أن الناس حينما تتصرف بأهوائها وآرائها بعيداً عن شرع الله فإنها تتخبط بعيداً عن الهدى ويحسبون أنهم مهتدون كيف يبتعد العاقل عن عبادة الله الخالق البارىء الواحد القهار ، ويتوجه إلى الشمس أو القمر أو الكواكب أو الشجر أو الجن أو البشر أو الوثن أو الحجر كيف ينسى الإنسان خالقه ويتنكر لعبادته .

ومن عجيب الأمر أنك ترى بعض الناس يُعَبِّدُون أبناءهم للشمس فحينما تقع أحد أسنان الابن ويأتي مستنصحاً أحد والديه فتجده يقول له اذهب إلى عين الشمس وارمها بها وقل : يا شمس ... إلى آخر هذا الدعاء المليىء بالشرك بالله ، إن الهدهد أنكر بشدة على المرأة وقومها أن يتوجهوا للشمس من دون الله ، فكيف يتوجه - من أسلم لله وصام وصلى - إلى الشمس يعبدها .

فالله تعالى هو المنعم ، الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ومن ثم أبطل إبراهيم عليه السلام عبادة الكواكب ، وجادل قومه فأبطل عبادة الكوكب ، ثم أبطل عبادة القمر ، ثم أبطل عبادة الشمس وقد كانت أكبر معبوداتهم . ولذلك لا ينبغي أن ننخدع بالخلق عن الخالق ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

[سورة النحل : ١٧ - ٢٠]

وللحديث بقية إن شاء الله

محمد رزق ساطور

بقلم
فضيلة الشيخ / محمد رزق ساطور
مدير إدارة التعليم وشئون القرآن

دروس وعبر من قصة هود

باب السيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه وبعد .

حادى عشر : فى قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ فالشيطان الرجيم يزين العمل القبيح إليغير من صورته حتى يوهم الناس به ليرتكبوه ، فانظر كيف زين الشيطان لهم عبادة الشمس من دون الله ، فغرهم بها وعبّدهم لها .

ولقد جعل الله من رحمته فى المحرمات والكبائر ما ينفر العبد من فعلها ، وما يدل على قبحها ، فالإنسان بفطرته يفر ويهرب من الخبائث والمنكرات، ولكن الشيطان يجتهد ويبذل كل جهده، ووظف جنوده ليطمس قبح المعاصى ،ويزينها فى غير صورتها ليسهل على الناس فعلها ، فالقتل مثلاً قبيح شنيع ولكن الشيطان زين لابن آدم الأول أن يقتل أخاه، فقطع أواصر الاخة ،وقطع الرحم ،وهدم بنيان الله الذى خلقه ،ثم زين له الشيطان أن يعبد النار ، فخسر الدنيا والآخرة ،ولقد زين الشيطان لفريق من الناس أن ينكروا وجود الله ،ويعبدوا مظاهر الطبيعة ،وزين لفريق آخر أن يعبدوا الكواكب والشمس والقمر وزين لبعضهم أن يعبدوا الأصنام والحجارة والتوابيت والقباب والأوثان والمقاصير ، وزين ذلك فى قلوبهم حتى أنك إذا قلت لعابد القباب والأضرحة إتق الله ، فلا ينبغى أن تسجد إلا لله ، فالسجود على أعتاب المقاصير شرك بالله ،لقال لك : من قبل الأعتاب ما خاب ، انظر كيف صار البهتان والكذب عنده دليلاً ذلك بتزيين الشيطان ، وزين لآخرين أن يعبدوا الجن ويظنون أنهم يملكون نفعاً أو ضراً أو موتاً أو حياة أونشوراً ، فتوجهوا للدجالين والمشعوذين والسحرة والأفاكين يتغون عندهم الرزق والولد والمال والجاه ،فعلقوا التمائم والأحجبة فأشركوا ،واعتقدوا أن الجن يعلم الغيب فكذبوا ، وزين لآخرين أن يعبدوا

الملائكة ،وزين لأخرين أن يعبدوا البقر ، وهذا يدل على العمى عن الحق ، كيف زين الشيطان لهم ذلك ، لقد أوهمهم بتناسخ الأرواح ، فالرجل الهندى إذا مات أبوه أو أمه زين الشيطان له ان روحه ترجع إلى الدنيا فى صورة البقرة ، فيتعامل مع البقرة كأنها أبوه أو أمه ، فيسعد إذا حطمت له شيئا يملكه ، ويسترضيها ويعبدها من دون الله ، وزين لآخرين أن يقلدوا الأباء ويعظموا مناهجهم فى الشرك بالله ، وزين لفريق من الناس أن ينكروا النبوات فجرهم ذلك إلى أن ناصبوهم العداء ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ،وفى الوقت نفسه زين لفريق آخر أن يعبدوا الأنبياء وأن يعتقدوا فيهم أنهم آلهة ، زين الشيطان لليهود الاجتراء على الله تعالى بالكلمات القبيحة الشنيعة كقولهم ﴿ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ وقولهم ﴿ يَدُ اللهِ مَغْلُولَه ﴾ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، وزين للنصارى أن يعبدوا المسيح فزعموا أنه الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِم إِن يَقُولُون إِلَّا كَذِبَاً ﴾ [الكهف : ٥] ، وزين لهم عبادة الصليب ، مع أن الذى صلب هو الشبيه ،ورفع الله عيسى إليه وطهره ونجاه من الذين كفروا زين لفريق من الناس أن يعبدوا علىّ بن أبى طالب ، وفى الوقت نفسه زين لآخرين أن يبغضوا عليًا ويتحاملوا عليه، زين الشيطان للروافض أن يبغضوا أصحاب رسول الله ﷺ ويقعوا فى أعراضهم ،وهم بذلك شر من اليهود والنصارى ، فحينما يُسأل اليهود عن خيرة الناس يقولون أتباع موسى ، وحينما يُسأل النصارى عن خيرالناس يقولون : حوارى عيسى ،وحينما سئل الروافض عن شر الناس قالوا : أصحاب محمد ﷺ ولذلك كانوا أشر من اليهود والنصارى ،زين الشيطان للمتصوفة أن يتعبدوا بالهوى وأن يستحلوا الحرام ،ولقد عاصرنا ورأينا كيف أن شيخ الطريقة يحل الرجل للمرأة والمرأة للرجل بحجة أنه أخيها وهى أخته فى الطريق ،استحلوا الزنا ، وشرب الخمر ، إلى غير ذلك من الخبائث ،ولذلك كنا نرى فى الموالد ما يندى له الجبين ، فإن سألت الشيخ قال لك : يا بنى لاتعترض فمن اعترض انطرد ، وزين لهم الشيطان الرقص على أنه ذكر ،

زين الشيطان للحكام أن يتركوا شرع الله المحكم وراء ظهورهم ويحكموا غيره من قوانين صنعها البشر عاجزة وقاصرة ﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُون وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمَاً لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ [المائدة : ٥٠] ، لا أحد أحسن من الله حكماً لقد زين الشيطان لكل فريق من الناس ما يناسبهم ويليق بأفهامهم لإبعادهم عن طريق الله ، وليصدهم عن دين الله حتى يحرمهم من رحمة الله وجنته ، ليكونوا معه فى النار ، كما قال الله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فاتَّخِذُوهُ عَدُوَّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] وقال سبحانه ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإِنِّي

جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ [الأنفال : ٤٨] فالشيطان يزين وسرعان ما يتراجع لكن بعد فوات الأوان ، وقال سبحانه ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ٦٣] فالشيطان له سبيله مع كل أمة ليصدهم عن دينهم ، كما قال سبحانه ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٨] لقد أخذ الشيطان العهد على نفسه بأن يزين ليغوى العباد ليصدهم عن الصراط المستقيم كما قال الله سبحانه ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ ، ٤٠] ولذلك ترى أهل الكفر يهلكون بذلك التزيين فقد قال سبحانه ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقال سبحانه ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] ، وقال : ﴿ ... بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٣٣] وقال جل ذكره ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [غافر : ٣٧] .

إن الهدهد يصف حال أولئك الذين انتكسوا عن الحق ، وبدلوا وغيروا فعبدوا الشمس من دون الله وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، لقد اهتدى الهدهد إلى مالا يهتدى إليه كثير من الناس الذين عطلوا حواسهم وعقولهم فلم ينتفعوا بها ، لأنهم ابتعدوا عن طريق الله ،وما أشبه اليوم بالبارحة ، الشيطان يزين لفريق من الناس أن يغيروا ويبدلوا فى شريعة الله فى الزواج ، فتخرج علينا وثيقة أشبه بإنها وثيقة مجتمع لا دينى ، وذلك تنكر لدين الله وتطاول عليه ،وتعديل فى النصوص المحكمة ،فيلزم أحد الزوجين أو الإثنين بما لم يلزمهما الله ورسوله ،وكأن هذه الوثيقة أولى ثمرات مؤتمر السكان الذى تنكر للقيم والدين والفضيلة وأراد أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، ان رسول الله ﷺ عقد على أم المؤمنين عائشة وهى ابنة ست أو سبع سنوات ودخل بها وهى ابنة تسع سنوات ، فماذا يكون حال الذين يريدون أن يرفعوا سن الزواج هل يريدون العفة والطهارة ، أم يريدون غيرها ، وماذا لوتم عقد عائشة بينكم اكنتم تنكروه ، إن هذه الوثيقة الجديدة تعلن الحرب بين الزوجين لتحل المشاكل والمحاكم بينهما بدلاً من المودة والرحمة ، ياقوم ماذا يكون حالنا اليوم لو اطلع عليه هدهد كذلك الهدهد ، ماذا تظنون أن يقول عنكم ،ماذا سيقول عمن يحكمنا ، سيقول وجدت من يملكهم ؟ ! ، ويعبدون أى شئ ؟ ! إن النتيجة الأكيدة التي تشخص حالنا ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ

السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

ثاني عشر : في قوله تعالى ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ .

أفلا يرجع أهل الباطل عن غيهم ،وأهل الشرك على افتراءاتهم ،وأهل الضلال عن بدعهم ، وأهل الكفر عن تكذيبهم وجحودهم ، ويعودون لله رب العالمين يتوبون إليه ويستغفرونه ويندمون على سوء فعلهم ، ألا يستحى الذين يسجدون لغير الله والله مطلع عليهم ، إن هذه دعوة إلى كل الذين ابتعدوا عن الله أن يعودوا إليه إلى الذين يسجدون لأعداء الله خضوعاً وخنوعاً ، والى الذين والوا اليهود والنصارى مع انهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وإلى الذين خدعتهم صور الحضارة الزائفة إلى كل الذين فتنهم الشيطان فغير وجهتهم وصدهم عن الطريق المستقيم نقول : الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض فهو سبحانه الرزاق فمن عبد غير الله أملاً فى الرزق والمال، فليعبد الله وحده ، فإن غير الله لا يملك لنفسه فضلا عن غيره رزقاً ولا مالاً ، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين .

ومن أراد الرفعة فليعبد الله فهو سبحانه المعز المذل ،وله سبحانه العزة جميعا ولذلك ينبغى أن يراجع كل إنسان نفسه ويتأكد لمن يسجد ،ثم يعود فيقر ويسجد لله رب العالمين .

ثالث عشر : في قوله تعالى ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

ظل نبى الله سليمان يستمع إلى الهدهد إلى أن انتهى من حديثه ، فلم يقاطعه ،ولم يصادر حقه فى الدفاع عن نفسه، ولم يؤثر عليه بشىء ، بل ظل يستمعه ليعلم حجته ، ثم كان الحكم أن هذا الذى قاله الهدهد يحتاج إلى تبين الصدق فيه من الكذب ، فلم يبادر إلى الأنكار عليه أو الاتهام ، بل تمهل ليتبين الأمر حتى لا يظلم جندياً من جنوده .

رابع عشر : في قوله تعالى : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

سبحان الله ، أن الهدهد وهو فى وضع اتهام حين تغيب فتوعده نبى الله سليمان بالعذاب أو النكال أو قبول المعذرة ، وقد أظهر الهدهد بسبب تغيبه وحكم نبى الله سليمان بأنه سيتبين الأمر،ومع ذلك كلفه أن يذهب إليهم ، وحمّله كتاباً من عنده وأمره أن يلقه إليهم وينتظر حتى ياتيه بخبرهم ، فمع أن الهدهد فى حالة اتهام لم تثبت حجته بعد، إلا أن نبى الله ائتمنه ولم يخونه ، ولم يبن حكماً آخر على ذلك ، وهذا لا يكون إلا فى عالم الاتقياء والأنبياء ، أما فى أيامنا هذه ، فمن اشيع حوله تهمة لم تثبت بل تأكدوا من كذبها استبعد أوحددت إقامته ،أوعُدّلت وظيفته ، ولقد كان فى عهود مظلمة من واظب على صلاة الفجر كان متهماً ،

وللحديث بقية إنشاء الله

محمد رزق ساطور

بقلم
فضيلة الشيخ / محمد رزق ساطور
مدير إدارة التعليم وشئون القران

دروس وعبر من قصة سليمان

باب السيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة السلام على رسول الله وآله ومن والاه وبعد :

خامس عشر :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ .

تجمع المرأة الملأ من قومها لتعرض عليهم ما طرأ عليها فيما يخص الرعية ، وهي تبلغهم آخر ما وصل إليها لا تكتم عن الرعية أمراً .

ثم وصفت هذا الكتاب بأنه كريم حسن لما فيه من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله سبحانه من غير أن يتضمن سباً أو لعناً ، وهذا الكتاب يستحق أن يعرض على الملأ ، حتى نخرج بقرار يكون معبراً عن الجميع ، وهذا يدل على رجاحة عقل تلك المرأة وأنها مع بعدها عن الله وعن دينه ، ومع عبادتها للشمس من دون الله ، فهي تنشد قيماً معينة - وإن كانت عندنا ليست قيماً - إلا أنها تحترم نفسها وتقدر قومها بل حريصة عليهم ، ومع اختلاف الأحوال والأزمان نرى كثيراً من الحكام لا يعبأون بالرعية ولا يحترمون عقولهم ، فتراهم يجهزون القوانين في السر ويعرضونها سريعاً للتصديق دون فهم أو دراسة ، ولذلك ترى التناقض الذي يميت الإحساس ويشعر بالأسى والمرارة ، وفي أحد العصور حدث أن وقعت كارثة تصادم قطار مع أتوبيس سياحي ومات عدد كبير من الركاب ، ولما جاء المسئول الكبير إلى موقع الحادث سأل أول ما سأل : هل مات أحد من الأجانب ؟ قالوا له : لا فقال إذاً الحمد لله ، يموت المصريون لا بأس ، ولا يسأل عنهم أحد ، ولا يتأثر بهم أحد ، فإذا كان المصري في بلده لا يحترم ولا يحزن عليه ، فهل نطلب من الدول الأخرى أن تقدرنا أو تعاملنا كالبشر .

سادس عشر : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

لقد بعث نبي الله سليمان هذه الرسالة يدعوهم فيها إلى الإسلام ، فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله سبحانه لخلقه فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، وقال

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ [المائدة : ٣] ، فالإسلام هو الدين الحق الذي أمر الله به كل الخلق ، فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه فيقول لهم كما قال سبحانه ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧٢] وموسى عليه السلام دعا قومه للإسلام قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] ، وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يدعوان الله سبحانه كما قال : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ ﴾ [البقرة ١٢٨] ، وقال جل ذكره : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَاتَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢ ، ١٣٣] .

وعيسى عليه السلام دعا أتباعه إلى الإسلام ، قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] ونفى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أن يكون يهودياً أو نصرانياً فقال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] ولقد اعترف الجن بذلك فقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٤] .

ولما آمن السحرة برب العالمين وهددهم فرعون بالقتل والتنكيل قالوا كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] ، ويوسف عليه السلام يقول عنه سبحانه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

فسليمان عليه السلام يدعوا المرأة وقومها للإسلام حتى يفوزوا في الدنيا والآخرة ، ويبدأ رسالته بإنه من سليمان قبل البسملة لاحتمال أن يبدر من المرأة ما لا يليق إذ كانت كافرة ، وكان من عادة أهل الكفر أن إذا دعاهم أحد قابلوه بالسب والشتم واللعن ، ولذلك جعل سليمان عليه السلام اسمه وقاية لاسم الله عز وجل .

سابع عشر : في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ فهي تريد أن تشركهم في الأمر وتشاورهم إما استعانة بآرائهم أو مداراة لهم ، فهي تريد أن تختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، لأنها إن لم تتيقن أنهم سيبذلون المال والدماء فلا طاقة لها إذاً لملاقاة الأعداء ، فهي تريد أن تكون على بصيرة من الأمر وهذا حال القائد المستبصر الذي يقدر للأمور قدرها قبل أن تدخل في غمارها ولذلك فالجبهة الداخلية هي الأصل في المواجهة الخارجية ، والمرأة تطلب منهم الفتوى في ذلك ، فهي لا تدعي معرفة كل شيء ، ولكنها تعرض الأمر على أهل التخصص حتى تأتي النتيجة مثمرة ، فالشعارات وحدها لا تكفي ، لأن الأمر جد يتطلب الصدق .

ثامن عشر : في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٌ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ .

أجابوها إلى مقصودها وكأنهم يقولون لها أقدمي على الحرب والحزم فنحن من ورائك بقوة الأجسام والآلات والثبات في الحرب ، فنحن أصحاب القوة الذاتية والعرضية ، وكذلك إن أردت السلم فنحن معك .

تاسع عشر : في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ .

وهذا حال ملوك أهل الأرض إتلاف وفساد وخراب ودمار للأخضر واليابس ، إذا دخلوا بلداً أفسدوا وخربوا عمارتها وما فيها من أموال كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر ٦ : ١٤] ، انظر كيف فعل التتار بالمسلمين وديارهم وأموالهم وما انتهك من حرمات ، وانظر إلى الصليبيين في حربهم ، وكيف فعل أهل الكفر في ديار المسلمين ، في البوسنة ، وفي الشيشان ، وفي فلسطين ، وفي كشمير ، وفي كل بقاع الأرض ، هذا حالهم فساد ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وهذا دأبهم وطريقهم .

عشرون : في قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ .

أرادت المرأة أن تستوثق من الرسالة لتتعرف على مرسلها هل هو يريد دنيا أم حقاً يريد دلالتهم على الله رب العالمين فأرسلت الهدية فردها نبي الله سليمان ليعلمها أنه نبي ، والنبوة لا تقارن بالمال وهذا لزيادة حرصه عليه السلام على هدايتهم وأجابهم بما يطمئنها ويأتي بها مسلمة لله رب العالمين .

حادي وعشرون : في قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

بالمقارنة بين قول عفريت من الجن وبين قول الذي عنده علم من الكتاب ، تجد أنه حينما يقل العلم يمدح الإنسان نفسه ويزكيها ، أما إذا اكتمل العلم ابتعد صاحبه عن مدح نفسه ، ولذلك قال الأول ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ مدح نفسه ليكمل تقصيره بالمدح ، لكن العالم لا يحتاج لمثل ذلك فانتبه .

ثاني وعشرون : في قوله تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لقد وفق الله تلك المرأة لطريق الهداية فتيقنت أن نبي الله لا يريد إلا الحق ولا يقول إلا الصدق ، أما ملوك الدنيا الذين جرفتهم الزينة المؤقتة والملابس المزينة والمساكن العالية والمراكب الفارهة ، والأطعمة المتعددة ، فقد ظلموا أنفسهم بأنفسهم في الشهوات ، وارتكابهم الموبقات ، وابتعادهم عن طريق الله ، لقد ظلموا أنفسهم حين عبدوا غير الله ، وسجدوا للشمس من دون الله وقدسوا الأشخاص ، لقد ظلموا أنفسهم حين جاءوا في الأحكام وتسلطوا على خلق الله ، فأكلوا أموال اليتامى ظلماً ، ولم يرحموا الصغير ، ولم يوقروا الكبير ، أهانوا المرأة حين تركت عشها وبيتها وزوجها وأبناءها وخرجت للطرقات استشرفها الشيطان فزينها للرجال ، فانتشر الزنا وكثرت الخيانة وعم

البلاء .

لقد ظلم ملوك الدنيا أنفسهم حينما ابتعدوا عن شرع الله المحكم وحكموا بغيره ظلماً وعلوا ، ولذلك فإن هذه المرأة انتفعت بعقلها ووفقها الله لطريق الهداية لأنها أرادته وسلكته فاعترفت ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ ما أحوج الحكام أن يقولوها ليتقبل منهم ، خاصة وأن الدنيا مهما طالت فلابد من الموت إذا رأى الحاكم أنه تسبب في شياع المنكرات وانتشار الموالد وارتكاب الفواحش فيها لأنه أذن وصرح لمثل تلك الموبقات أن تقوم ، بل إنه تسبب في شيوع الموبقات بترك إقامة الحدود ، وبإغفاله عن الخمارات والبارات والملاهي وما يحدث فيها ، ما تسبب فيه من اختلاط وعرى وسفور في الطرقات والمواصلات ما جرى تحت سمعه وبصره من نفاق وتزوير وكذب وافتراء ، إذا علم الحكام ذلك كله كان عليهم أن يقولوا هذه المقولة الطيبة ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ ثم دخلت المرأة في دين الإسلام ، لا في الصلاة والدعاء فقط ولكن الإسلام عقيدة صحيحة وعبادة صحيحة ومنهج قويم يحكم الحياة بشرع الله لا بأهواء البشر ، ما أحوجنا إلى أن نعتذر إلى الله عن ظلمنا وتقصيرنا ثم نتوجه إليه سبحانه ليغفر ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وليهدينا إليه صراطاً مستقيما حتى نكون من أهل السعادة في الدنيا وفي الآخرة ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] . آمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

محمد رزق ساطور

البركة من الله عز وجل

البخاري : عن جابر – رضي الله عنه – قال : إنا يوم الخندق نَحْفِرُ . فعرَضَت كُدْيةٌ شديدةٌ . فجاءُوا النبيَّ ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق فقال : « أنا نازلٌ » ثم قام وبطنه معصوبٌ بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا . فأخذ ﷺ المِعْوَل فضرب . فعاد كثيبًا أهيل . فقلتُ : يا رسول الله ائذن لي إلى البيت . فقلت لامرأتي : رأيتُ بالنبيِّ ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صَبْرٌ فعندك شيءٌ ؟ قالت : عندي شعيرٌ وعناق – أنثى المعز – فذبحت العناق . وطحنت الشعير . حتى جعلنا اللحم في البُرمة . ثم جئتُ النبيَّ ﷺ والعجين قد انكسر . والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج. فقلتُ : طُعَيِّمٌ لي . فقُمْ أنتَ يا رسول الله ورجلٌ أو رجلان . قال : « كَمْ هو » فذكرت له . قال : « كثيرٌ طيبٌ قل لامرأتك لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي » . فقال للقوم : « قوموا » فقام المهاجرون والأنصار . فلما دخل على امرأته قال : ويْحك . جاءَ النبيُّ ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومَنْ معهم . قالت : هل سألك ؟ قلتُ : نعم . فقال : « ادخلوا ولا تضاغطوا » فجعل ﷺ يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم . ويخمِّرُ البرمة والتَّنُّور . إذا أخذ منه . ويقرِّب إلى أصحابه . ثمَّ ينزع . فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا . وبقيت بقية . قال : « كُلِي هذا وأهدي . فإنّ الناس أصابتهم مجاعة » . وفي رواية : كانوا ألفًا .

وعند البخاري : من دعائه ﷺ على الأحزاب : « اللهمَّ منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب . اللهمَّ اهزمهم وانصرنا عليهم » .

دروس وعبر من قصة موسى عليه السلام

فضيلة الشيخ
محمد رزق ساطور

مدير إدارة التعليم
وشئون القرآن
بالمركز العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله ومن والاه وبعد فإن قصة موسى عليه السلام مليئة بالعبر والدروس ، ونظراً لكثرة المواقف التى نريد أن نقف معها نبدأ بعون الله تعالى بقصة موسى عليه السلام مع العبدالصالح .

وقد ورد ذكرها فى سورة الكهف من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ .. ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [سورة الكهف الآيات : ٦٠ — ٨٢] . ونبدأ بذكر تلك الدروس فنقول وبالله التوفيق :

الأولى : فى سبب هذه الرحلة المباركة روى البخارى عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ « قام موسى النبى خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى . بمجمع البحرين هو أعلم منك قال يارب وكيف به ... » الحديث .

أى أن موسى عليه السلام حينما علم أن هناك من هوأعلم منه طلب أن يلتقى به وتوجه إليه فى رحلة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً إلا فى عالم الأنبياء والأتقياء ، رحلة فى طلب العلم ، **فالناس يرحلون** للتنزه والترفه ولطلب المال والدنيا ، والمنصب والزواج وقل من يرحل لطلب العلم ، بل إن كثيراً من الناس يذهبون إلى أوروبا وأمريكا وفرنسا طلباً للمتع الزائلة وينفقون الأموال الطائلة لذلك ، وإذا طلب منهم أن يرحلوا للعلم وجدتهم يخترعون المعاذير ويختلقون الأسباب للابتعاد عن العلم ، لكن أهل الإيمان يرحلون طلباً لطاعة ربهم وأملاً فى أن ينالوا الفضل الذى أعده الله تعالى لأهل العلم .

الثانية :

يتعجب الإنسان حينما يرى موسى عليه السلام مع عظيم قدره وجلالة منزلته يطلب العلم ، ونحن مع مانحن عليه من جهل وتقصير وتفريط ... نقصر فى طلب العلم ، وربما يتساءل أحد لماذا يطلب موسى عليه السلام العلم ؟ هل فاته شيء من العلم فى مرحلة الصغر أو مرحلة الشباب فأراد أن يتداركه ؟

وللإجابه على هذا السؤال نقول : تعالوا نتعرف على نشأته لنرى هل فاته تحصيل العلم فى تلك الفترة ، أو فى مرحلة الشباب ، **فنجد أن موسى عليه السلام** ولد فى وقت أشيعت فيه نبوءة عند فرعون تقول هذه النبوءة : بأن ملك فرعون سيزول على يد غلام يولد فى تلك الأيام ، **وفرعون** غبى يصدق كل ما يقال له وإن كان لا يُصدَّق ، فإذا به يأمر بذبح أبناء بنى إسرائيل الذكور خوفا على ملكه **فلقد جاء موسى عليه السلام إلى الدنيا** وهو مهدد بالقتل ، فأوحى الله تعالى إلى أمه كما قال سبحانه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة القصص الآية : ٧] وفى الآية عدة فوائد منها : **هل تحتاج المرأة إلى وحى لترضع ابنها** ؟ إن كل النساء يرضعن أبناءهن دون ذلك الوحى ، فلماذا كانت هذه الرضعة بالذات بوحى ؟ نقول : لأن هذه الرضعة سيكون لها شأن عظيم ، فهى رضعة لن يرضع بعدها إلابعد أن تنتهى رحلته فى اليم وبين أيدى من يجدوه ، وعند فرعون ، وبين أيدى النسوة اللاتى يجتمعن لإرضاعه ، ثم يرد لأمه ليرضع بعد كل ذلك ، فلما كانت الفترة ربما تطول جداً كانت هذه الرضعة بالوحى ، لأن من فعل شيئا تنفيذاً للوحى بارك الله له فيه حتى وإن كان مباحاً ، فأرضعت أم موسى ابنها ثم صنعت الصندوق لتضعه فيه مع أنها لم تكن بالماهرة فى صنعه ، وخائفة منْ أن يظهر أمره ، ولا تستطيع أن تذهب لمن يصنعه لها خوفاً من أن يدل عليه ، وصُنع موسى عليه السلام فى صندوق أسباب الهلاك فيه أكثر من أسباب النجاة ومع ذلك فالله يرحم ضعف الضعيف إن أخذ بالأسباب وبذل مافى وسعه ، ثم انتظرت حتى يخلو الساحل من الناس ثم رمته فى الصندوق وأخذت الأمواج تتناقله بإذن الذى خلقها حتى وصل إلى قصر فرعون ، وفرعون كان يتباهى فيقول كما قال الله تعالى ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ فكان يفخر بذلك ، ومع أن قوانين فرعون تمنع الناس من البناء على النيل ، ترى فرعون يبنى قصره فوق النهر ، لتعلم أن المخالفة للناس ، أما فرعون فلا يستطيع أحد أن يطالب بهدم المبانى المخالفة للقوانين لأنه هو الذى يشرع للناس من دون الله تعالى .

وصل أمر موسى عليه السلام لفرعون فقررقتله ، ولكن الله جلت قدرته ألقى محبته فى قلب امرأة فرعون فراجعته فى ذلك ، **وفرعون** أمام امرأته لايساوى امرأة فلايستطيع أن يعترض على أمرها أو حتى يؤخره عن التنفيذ ، قال الله تعالى ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَونَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [سورة القصص الآية : ٩] ، **عند ذلك** قرر فرعون أن يربيه ، وطالما أنه قرر ذلك فلابد أن يوفر له أسباب الحياة ، فالرضيع فى حاجة إلى الرضاع خوفاً عليه من الهلاك ، **عند ذلك** يرسل فرعون فى المدينة منادياً على المرضعات ليحضرن لإرضاع الولد **والمرأة عندما** تريد أن تذهب إلى بيوت العائلات تحب أن تظهر بمظهر يليق بها ، فماذا لو كان المكان هو قصر فرعون ، تقف المرأة أمام المرآة تهيء نفسها ، ويساعدها فى ذلك أمانى وأوهام ، **فالمرأة لو فازت بوظيفة المرضعة** سوف يتحول مسار حياتها بل ومسار الأسرة ، فالفاشل من أسرتها لن يتعب فى وجود وظيفة موقرة فى قصر فرعون ، بل ربما ارتقى به الحال ليكون وزيراً من وزرائه ، **من أجل ذلك** فالمرأة حريصة على أن ترضع ابن فرعون لاحباً فيه ولا فى أبيه ، بل أملاً فى نيل الجائزة والتقرب إليه ،

ثم تذهب المرضعات، والدخول إلى قصر فرعون ليس سهلاً، فلابد من التفتيش والاحتياط والتدقيق على توافه الأمور حرصاً على أمن فرعون وابنه، وبعد كل ذلك تدخل المرضعات، تدخل إحداهن وفى رأسها الأحلام والأمانى، فلا يقبل الرضيع أن يرضع، فتحاول مرات ومرات وليس بالسهل عليها أن تعترف بالفشل، بل تحاول وتصر، وتطلب منهم المهلة مرات ثم لك أن تتصورحتى تترك المرأة الرضيع معلنة فشلها فى إمكان إرضاعه، هذه المحاولات تتكرر حتى تنتهى كل المرضعات، وقد قال سبحانه ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [سورة القصص الآيات : ١٠ - ١٢].

الكل يأس من إرضاعه، وأصبح الجميع مطالبين بإيجاد حل، فقالت لهم أخته هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، فهم لا يذهبون إلى القصور، ولا يطلبون الأجور بل هم متطوعون، وهم له بالذات ناصحون فرده الله إلى أمه رحمة منه وفضلاً كى تقر عينها ويطمئن قلبها وتتيقن من وعد الله سبحانه. **إذا كانت هذه هى بداية موسى عليه السلام** فهل تظن أن العلم قد فاته فى الصغر، كلا، فما بالنا بمرحلة الشباب، قال الله تعالى ﴿ ولما بلغ أشده واستوى أتيناه حكما وعلماً ﴾ [سورة القصص الآية : ١٤] **إذا علمنا ذلك** تيقنا أن موسى عليه السلام طلب العلم لمعرفته بشرفه وشرف حامليه وطلباً للزيادة منه، لأن الزيادة من العلم خير كثير وفضل عظيم.

الثالثة : جواز الرحلة فى طلب العلم وتحمل المشاق ووعثاء السفر والصعاب والمعاناةلبلوغ القصد في تحصيل العلم كلّف ذلك الإنسان البحث طيلة حياته قال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [سورة الكهف الآية : ٦٠].

الرابعة : لايتحمل الإنسان المشاق إلا لشيىء يستحق التحمل من أجله، وهذا يدل على رفعة العلم وأنه غال، فمثلا الإنسان بصبر لأنه يعلم أن عقبى الصبر الثواب الجزيل كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة الزمر الآية : ١٠]، ولذلك فإن فضل العلم وشرفه دفع موسى عليه السلام إليه وجعله يتحمل المشاق طلباً لمزيد من العلم، ولذلك ينبغى أن نصبر ونتحمل حتى نتعلم فننال ذلك الشرف فى الدنيا والآخرة.

الخامسة :استزادة العالم من العلم، فطلبه يزيد فى مكانته ويرفع من درجته ويدل على فضله وحرصه على الاستزادة من الخير، وفى هذه أيضا تقريع لمن يتكاسل عن طلب العلم فإذا كان موسى عليه السلام بما نعلمه عنه من فضل وعلم ونبوة ورسالة ودعوة يطلب العلم فما بالك بنا ؟!

السادسة :لابأس باتخاذ الرفيق والخادم فى السفرفقد سافر موسى عليه السلام ومعه فتاه، وهذا يدل أيضاً على اختيار الصاحب فى السفر فأنت فى السفر تحتاج إلى من يرفع عنك عناء السفر ويساعدك فى ترحالك كما يساعدك فى حلك، ماأحوجنا إلى اتخاذ الرفيق الأمين، الذى إن رأى شراً كتمه وإن رأى خيراً شكره، لقد تحولت الصحبة فى هذه الأيام إلى بلاء مبين وشر مستطير إلا من رحم الله، فيصحب الإنسان من يظن فيه الخير فإذا به يرى العجب، وأهل العلم على وجه الخصوص فى أمس الحاجة للتدقيق فيمن يصحبهم ولذلك ترى فى صحبة الشيخ آداب ينبغى أن يلتزمها تلميذه ومما قاله العلماء فى ذلك : « وينبغى أن يخاطب شيخه بتاء الخطاب وكافه ولا يناديه من بعد، وأن يعرف للشيخ حقه ولاينس فضله وأن يعظم حرمته ويرد غيبته ويغضب لها فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذا

المجلس وينبغى أن يدعوله مُدَّةَ حياته ويرعى ذريته وأقاربه وأولاده بعد وفاته » تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة باختصار ص ٨٩ ، ٩٠ .

وقال أيضا « وينبغى على طالب العلم أن يجلس بين شيخه بتواضع وخشوع وسكون ويصغى إلى الشيخ ناظراً إليه ويقبل بكليته عليه متعقلا لقوله ولا يلتفت من غير ضرورة ولا ينظر إلى يمينه أو شماله أو فوقه أو قدامه بغير حاجة ولا سيما عند بحثه أو عند كلامه .. » إلى آخر هذه الآداب ، ولذلك قيل : واحذر مصاحبة اللئيم فإنها تعدى كما يعدى الصحيح الأجرب أهين لهم نفس فهم يكرمونها ولن تكرم النفس التى لا تهينها .

السابعة : فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ دلالة على اتخاذ الزاد في السفر وهو لا ينافى التوكل ، فإن التوكل يكون خالصاً لله تعالى حينما توجد بعض المصارف التى قد تصرف عنه ، والمريض الذى يذهب للطبيب قد يظن أن ذهابه للطبيب هو الذى شفاه ، أو تعاطيه الدواء ، فالطبيب والدواء قد يصرفان همته عن التوكل خاصة إذا كان الطبيب حاذقاً والدواء قوياً ، ولكن المؤمن الذى ذهب للطبيب وتعاطى الدواء ولم ينشغل بهما عن الله وعلم أن الشفاء من الله توكله على الله أكمل ممن لم يذهب للطبيب أو يتعاطى الدواء ، لأن الأول وجد مايصرفه عن الله ولم يبتعد عن الله والثانى لم يجد شيئا من المصارف ، ولذا كان من أتخذ الأسباب أكمل ممن تركها . فمثلا اتخاذ الطعام والزاد فى السفر وبما يجعل العبد يركن ويطمئن بوجود الطعام معه فلا يتوكل على الله اعتماداً على مامعه من طعام ، ولكن إذا صدق التوكل لم ينصرف اطمئنانه إلى الطعام ، بل سوف يعلم أن الشبع من قدر الله ، وأن الحافظ له وللطعام هو الله ، فكيف يعتمد على وجود الطعام الذى ربما فسد أو سرق أو أتى الهلال من قِبَله ، عند ذلك هو ياخذ بالأسباب ولا تصرفه كل الأسباب عن الله عز وجل .

الثامنة في قوله تعالى ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ .

فالذى طلب الطعام هو موسى عليه السلام مع أنه لم يكن بحاجة إليه بل هو أقوى وأصبر من الفتى فى الحاجة إلى الطعام ومع ذلك طلب الطعام تلطفاً بصاحبه ورفقاً به ، فلعل من بصحبته فى حاجة إلى الطعام إن الأنبياء والمرسلين أوتوا من الصبر والقدرة على التحمل مالا يقدر عليه إلا أمثالهم ، وكان النبى ﷺ ينهى عن الوصال فى الصيام ويصل هو ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إياكم والوصال . قالوا : فإنك تواصل يارسول الله ، قال : إنى لست كهيئكم إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى »[1] .

وعلى ذلك ينبغى على الصاحب أن لا يضيع من بصحبته بل عليه أن يتحسس أمره ويعتنى به .

التاسعة : جواز الشكوى من الألم والتعب والتوجع وأن هذا ليس من باب الضجر من قدر الله ، فلقد اشتكى موسى عليه السلام لفتاه وقال له « لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً » فهذه شكوى لا بأس بها ، لأن الشكوى لمن تستريح له النفس تروح عنها وتخفف من عنائها وربما تكون سببا فى تخفيفها .

من خطبته ﷺ بمكة عام الفتح

البخاري وأحمد : فلما صلى رسول الله ﷺ قام . فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله . ثم قال : أ... فإن الله عزَّ وجل هو حرَّم مكة . ولم يحرمها الناس. وإنما أحلها لي ساعةً من النهار أمس . ... حرَّمها الله عزَّ وجل أول مرة . وإن أعدى الناس على الله عزَّ وجل ثلاثة : ... قَتل غير قاتله . ورجلٌ حلف بثأرٍ في الجاهلية . وإني والله لَأُودِيَنَّ هذا الرجل ... رسول الله ﷺ ، وجزاه الله خير الجزاء .

دروس وعبر من قصة موسى عليه السلام

فضيلة الشيخ
محمد رزق ساطور

مدير إدارة التعليم
وشئون القرآن
بالمركز العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله ومن والاه وبعد :

العاشرة : مجاوزة أمر الله تعالى وتعدى حدوده توقع فى التعب والنصب والمشقة .

قال سبحانه ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ فلقد سار موسى عليه السلام وما شعر بالتعب والنصب إلا بعد ما تجاوز المكان الذى حدده الله تعالى للقاءه ، فإن كان تجاوز المكان المحدد للقاءه يوقع فى النصب ، فما بالك بالذين يتجاوزون حدود الله وأحكامه وشرائعه ، لاشك أن مجاوزتها توقع فى الشقاء والضنك ، ولو علم المخالفون لشرع الله أن ما هم فيه من متاعب وأزمات وكوارث سببها البعد عن الله وعن دينه وعن تطبيق شريعته وتعظيمها وتنفيذ أوامرها والابتعاد عن نواهيها ، ومن ثم فإن هذا الواقع لن ينصلح إلا بالرجوع إلى الله وتنفيذ أحكامه وتعظيم شرعه والانقياد والإذعان والاستسلام لأوامره ، ولذلك فإن موسى عليه السلام لما رجع إلى المكان الذى تجاوزه زال عنه التعب مع أن تجاوز هذا المكان لم يكن حراماً ولا مكروها ، ولذلك إذا أراد الناس اليوم أن يزول عنهم الشقاء والضنك فليرجعوا إلى ربهم حتى نرفع عن أنفسنا ما نحن فيه من بلاء ، فقد قال سبحانه ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [سورة طه الآية ١٢٤ .

فالمعيشة الضنك والكوارث والأزمات مقصودة ليرجع الناس إلى ربهم فيعظموا شرعه ويطيعوا أمره وكما قال سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف الآيات : ٩٦ ــ ٩٩] .

محمد رزق ساطور

الحادية عشر :

في قوله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ فالنسيان عذر شرعي ، ولذلك لما اعتذر إليه بالنسيان قبل منه ، والله سبحانه وتعالى قد أكرم أمتنا كما قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] . ولذلك قال ﷺ « من أكل ناسياً وهو صائم فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه »[2]

« وقال الحسن ومجاهد : إن جامع ناسياً فلا شيء عليه »[٣] .

وقال عطاء :

« إذا تطيب أو لبس جاهلاً أو ناسياً فلا كفارة عليه »[٤] . وبوب البخاري باب إذا رمى بعد ما أمس أو حلق قبل أن يذبح ناسياً أو جاهلاً[٥] ولذلك إذا اعتذر إليك أخوك بالنسيان فاقبل منه . وسوف يأتي بعد ذلك إن شاء الله ثمرة ذلك .

الثانية عشر :

في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ وفيها نسبة الأشياء المكروهة والنسيان منها إلى الشيطان مجازاً لأن العجز والنقص والمكروه والخبيث يناسب الشيطان وعليه يتنزل وفي نفس الوقت لا ينسب لله تعالى ذلك تأدباً معه سبحانه وتنزيهاً له عن أن تنسب له النقائص تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ، ولذلك لما وكز موسى عليه السلام الذي من عدوه فقضى عليه قال ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ .. قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ .. ﴾ (سورة النساء الآيتان : ٧٨ ، ٧٩) ، فمع أن الكل من عند الله فالحسنة إنعام من الله وأما السيئة فابتلاء منه ، فنسبت الحسنة إلى الله تعالى رحمة وإحساناً وتفضلاً وكرماً ، ونسبت للإنسان السيئة لأن الشدة والمكروه والمشقة والأذى تليق بحال الإنسان ، وقد قال نبي الله أيوب كما قال سبحانه ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (سورة : ص ٤١) فأسند المس إلى الشيطان مع أن الله تعالى هو الذي مسه بذلك على طريقة التأدب مع الله وتنزيهه سبحانه من أن ينسب إلى مالا يليق ، لكن القبيح يتنزل على الشيطان وبه يليق ، ولذلك قال الغلام لموسى عليه السلام ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ .

الثالثة عشر :

قبول العذر والتسامح :

عن الرفيق والخادم وعدم تأنيبه ، فمع نسيان الفتى وتقصيره في تذكير موسى عليه السلام وإعلامه بما رآه من شأن الحوت ، وظل موسى عليه السلام منطلقاً حتى شعر بالتعب ومع ذلك لم يعنفه ولم يؤنبه أو يعاتبه بل قال له ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ .

فقبول المعذرة والرفق :

أنفع للإنسان من الشدة ، وهذا هو خُلق الأنبياء الرفق والرحمة ، ولذلك كان موسى عليه السلام رفيقاً مع فتاه ، والنبي ﷺ كان من أرفق الخلق بعباد الله ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال : اتقى الله واصبري قالت إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي – ولم تعرفه – فقيل لها : إنه النبي ﷺ فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت : لم أعرفك فقال : إنما الصبر عند « الصدمة الأولى »[٦] .

وهذه المرأة حينما رأى النبي ﷺ بكاءها الزائد الممتزج بالنواح وغيره كما ذكر القرطبي وأيده ابن حجر في الفتح[٧] ..

نصحها وأرشدها وعلمها برحمة ، فلم يزجرها ابتداء ، ولم يقل لها ما هذا السخط على القدر ، وما هذا الجزع من أمر الله ، وما هذا الانتهاك للحرمات ... إلى غير ذلك من العبارات التي يمكن أن تقال لمثلها ، **وانما حضها على تقوى الله** وأمرها بالصبر حتى تتقوى على المصيبة وترضى بقدر الله فردت عليه رداً ما كان ينبغي لها أن ترده وكأنها تزجره وتهجر ما يقول لها ، وفي رواية أبي يعلى أنها قالت : « ياعبد الله أنا الحرى الثكلى ولو كنت مصاباً عذرتني »[٨] وكأنها قابلت النصيحة بتمنى الشر لهذا الناصح حتى يعذرها ويقدر ماهي فيه بزعمها ، وفي ردها تطاول لا يخفى ورد للنصيحة ، **ومع كل ذلك** لم يعنفها النبي ﷺ ولم يوبخها وانصرف عنها ، **ولما ذهبت إليه تعتذر** ماكلمها فيما حدث ولا عاتبها فيما قالته له وإنما أكمل لها

النصيحة التي بدأها عند القبر بقوله « اتقى الله واصبري » ليقول لها « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » . **لو حدث هذا مع أحد متعالمي هذا العصر** لاتخذها فرصة للتوبيخ والتقريع والسب والشتم ، ولقال لها **ماكان ينبغي** لك أن تعاملي من يأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر بمثل ذلك ،... ولكن النبي ﷺ يعرض عن كل ذلك لأن العتاب في هذه الحالة لن يفيد ، وربما يقسى القلب نظراً لانشغاله بالمصيبة عن النصيحة ، وقال ابن حجر :

وفي هذا الحديث من الفوائد غير ماتقدم ماكان فيه ﷺ من التواضع والرفق بالجاهل ومسامحة المصاب وقبول اعتذاره » .

فهذا هو خلق الأنبياء العفو والتسامح والتغاضي عن تقصير وعيوب الناس رجاء أن ينصلح الحال .

الرابعة عشر :

في قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ فلقد وجد موسى عليه السلام العبد الصالح الذى ارتحل ليلتقى به ويتعلم منه وأولى صفاته أنه من عباد الله الذين زكاهم الله ، ثم من صفاته الرحمة ولذلك لابد في الدعاة من صفة الرحمة ، فلو خلت الدعوة من الرحمة لما كانت دعوة للخير ، ولذلك قال سبحانه لرسوله محمد ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ . (سورة آل عمران : ١٥٩) ، وقال سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٧)، فالداعي إلى الله ينبغي أن يتحلى بالرحمة لأن دين الله رحمة ولا يصل إلى القلوب إلا بالرحمة .

الخامسة عشرة :

في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ .

وعند هذه الآية **ضل المتصوفة ضلالاً بعيدًا** فقالوا عن هذا العلم العلم اللدني يقصدون بذلك أن علم الباطن أو مايسمى بعلم الحقيقة هو العلم اللدني وعلم الشريعة ، هو علم الظاهر ، ثم دفعهم ذلك إلى الافتراء على الشرع والكذب على الله تعالى ، بأن اللفظ يحتمل الظاهر وهو علم الشريعة ، والباطن وهو علم الحقيقة ولذلك يقول عبد الكريم الجيلاني :[٩] واعلم أن الخضر عليه السلام قد مضى ذكره فيما تقدم خلقه الله تعالى من حقيقة ونفخت فيه من روحي فهو روح الله فلهذا عاش إلى يوم القيامة **اجتمعت به وسألته ومنه أروى جميع** مافي هذا البحر المحيط » .

ثم ذكر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ (سورة طه الآية : ١٤) فقال : « ثم فسر الجملة بقوله لا إله إلا أنا يعني الإلهية المعبودة ليست إلا أنا **فأنا الظاهر في تلك الأوثان والأفلاك والطبائع** وفي كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة **فما تلك الآلهة كلها إلا أنا** ولهذا أثبت لهم لفظة الآلهة وتسميته لهم بهذه اللفظة من جهة ما هم عليه في الحقيقة تسمية حقيقية لا مجازية **ولا كما يزعم أهل الظاهر** أن الحق إنما أراد بذلك من حيث أنهم سموهم آلهة لا من حيث أنهم في أنفسهم لهم هذه التسمية .. »[١٠] ، أنظر كيف أدى ادعاء الظاهر والباطن إلى ذلك الكفر الصريح والإلحاد القبيح والحلول الشنيع ، ولذلك أدى هذا إلى قولهم « معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوه »[١١] وقالوا : « خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله »[١٠] ، وأدى ذلك إلى عدم الاهتمام بالظاهر ، فربما يظهر من الرجل الفحش فيسمون ذلك الفحش كرامة بناء على تأويل الظاهر والباطن وبناء على أن خرق السفينة خراب ومصيبة ، وقتل الغلام فساد واعتداء هذا في الظاهر لكن الباطن كان على غير الظاهر ، وهذا من أبين الفساد وأضله فإن الشرع إذا أمر بشيء فهو الخير الذي ما بعده خير حتى وإن كان ظاهره لا يدل على ذلك من وجه كما قال سبحانه ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ

لاَتَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٢١٦) ، وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٩) فمع أن القصاص قتل ولكنه حياة للأمة والأفراد ، **فالفيصل في الحكم هو نص الشرع** فإذا دل الشرع على مشروعية الفعل لم يجز لنا أن ننكره ، **ولكن إذا دل الشرع على بطلانه** وجب رده وإنكاره ولذلك فإني أريد أن أضرب أمثلة من عقيدة الصوفية حتى يظهر لكل ذي عينين أن هذه العقيدة فاسدة باطلة لا يحل لمسلم أن يعتقدها بل عليه أن يتبرأ منها :

مثال : في كرامات **محمد الشربيني** : قال الشعراني : لما ضعف ولده أحمد وأشرف على الموت وحضر عزرائيل[١٢] لقبض روحه قال له الشيخ **ارجع إلى ربك راجعه فإن الأمر نسخ** فرجع عزرائيل[١٢] وشفى أحمد من تلك الضعفة وعاش بعدها ثلاثين عاماً »[١٣] « وكان يقبض كل شيء يحتاجون إليه للبيت وغيره ويعطيه لهم »[١٣] وقال ولده « كان الشيخ يقول لعصاه كوني صورة إنسان من الشجعان فتطور في الحال ويرسلها في حوائجه ثم تعود عصا ،.. وكان إذا أراد أن (يعدى) في البحر يقول له (المعدى) هات كراء فيقول الشيخ عدنا لله يافقير فيعديه فأبى عليه يوماً وقال له زمقتنا بحمارتك فقال الشيخ **هالله وطاولا الإبريق فأخذ ماء البحر كله فيه** ووقف المركب على الأرض فاستغفر المعدى وتاب **فصب الإبريق في البحر ورجع الماء كما كان** ،.. وكان إذا احتاج لضيفه أو لبيته **عسلاً أو لبناً أو غيرها أو غير ذلك** فيقول للنقيب خذ هذا الإبريق واملأ من ماء البحر فيملؤه فيجده عسلاً أو لبناً أو غير ذلك على وفق ما يحتاج إليه » ا هـ .

أرأيت لو أن الشيطان أراد أن ينسج الضلال أكان يستطيع أن يأتي بذلك أم أن حال هؤلاء يدل على أنهم بلغوا في الطريق دركة سحيقة كما قيل :

وكان فتًى من جند إبليس فارتقى
به الحال حتى صار إبليس من جنده

مثال : في كرامات أحمد الترمانيني : ومن ذلك أن رجلاً جاءه مولود أسمر مخالف للونه ولون أمه فاشتبه الرجل بزوجته وأساء الظن بها ثم وقف على درس الشيخ فكاشفه الشيخ وقال إن الله تعالى قد حرم الجماع في الحيض لحكمة فمن فعل ذلك وأتاه ولد أسمر مخالف للون أبيه وأمه فلا يلومن إلا نفسه ، فعلم الرجل أنه هو المراد بهذا الكلام ... »[١٤] **ومن العجائب التحري في الضلال والكذب ومن ذلك** « فمن أعجبها أنه يعطى تميمة للرجل - وتعليق التمائم شرك بالله - الذي يريد - يعني الدخول في المعركة - فلا يؤثر فيه السلاح وهو حاملها مهما ضرب به ولذلك كان من يحضر الحروب يأخذون ذلك منه فلا يضرهم شيء .. » اهـ[١٤] .

مثال : في كرامات عبد الخالق الفجدواني : « قال للشيخ ما حقيقة الذكر الخفي وكيف طريقه فإن العبد إذا ذكر بالجهر وبتحريك الأعضاء يطلع الناس عليه وإن ذكر بالقلب فالشيطان يطلع عليه لقوله ﷺ إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فقال له الشيخ **إن هذا علم لدني** وإن شاء الله تعالى يجمعك الله على أحد أوليائه فيلقنك الذكر الخفي فكان الخواجة - هكذا - ينتظر وقوع هذه البشارة حتى جاء الخضر عليه السلام إليه فقال له أنت ولدى ولقنه الوقوف العددى وعلمه الذكر الخفي .. » .

« **وعلى** الجملة فقد حصل العلم القطعي ، واليقين الضروري واجتماع السلف والخلف على أنه لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه ، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل ، فمن قال إن هناك طريقًا آخر يُعرف بها أمرُه ونهيُه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب » ا هـ .

وللحديث بقية إن شاء الله .

محمد رزق سلطور

دروس وعبر من قصة موسى عليه السلام

فضيلة الشيخ
محمد رزق سالطور

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه وبعد :

سادس عشر :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ .

وهذا يدل :

على استئذان الشيخ في صحبته ، وعدم اقتحام مجلسه دون استئذان أو مراعاة لوقته ، فإن أوقات العلماء غالية لا ينبغي أن يضيعها الناس في القيل والقال ، فإن بعض الناس يقتحمون على أهل العلم مجالسهم دون أن يكون لهم مصلحة أو غاية اللهم إلا المجالسة والحديث فيما لا يفيد ، وهذا يضيع أوقات العلماء ، وقد يمتنعون عن الناس لأجل بعضهم ، ولكن موسى عليه السلام يعلم حق العلماء فيستأذنه قبل أن يصحبه ، وما أحوج طلبة العلم هذه الأيام إلى التأدب مع العلماء باستئذانهم ، ومراعاة أوقاتهم ، وإذا أراد السؤال منه فليسأل وينصرف حتى يترك المجال لغيره أو للشيخ لمراجعة مسائله أو مدارستها وأذكر أنني أردت مرة أن أستجمع أحد الموضوعات لخطبة الجمعة قبلها بأسبوع فحينما وصلت من العمل وجدت من ينتظرني ليسألني في مسألة وما إن انصرف حتى جاء غيره فنزلنا لصلاة الظهر فجاء غيره حتى العصر فجاء غيره حتى المغرب فجاء غيره فنزلنا للعشاء فجاء غيرهم حتى ساعة متأخرة ، ثم حدث ذلك في اليوم التالي والذي بعده ، حتى يوم الخميس فجئت فوجدت من ينتظرني فاعتذرت وانصرف وأغلقت بابي فلم أأذن بعدها لأحد في ذلك اليوم ولذلك ينبغي لطلبة العلم أن يرحم بعضهم بعضاً وأن يرحموا العلماء فيستأذنوهم حتى لا يحرموهم من أغلى بضاعة يستثمرونها وهي الوقت .

سابع عشر :

في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فهو لا يريد أي علم ، ولكن يريد العلم النافع الذي لا غنى للإنسان عنه ، فهناك من العلوم ما لا فائدة من تحصيلها ولا يُبنى عليها عمل ولا تصحح اعتقادًا ، وفيها أيضاً : تواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه في المرتبة ، ولهذا طلب موسى عليه السلام التعلم من الخضر عليه السلام تعليماً لقومه وتنبيهاً لكل من زكى نفسه أن يسلك مسلك التواضع ، وفي هذا عبرة لمن يتعالم على الناس ليعلم أن التواضع في طلب العلم يزيد في الفضل ويرفع منزلة العبد .

ثامن عشر :

في قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فالعبد الصالح يذكر موسى عليه السلام أنه لن يستطيع أن يصبر على صحبته لأنه إن رأى شيئاً سأل عنه أو استنكره ، لأن العبد الصالح على علم من الله لا يعلمه موسى عليه السلام ، والإنسان إذا رأى خطأ ولم يُخبَر بوجه الحكمة فيه أو طريق الصواب فإنه ينكره ولا يصبر أن يراه ولذلك قال له ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ ، والأنبياء لا يقرون على منكر ولا يجوز لهم الإقرار بالسكوت فحينئذ سيتكلم وينكر ، ولذلك نصح العبد الصالح لموسى عليه السلام بأن التعجل وعدم الصبر هما ما يخشى عليه منهما .

تاسع عشر :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا ﴾ ، فموسى عليه السلام حين قام خطيباً في بني إسرائيل « فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك .. » الحديث رواه البخاري . أي أن موسى عليه السلام نسى أن يستثنى أو يقول إلا أن يشاء الله ، فحينما توجه إلى العبد الصالح ليتلقى منه العلم كانت أول فائدة من الفوائد والثمرات التي استفادها أن وفق إلى أن يقول ﴿ ستجدني إن شاء الله ﴾ ، ولذلك فإن من بركة العلم أنه يلم الشعث ويسد الخلل ويجبر الكسر ويصحح الخطأ ويهدي إلى الصواب .

العشرون :

في قوله تعالى : وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ، وفيها اشتراط التابع على نفسه شروطاً هي من تمام وكمال التأدب مع أهل العلم ، ومن اشترط شيئاً فقد أوجبه على نفسه وألزم نفسه به ، ويدل ذلك على الصبر بين يدي العلم ، لأن العلم مر ويحتاج إلى صبر عند تعلمه وتلقيه وعند بذله والدعوة إليه وعند العمل به فلابد منه في كل مراحل العلم .

الحادي والعشرون :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِن اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ، فيها اشترط المتبوع على التابع وأنه يلزمه الوفاء بالشروط ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه « من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة وتجلس قدامه ولا تشر - إليه - بيديك ولا تغمز بعينيك ولا تقل قال فلان خلاف قولك ، ولا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه في السؤال فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لا يزال يسقط عليك منها شيء » جامع بيان العلم وفضله ص ١٩٤ .

الثاني والعشرون :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ، فحينما رأى مخالفة لما ينبغي أنكر عليه أن يخرق السفينة مع أن أهلها حملوهما معهم دون نول - أجر - فهل هذا يليق ، قوم أحسنوا إلينا فنسيء إليهم بخرق السفينة ، وفيها أيضاً دلالة على أن أنبياء الله ورسله وأهل الإيمان يحرصون على الناس أكثر من حرصهم على أنفسهم ، ولذا لما رأى موسى عليه السلام العبد الصالح يخرق السفينة لم يقل له **أخرقتها لنغرق** أو **لتغرقنا** وإنما قال له : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ وفي قراءة ﴿ لِيَغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ فخشي عليهم من الغرق بالرغم أنه معهم في السفينة .

الثالث والعشرون :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ، حينما خالف موسى عليه السلام الشرط الذي اشترطه ووافق عليه ، لم يزد العبد الصالح على أن ذكره بما قاله له ، وهذا دليل على أن أهل العلم ينصحون ويخلصون في النصيحة ويحذرون من الشر قبل أن يقع فيه العبد ليحذره ولذلك ينبغي على طالب العلم أن يتلقى نصيحة شيخه باهتمام واعتناء بالغ حتى ينفعه الله تعالى بتلك النصيحة .

الرابع والعشرون :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ، فيها أن موسى عليه السلام حين قبل اعتذار فتاه حين قال له ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ ، قيض الله تعالى له من يقبل اعتذاره حين نسي ، ولذلك من يَعْفُ يُعْفَ عنه ومن يَصفح يُصفح عنه ، ومن يقبل اعتذار الناس يقبلون منه ، ومن يقدم المعروف فإن الله تعالى يدخره له وينفعه به في الدنيا والآخرة ، ولذلك لما اعتذر موسى عليه بالنسيان قبل منه العبد الصالح ولم يُعِدْها عليه .

الخامس والعشرون :

في قوله تعالى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ ، فمع علم موسى عليه السلام بالشرط الذي أخذ عليه وتذكره من بعد نسيانه إلا أنه لا يجوز أن يسكت عن منكر لأن ما معه من علم ينكر القتل ويحرمه ، فكانت هذه من موسى عليه السلام عمداً لحرمة سكوته وفيها جواز الإنكار على الشيخ رحمة به ، فأنكر أولاً القتل ثم أنه قتل نفسًا ليست نفسًا خبيثة تستحق القتل بل نفسًا زكية طاهرة ، ولم ترتكب جرماً يقتل نفس ، فلماذا تقتل ؟!

السادس والعشرون :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ، فيها جواز أخذ الأجر على الأعمال ومشروعية الإجارة .

السابع والعشرون :

في قوله تعالى : ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ ، أي طلبا الضيافة حينما تنكر أهل القرية لهما وأبوا أن يضيفوهما ، فلا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة .

الثامن والعشرون :

صنع المعروف لا يترك ولو مع اللئام لأن موسى عليه السلام حينما سار مع الخضر ولقيا أهل قرية أبوا أن يضيفوهما ، ومع ذلك لما وجدا جداراً في القرية يريد أن ينقض وأوشك على الهدم أقامه العبد الصالح ولم يتركه عقاباً لهم على فعلهم معهما ، وفي حقيقة الأمر أن بناء الجدار كان أنسب لحالهم ، فلو أن الجدار تهدم لظهر ما تحته من كنز[1] – ذهباً أو فضة أو لوحاً من الذهب فيه حكمة أو كنز علم – لاستفاد به أهل هذه القرية ولكن لما حجبوا حق الضيافة وتنكروا له أرسل الله تعالى من بني الجدار وحرمهم من الانتفاع بالكنز ، فكان إقامة الجدار من ناحية عقاباً لهم على بخلهم وسوء صنيعهم ، ولنعلم أن من يبخل فإنما يبخل عن نفسه حقيقة ، وإذا كان أهل هذه القرية حرموا الخير لما منعوا حق الضيافة فكيف يكون حال القرية التي تتنكر لشرع الله ولا تقيم حدود الله ولا تعدل بين خلق الله بل تحارب أهل الإيمان وتتعقبهم وتشنع عليهم وتشوه صورتهم وتدعى زوراً عليهم أنهم قتلوا أو اعتدوا ، ما بالك بقرية تتنكر للفضيلة للنقاب والحجاب الشرعي وتؤيد الرذيلة في صورة الفجور والسفور والعرى والتهتك ما بالك بقرية ترفع فيها أعلام الشرك في الموالد بالاستغاثات بغير الله وطلب المدد وتقديم النذور والقربات وذبح القرابين والطواف بغير بيت الله ، ظناً بأن هذا الشرك هو قمة التوحيد ألا ساء ما يزرون ، ما بالك بقرية تريد أن تستحل الحرام وتقيد من الزواج كفتح باب لتأييد الرذيلة والفاحشة ، ما بالك بقرية تخون الأمين وتأتمن الخائن ، لاشك أن تلك القرية أولى بالحرمان وابتعاد الخير ومحق البركة بل مهددة بالدمار والهلاك ، وكما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ سورة الأنعام ١٢٣ ، وقال جل ذكره : ﴿ وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِم إِلاَّ قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ سورة القصص ٥٨،٥٩ وقال عز وجل ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابَ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ الطلاق : ٨ – ١٠ .

التاسع والعشرون :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ، هذا يدل على أن أهل العلم لا يعجلون لعجلة الناس ، ففي الوقت الذي حذر فيه موسى عليه السلام العبد الصالح من خرق السفينة ، وأن من فيها مهددين بالغرق ، لم يعجل الخضر لعجلة موسى عليه السلام بل ذكره بما

اشترط عليه ، ثم لما قُتل الغلام وتغير موسى عليه السلام وأنكر على الخضر لم يعجل لعجلته بل ذكره تأكيداً بالشرط الذي أخذه على نفسه ، ثم لما قال له لو شئت لاتخذت عليه أجراً أي من هؤلاء اللئام الذين تنكروا لحق الضيافة لم يعجل أيضاً لعجلته ، لكنه رتب الأمور فقال هذا الذي قلت يؤخذ منه أولاً الفراق بيني وبينك تحقيقاً لما اشترطت على نفسك ثم هذا الذي استعجلت عليه ولم تصبر مع أني عرفتك بطبيعة الطريق قبل أن نبدأ سأنبئك بتأويله .

الثلاثون :

في قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ ، وهذا هو تعريف المسكين ، وأنه هو الذي يمتلك ولكن ما يمتلكه لا يكفي حاجته ، فهؤلاء يمتلكون سفينة ولكن دخلها لا يكفي حاجة أهلها ولذا فهم مساكين ، وعلى هذا فإن غالبية الموظفين والعمال مساكين لأن دخلهم لا يكفي الضروريات من الحياة ولذلك ينبغي ألا يحرموا من الزكاة ، لأن حالهم يشبه حال من قال الله تعالى فيهم ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ البقرة ٢٧٣ ، وأصحاب السفينة يشبههم في المسكنة في أيامنا هذه أولئك الذين ظلمهم قانون الإجارات فترى الواحد منهم ربما يمتلك عمارة ذات أدوار متعددة أو عمارات ولكن ما تدره من إيجار لا يكفي حاجته مع أنه في صورة الأمر يمتلك عمارات تقدر بالملايين .

الحادي والثلاثون :

في قوله تعالى : ﴿ مَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ ، فهم مع مسكنتهم وحاجتهم يعملون فيبذلون الجهد ويفرغون الوسع ويعملون جاهدين على رفع المسكنة عنهم ، لأن بعض الناس يستريحون اتكالاً على حاجتهم فيتسولون ويمتهنون التسول مهنة وعملاً ، ولذلك قال النبي ﷺ « ليس المسكين بالذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفف . اقرأوا إن شئتم : لا يسألون الناس إلحافاً » رواه البخاري ومسلم . وعند مسلم « قالوا فما المسكين ؟ يا رسول الله قال : « الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ويسأل الناس شيئاً » وقال ﷺ : لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره ، فيتصدق به ، ويستغني به من الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » رواه مسلم .

البقية في العدد القادم إن شاء الله .

محمد رزق سلطور

الشيخان وغيرهما : عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : قال اللّه عز وجل : « يؤذيني ابن آدم . يسبُّ الدهر . وأنا الدهر . بيدي الأمر . أقلب الليل والنهار » ومن رواية لمسلم : « يقول : يا خيبة الدهر . فإني أنا الدهر أقلبُ ليله ونهاره » مع تنزيه اللّه العظيم أن يصل إليه أذى من الغير ، فإذا سبّ ابن آدم الدهر على أنه فاعل لهذه الأمور فذلك من الكفر باللّه لأنه بيده عزّ وجل مقاليد السموات والأرض مدبر الأمر وحده . وليس للدهر تأثير في شيءٍ أبدًا ، .

دروس وعبر من قصة موسى عليه السلام

فضيلة الشيخ
محمد رزق ساطور
مدير إدارة التعليم
وشئون القرآن
بالمركز العام

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله ومن والاه وبعد :

الثاني والثلاثون : في قول العبد الصالح : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، فقد نسب العيب لنفسه ، ولم ينسبه لله تعالى ؛ تعظيمًا وتنزيهًا وتأدبًا مع الله تعالى ، فالعيبُ يليق بنا ، ولا يليق برب الناس ، على الرغم من أن العبد الصالح لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه ، وإنما كان بأمر الله تعالى ، ومع ذلك نسب الفعل لنفسه تأدبًا مع الله تعالى ، وتنزيهًا له عن العيب والنقص ، وكذلك في قتل الغلام قال : ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف : ٨٠ ، ٨١] ، وقد فصلنا هذه المسألة في العدد السابق في المسألة الثانية عشر ص ٥٩ فلتراجع .

الثالث والثلاثون : في قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ [الكهف : ٧٩] تأمل في بيان وإجابة العبد الصالح توضيحًا لموسى عليه السلام ، إن هذا التوضيح كان أدعى أن يُعترض عليه ، يعني : لو كانت السفينة لأغنياء لهان الأمر ، ولكن لمساكين يعملون ولا يزالون محتاجين ، ومع ذلك لم يعترض موسى عليه السلام أو ينكر أو يقل له : أتخرق سفينة لمساكين أهذه هي مساعدتك لهم ، أو معاونتك إياهم ، لكن موسى عليه السلام قد علم الدرس ووعاه ، فمع أن تفسير الأمر كان يستدعي من موسى عليه السلام أن يستنكر أكثر لحاجة المساكين ؛ لكنه صبر فاتضح له وجه الحكمة في ذلك : أن العبد الصالح فعل ذلك لتبقى لهم سفينتهم ، ويكون ذلك سببًا في حفظ سفينتهم بإذن الله .

الرابع والثلاثون : في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] فيها تحريم الغصب ، والتشنيع على فاعله ، وفيها أن الملوك إذا كانوا على غير دين الله ، أذاقوا أممهم العذاب ، وعاثوا في الأرض فسادًا ، وظلموا وخربوا وسلبوا أموال الناس ، واعتدوا على أملاكهم : تارة بالتأميم ، وتارة بفرض أتاوات وضرائب باهظة تستغرق الأموال ، وتارة بالجمارك ، وتارة بالهوى والاعتداء والأحقاد الشخصية ، فيغتصبون الحقوق ويضيعون أهلها ، وواجب الأنبياء والمرسلين وأتباعهم أن يرفعوا عن الناس الظلم ، وأن يدافعوا عن المظلومين ، ولذلك إذا تأملت أحوال المسلمين في البوسنة مثلًا وجدت أن أعداء الله من الصليبيين قد اغتصبوا أموالهم

وأعراضهم وبيوتهم ومساكنهم ، وخربوا ديارهم وقتلوا أبناءهم وغدروا بهم ، فهذا حال أهل الباطل ؛ كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] ، وماذا فعل المسلمون ؟ لا يزالون يستنكرون ويدينون ويشجبون ويحذرون ، أمات الاستعمار والغزو الفكري في النفوس النخوة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، فاللهم ردنا إلى دينك ردًّا جميلًا ، ولا تؤاخذنا بذنوبنا أخذًا وبيلًا .

الخامس والثلاثون :

جواز إتلاف بعض مال الغير ، أو تعييبه لوقاية وصيانة باقيه ، كمال المودع أو اليتيم ، فإن انتظار استئذان صاحب المال أو ربما غياب فهمه وإدراكه للمصلحة يضيع الفرصة في إنقاذ ماله أو إبعاد الظلم عنه ، ومن هنا وجب على المسلم أن يكون ناصحًا لأخيه ، حريصًا عليه ، يسدي له حقه عليه ، وإن كان بغير إذنه ؛ نظرًا للمصلحة الراجحة التي تعود عليه بالخير والمنفعة .

السادس والثلاثون :

إذا تعارضت مفسدتان ارتكب أخف الضررين ، فلما تعارضت مفسدة الغصب مع مفسدة خرق السفينة ارتكب أخف الضررين وهو خرق السفينة ؛ وهذه قاعدة أصولية .

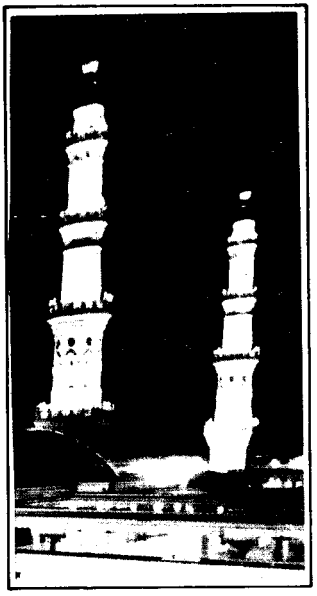

السابع والثلاثون : في

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ [الكهف : ٨٠] ، مع أن الإشكال هنا يستحق الاعتراض والسؤال ، وعدم الصبر على تكملة الرد بأن يقول له : وهل إذا كان أبواه مؤمنين كان جزاء ابنهما القتل ، ومع ذلك فقد تعلَّم موسى عليه السلام الصبر ، فانتظر ، فإذا بالسبب يزيل الالتباس ويوضح الإشكال ، فمع أنه قتل إلا أنه رحمة بالوالدين وحرصًا على إيمانهما ، وهنا يظهر أن المصيبة ربما يكون فيها وجه رحمة وخير لمن أصابته ، وهذا أدعى أن يصبر ويحتسب ، ويعلم أنه ربما ادخر الله فيها له خيرًا كثيرًا .

الثامن والثلاثون : أن

صلاح الآباء ينفع الأبناء ما لم يبلغوا الحلم ، فإن أحسنوا امتد الانتفاع وازداد ، وإن أساءوا قطعوا بينهم وبين هذا النفع ، فكم من يتيم في المدينة ، ومع كثرتهم أرسل الله تعالى من بنى ليتيمَيْن بالمدينة جدارًا لهما كاد أن ينهار ؛ وذلك لأن أباهما كان صالحًا ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] .

التاسع والثلاثون :

عمارة ما يخاف من أن ينهار أو يهدم ، وعدم إهماله إلى أن يخرب ، فحينما رأى العبد الصالح الجدار قد أوشك على الهدم أو قاربه أقامه ، فلا ينبغي إهمال الأشياء وتركها حتى تخرب ، وذلك يدل على أن أهل الإيمان إنما هم خير لأهل الأرض ، وعمار للأرض ، ويرجون الخير ويحافظون على أهل الإيمان وعلى ذريتهم .

الأربعون : في قوله

تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ [الكهف : ٨٢] .

وفي هذه الآية دلالة على جواز دفن المال في الأرض سواء أخاف الإنسان من النهب أو السلب أو السرقة أو الغصب ، وإذا لم يستطع العبد أن يثمر ماله بالحلال الطيب ويبتعد عن الربا والحرام ؛ فباطن الأرض خير للمال من ظاهرها ،

وذلك أولى من المعاملات الربوية التي يفتي بها من غرتهم المناصب الزائلة ، والمجاملات الفاسدة على حساب دين الله تعالى ، فيزعمون أن الربا المحرم الخبيث سيكون بفتوى مفتٍ ، أو تأويل فاسد ، سيكون حلالًا ، كلا ، فالله تعالى يقول : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

الحادي والأربعون : لا

ينبغي أن يعجب المرء بعلمه ، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه ، فلعل فيه سرًّا لا يعرفه ، فإن صبر عليه علم تأويله أو فهمه على مراده ، فلا ينبغي أن ينكر شيئًا ، بل عليه أن يتأنى حتى يعلم حقيقة الأمر ، فلقد أنكر موسى عليه السلام على العبد الصالح أنْ خرق السفينة ، وتعجب أن تحمل السفينة أهلها وبها خرق ، على الرغم من أنه عليه السلام حين وضعته أمه في اليم وهو رضيع في صندوق من الخشب صنع على عجل ؛ نجاه الله تعالى في مكانٍ الهلاك فيه محقق ، ولو أن الإنسان تأمل أكثر ؛ لعلم أن من في السفينة قد يتعلق بأحد الألواح ، أو يستطيع الغوص فينجو ، ولكن الرضيع لا أمل له في ذلك .

فالذي نجى الرضيع من الغرق - وهو لا يمتلك الأسباب - قادر على أن ينجي أهل السفينة وهم يمتلكون الأسباب ، وأنكر موسى عليه السلام على العبد الصالح قتل الغلام وتعجب كيف يَقْتُل ولا يُؤاخذ ، مع أنه عليه السلام قتل ولم يؤاخذ ، قال سبحانه : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص : ١٥] .

فكيف ينكر عليه القتل وقد قتل ، ولم يعاقبه الله على فعله ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [القصص : ١٦] ، وأنكر عليه أن يبني الجدار بغير أجر ، مع أنه عليه السلام سقى لابنتي الرجل الصالح ،

ولم يطلب على سقيه أجرًا ، مع أنه كان أحوج للأجر من العبد الصالح ، قال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٣ ، ٢٤] .

ولذلك ينبغي أن لا يعجل المرء بل عليه أن يتريث حتى لا ينكر شيئًا هو يفعله .

الثاني والأربعون :

الرضا والتسليم بقدر الله تعالى . فربما ينظر المرء إلى بعض الأفعال فيستاء ويحزن ، وإذا علم حقيقة الأمر ؛ وجد أن المصائب لها جانب حسن ، خاصة عند التسليم والإذعان ، رضًا بقدر الله ، فخرق السفينة ظاهره غرق لأهلها ، وخطر محقق ، وحرمان لأهلها من الرزق الطيب ، ولكن الحقيقة : نجاة السفينة من الغاصب الغادر ، وقتل الغلام ظاهره مفجع وقاسٍ لوالديه ، وفقدان لعزيز ، وحقيقته : الرحمة بالوالدين ، والخوف على ذهاب إيمانهما بالله ، ووقوع الجدار ظاهره الخراب ، وحقيقته : العمران الحقيقي بإقامته ، وصيانة الكنز من تحته .

وإذا علم العبد أن للمصائب وجهًا حسنًا ، إذا رضي فيها بقدر الله واسترجع ؛ فإن الله تعالى يعوضه خيرًا مما أخذ منه ، ويقدر له الخير .

الثالث والأربعون :

إطلاق اسم القرية على المدينة لقوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ [الكهف : ٧٧] ، ثم قال عنها : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [الكهف : ٨٢] ، وأعظم المدن مكة المكرمة ، قال الله عنها : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] ، وقال سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد : ١٣] .

الرابع والأربعون :

التعبير بـ « تستطع » ، « تسطع » ، فقبل أن يوضح العبد الصالح لموسى عليه السلام ما رآه : من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وبناء الجدار ، كان الإشكال قويًا شديدًا ثقيلًا فقال : « تستطع » ، ولما فسر الخضر لموسى عليه السلام الأمر وبين له تأويل ما لم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل قال : « تسطع » بحذف التاء ، فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُ

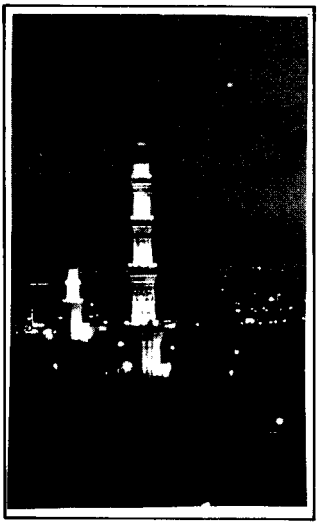

نَقْبًا ﴾ [الكهف : ٩٧] ، فالصعود سهل ، أما نقب الجبل فشيء شاق صعب ، فقابل السهل بحذف التاء ، ومع الأثقل جاءت التاء .

فالقرآن الكريم معجز ، وما أنزله الله إلا بعلمه ، ولا يوجد حرف في القرآن إلا وله أهميته ومناسبته ومعناه .

الخامس والأربعون :

في قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : ٨٢] .

وهذه لطمة للجهال الذين زعموا أن الخضر ولي من أوليائهم ، وافتروا على الشرع زورًا أن الولي له أن يفعل من المخالفات ما شاء ، فمخالفته يثاب عليها في زعمهم ، فبين القرآن الكريم أن ما فعله العبد الصالح لم يكن من تلقاء نفسه ، أو من رأيه وهواه ، بل إنما فعل كل ما فعل بتوجيه وأمر من الله تعالى ، فما كان له أو لأي عبد صالح أن يفعل شيئًا من تلقاء نفسه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : ١٥] ، وإذا أمر الله تعالى ؛ فأمره هو الخير كله ، فأعمال الخضر التي قام بها لم تتجرد عن الوحي ، بل هي ناتجة عن متابعة وتنفيذ لأمر الله ووحيه ، فلعل أهل الجهل من الطرقيين يفيقون من غيهم وضلالهم ؛ ليعلموا أن الخير كل الخير في الاتباع ، والشر كل الشر في الابتداع .

السادس والأربعون :

العمل علم يجب الحرص عليه ، فهذه الرحلة المباركة في طلب العلم لم يجلس فيها العبد الصالح مجلس وعظ ولا خطابة ، ولا محاضرًا لموسى عليه السلام ، ولم يُملِ عليه الفوائد والمسائل والدروس والعبر والعظات ، بل إن العلم الذي تلقاه موسى عليه السلام إنما بالمرافقة والملازمة والمصاحبة ، فليس العلم هو الكلام فقط ، بل تلقى موسى عليه السلام علم العمل ، وهذا العلم هو الذي

نفتقده اليوم ، فما أكثر الدروس والمحاضرات والخطب والمواعظ والمؤثرات الوقتية ، وما أقل العمل ، فخلاصة هذه الرحلة التركيز على علم العمل والاستفادة من لحظات الحياة ، والاستمساك بأمر الله ووحيه وتنفيذ أمره ، وكما قيل : لفعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل لرجل .

السابع والأربعون :

سعة علم الله تعالى ، وأنه لا نهاية له ، ولا غاية تحصره ؛ ولذلك لما تقابل موسى عليه السلام مع العبد الصالح قال له : « يا موسى ! إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه لا أعلمه .. ، فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر فقال الخضر : يا موسى ! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر » الحديث سبق تخريجه .

الثامن والأربعون :

خاتمة هذه الرحلة المباركة درس في فهم الصفات ، فلقد جاء في هذه الرحلة قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ [الكهف : ٨١] ، ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ [الكهف : ٨٢] ، ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف : ٧٧] ، فالعبد له إرادة ، وهم لهم إرادة ، والجدار له إرادة ، ورب العالمين له إرادة ، إلا أن صفة الخالق ليست كصفة المخلوق ، فصفة الله الخالق تناسب عظمته وجلاله وكماله وعلوه ، أما إرادة العبد فإنها تناسب عجزه وضعفه وفقره ونقصه وافتقاره ، وإرادة الجدار تناسب قصوره وسكونه وثباته بإذن ربه ، فما بين صفة الخالق وصفة المخلوق كما بين ذات الخالق جل وعز وذات المخلوق ، فالله تعالى ليس كمثله شيء ، فلا ينبغي أن يخلط العبد بين صفات الخالق وصفات المخلوق .

أسأل الله أن يجعلنا مسلمين له ، موحدين له ، إنه على كل شيء قدير .

[redacted]

مسلم : عن عمر - رضي الله عنه - قال : لما كان يوم بدر قال : نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضع ، ونظر إلى المشركين ، فإذا هم ألف وزيادة . فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مدّ يديه وعليه ردائه وإزاره ثم قال : « اللهم أين ما وعدتني . اللهم أنجز ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا » . فما زال يستغيث ربّه عز وجل ويدعوه حتى سقط ردائه . فأخذ أبو بكر ردائه فردّه ثم التزمه من ورائه بقول : يا نبيّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ الآيات . [الأنفال : ٩] فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله عز وجل المشركين . فقُتل منهم سبعون . وأُسر منهم سبعون رجلًا . فاستشار ﷺ أبا بكر وعليًا وعمر - رضي الله عنهم .

المنح في المحن

بقلم
محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

المتأمل يجد في الفتن من المنافع والخير ما يجعلها تنطوي على المنح على ما فيها من محن، وهذه سمة خاصة لأهل الإيمان، فلقد اجتمعت قوى الشر المتحالفة تريد النهب والسرقة وانتهاك الحقوق والأموال والأنفس والثمرات، وتدمير القيم والأخلاق مع حرب مشينة على الإسلام وأهله، ولكنها تغطي هذا الوجه القبيح والفعل الشنيع كي تخدع السذج والمرجفين في البلاد، فيقولون: نريد تحرير الشعوب من الطغاة والمتجبرين، نريد فك القيود عن الشعوب المحاصرة في بيوتها وبلادها، نريد للناس الخير والرفاهية والرخاء!!! وكذبوا وخسئوا فلم يعد هذا يخفى على أحد ممن عنده مسحة من عقل، لقد حركت هذه الفتن في الناس كل كوامن النفس، وجمعت قلوب المسلمين على نصرة الإسلام والمسلمين، وتحرك المسلمون نحو دينهم وربهم ما لو وعظهم الوعاظ والخطباء عشرات السنين ما وصلوا إليه، وتلك من المنح في هذه المحن.

إن ادعاء أهل الباطل أنهم يريدون الخير والإصلاح محض كذب وافتراء، وهذا ادعاء أهل الباطل دائمًا، فلقد أراد فرعون من قبل أن يقتل موسى عليه السلام، وهذه مسألة تحتاج إلى تهيئة الرأي العام لتقبل ذلك حتى لا يثور عليه الناس، وهل يجرؤ على أن يلصق بموسى عليه السلام تهمًا ليبرر للناس ما يريد أن يفعله به، فعرض الأمر عليهم قائلا كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]، فالظالمون لا يقيمون وزنًا لأحد وإن كانوا أنبياء، ولا يعظمون شرائع، وليس عندهم ما يردعهم عن الظلم، بل هم لا يعظمون الله تعالى، ففرعون يتحدى موسى عليه السلام فيقول ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، ولما أحس فرعون أن الشعب من الممكن أن يثور عليه إذا به يتوجه بهذا الخطاب للناس يبرر لهم قوله وفعله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ فتمسح في الدين، والدين منه براء، ليخدع الناس، ثم بين لهم سببًا آخر فقال: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، لقد وصف فرعون موسى عليه السلام بالفساد، فهل موسى عليه السلام هو الذي سيبدل ويغير الدين؟ وهل دعوة موسى عليه السلام فساد؟ أو تؤدي للفساد؟ وهل سيقتنع الناس بذلك؟ ولكنه التبرير المقيت الخبيث الذي يستخف بعقول البشر من جانب الطغاة حيال أهل الإيمان.

إن القتل شنيع مستقبح مستهجن في كل الشرائع، والله تعالى يقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة:٣٢]، فكيف يقبل الإنسان على القتل وهو يعلم جرمه وإثمه، لابد أن تقوم النفس الخبيثة بدور التبرير حتى يقع القتل، فقد أقبل ابن آدم الأول على قتل أخيه بعد ما بررت وزينت له نفسه الخبيثة ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، ومع أنه هدده بالقتل إلا أنه أحجم عنه حتى قامت النفس الخبيثة بدورها فبررت وهيأت وزينت وشجعت، فأقبل بعد إحجام وانتهك الحرمات بسبب ذلك ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٣٠]، والنفس تضعف بذلك، فتلين وتستجيب لتلك المبررات وإن كانت واهية، وإن كانت خلاف الحقيقة، هكذا يزين الإنسان لنفسه مغترًا بقوته وسطوته وجبروته الاعتداء على الآمنين في حين أنه يوهم نفسه زورًا أنه يفعل ذلك من أجلهم وهذا عين الفساد والإجرام، فهذا فرعون اللعين حينما التقى بموسى عليه السلام يقول له كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء:١٨، ١٩]، إن فرعون الذي قتل الصغار وبقر بطون النساء وأجرم في حق البلاد والعباد يذكر موسى عليه السلام أنه قتل مع أنه قتل على سبيل الخطأ، أرأيت إلى حال هذا المجرم الأثيم كيف يشوه صورة نبي الله موسى عليه السلام فيشنع عليه ويصفه بما ليس فيه، وهذا دأب كل أهل الكفر، وما أشبه الليلة بالبارحة، فهذا هبل الأكبر قائد تحالف الشيطان يرمي التهم ويوزعها على كل من في الأرض فيقول: هذا إرهابي، وهذا متطرف، وهذا متواطئ، وهذا ديكتاتور، وهذا رجعي، إلى آخر التعبيرات التي يهدد بها من يشاء، بل ونسي نفسه فبات يفكر في القضاء على المسلمين في كل مكان، تارة في أفغانستان وأخرى في العراق، ويبيد اليهود كل شيء في فلسطين على مرأى ومسمع من الدنيا وبإذن ورأي هبل الأكبر نفسه، كذلك زين له خياله المريض أنه قادر على أن يفعل ما يشاء، حتى أصبح الكثيرون مهددين من هذا الأحمق الجاهل الذي تحركه الصليبية الحاقدة والصهيونية الخائنة والمجرمون المرتزقة المنتفعون من نهب ثروات الشعوب. إن المسلمين يتوجهون إلى الله تعالى ويجأرون إليه سبحانه أن ينتقم ممن استحل دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، لقد جمعت هذه المحن قلوب المسلمين، لأنهم يعلمون أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى مقرون بالرضا والاحتساب فإن فاتهم الرضا فمعولهم على الصبر وعلى الاحتساب وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ومؤنته، وهذا هو الفارق بينهم وبين عدوهم وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ...﴾ [النساء:١٠٤]، فاشتركوا في الألم وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى، ولكن أهل الكفر يعيشون في شقاء وكرب وذل وإن تظاهروا بخلاف ذلك، قال الحسن رحمه الله: «إنهم وإن هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال إن ذل المعصية لفي قلوبهم أبي الله إلا أن يذل من عصاه».

إن هذه المحن كما قال ابن القيم رحمه الله: «إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه كما قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأقرب إليهم فالأقرب يبتلي المرء على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء وإن كان في دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة، إن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه وغلبته له وأذاه له في بعض الأحيان أمر لابد منه وهو كالحر الشديد والبرد الشديد والأمراض والهموم والغموم فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار حتى للأطفال والبهائم لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين، فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر والنفع عن الضر واللذة عن الألم لكان ذلك عالما غير هذا ونشأة أخرى غير هذه النشأة وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر والألم واللذة والنافع والضار وإنما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٧]، اهـ.

ماذا عسى المسلمون أن يفعلوا؟ هل يتقاعسون عن نصرة إخوانهم؟ فيأتي الدور عليهم؟ وهل يقف الحكام مكتوفي الأيدي مكبلين أنفسهم وشعوبهم بما يسمى بالشرعية الدولية التي لم ولن تقدم شيئًا أبدًا، من يرحم الصغار والنساء والأبرياء والضعفاء من تلك الهجمة الهمجية الإرهابية الحاقدة؟ ثم ماذا نحن قائلون لربنا سبحانه يوم القيامة إذا سألنا عن ذلك؟ ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين:١٠٤]، أسأل الله العلي الأعلى أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن يذل الشرك والمشركين، وأن يدمر أعداء الدين من الغزاة المجرمين، اللهم أحصهم عددا، وأهلكهم بددًا، ولا تبق منهم أحدًا، ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾ [نوح:٢٧، ٢٨].

الإسلام الديمقراطي

بقلم / محمد رزق ساطور

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه وبعد:

تتعرض ديار المسلمين وعقائدهم في هذه الأيام لهجمة تتارية يهودية صليبية حاقدة تريد أن تأتي على الأخضر واليابس، فلم تكتف بسفك الدماء وانتهاك الحرمات، بل تبتغي أغلى ما يملكونه وما يعيشون به؛ ألا وهي معتقداتهم وأخلاقهم، وبدأ الغزو الفكري بإدخال مفاهيم غريبة على عقيدة المسلمين وديارهم، وأحدث هذه الغرائب ما قاله هبل في تصريحاته: أنه يريد الإسلام الديمقراطي، والغريب أنه وضع الاسم ثم وضع المعنى، فماذا يعني بالإسلام الديمقراطي؟!!

إنه يعني أن يكون المسلم مفرغًا من دينه فلا يعلم ولا يعمل ولا يدعو، بمعنى أن تختلط عنده الأحكام، ويستوي عنده الناس مسلمهم وكافرهم، وبمفهوم أوسع أن تضيع هوية المسلم فلا يكون مميزًا عن غيره في شيء، فلا شخصية متميزة بما أضفاه عليها الإسلام من العزة والكرامة والإباء ومحبة المؤمنين وبغض الكافرين والحذر منهم، ولا عقيدة صحيحة يتميز بها، لتصبح عقيدته عبارة عن مجموعة من المفاهيم القاصرة العاجزة الهشة، فيستوي عنده من يقول لا إله إلا الله، ومن يقول إن الله ثالث ثلاثة، يستوي عنده الحق مع الباطل، يستوي عنده العدل مع الظلم، ليكون عند ذلك صورة بغير روح، صنمًا أسك لا يصلح إلا لعبة في أيدي الصغار، وتلك نكبة أخرى.

لقد عاش الإسلام في المدينة مع اليهود ولكنه كان مميزًا بعقيدته التي لا تسمح بالتزايد، لدرجة أن اليهود طمعوا في المسلمين وظنوا أنهم سيجاملونهم فجاءوا لنبينا ﷺ، وكانت قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قتل به وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة أدى مائة وسق من تمرًا فلما بعث رسول الله ﷺ قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا ادفعوه إلينا فقالوا بيننا وبينكم رسول الله، فنزلت ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، ويقول تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٤٣]، فقد أخرج البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال: «كيف تفعلون بمن زنى منكم؟» قالوا لا نجد فيها شيئا، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم؛ في التوراة الرجم «فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» فجاءوا بالتوراة فوضع مدارسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم فقال ما هذه فلما رأوا ذلك قال: هي آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما قريبا من حيث توضع الجنائز عند المسجد، قال عبد الله فرأيت صاحبها يحني عليها يقيها الحجارة»، ثم يذكر القرآن النصارى فيقول: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، لكن هل هؤلاء الغزاة الحاقدون لهم دين يرجعون إليه أو يعظمونه؟! هل لهم خلق يقدرونه أو يوقرونه ويتصفوا به؟!

يبرهن الغزاة الحاقدون بشتى الطرق أنهم مستمرون في صراعهم ضد الإسلام والمسلمين فهم يدعون الرقي والحضارة والثقافة وهم أهل الأساطير والخرافات، ومن يلق نظرة في التاريخ يعرف أيهم أرقي فكريا المسلمون أم النصارى، فهم يدعون الناس إلى مناصبة العداء للمسلمين فيتهموننا بالظلم والوحشية لينسى الناس الفظائع التي ارتكبتها الحملات الصليبية، وقد أباحوا لأنفسهم صنوف الأكاذيب ليستفزوا شعوبهم ضد المسلمين ولا بأس عندهم بالخيانة والغدر إذا كانت الخيانة والغدر تستنهض الهمم لمعاداة الإسلام والمسلمين.

لقد تخلت أمريكا عن كل تعهداتها السابقة من ادعاءات عن حقوق الإنسان، إلا إن كانوا

يعرفون الإنسان أنه غير المسلم، فقد انتشرت عندهم المعتقلات وطرق التعذيب والاعترافات الوهمية، ولما انتهت تحقيقاتهم وعلموا أن المسلمين برآء من كل ما زعموه أخفوا نتائجها بزعم المحافظة على أمن أمريكا، لقد فشلوا فشلا ذريعًا في ديارهم، فجاءوا إلى ديارنا فيقولون نريد الإسلام الديمقراطي، ومعناه الاستسلام الذليل المهان، يريدون إسلامًا مهيض الجناح، منتهك القوى، إنهم كما قال القرآن عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء:٤٤]، يريدون إسلامًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، لكي يعطي كل ما يملك لإخوان القردة والخنازير وعبد الطاغوت عن طيب خاطر، فيقول للغزاة المجرمين سفاكي الدماء والأعراض أنتم منقذو هذا العالم من الطغاة والمتجبرين.

الإسلام الديمقراطي: أن لا تقوم لعقيدة الجهاد قائمة وأن يبقى المسلمون في ديارهم منزوعي الكرامة والعزة، لأنهم يعلمون أن قوة المسلمين في دينهم.

روى أحمد أبو داود عن ابن عمر قال سمعت رسول الله يقول: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم».

إن هؤلاء الغزاة المجرمين إذا أرادوا أن يستبيحوا حرمة بلد من بلاد المسلمين لم يعجزوا عن اختلاق الأسباب المبررة لما أرادوا أن يفعلوا، والعذر الأقبح من كل ذنب قولهم أسلحة الدمار الشامل، وهذا العذر سيف موضوع الآن على أعناق جميع الحكام ليخضعوا ويستكينوا إلى أن يأتي عليهم الدور ألا لعنة الله على الظالمين، فمعلوم أن من دخل الحضانة أو الروضة لن يقف عندها بل هي مقدمة بين يدي التعليم الأساسي، وهذه مقدمة للمرحلة التالية، فعينه على الجامعة ولكن في حينها ثم الدراسات العليا ثم الدكتوراه، ثم على رئاسة القسم أو العمادة أو قل رئاسة الجامعة أو الوزارة وهكذا احتلال الشعوب، فليست العراق نهاية المطاف بل هي البداية، ومع تلك البداية الخبيثة بدأ هبل في شرح إسلامنا بموسوعة الإسلام الديمقراطي.

الإسلام الديمقراطي: أن ينشغل المسلم بنفسه ولا يسأل عن أخيه، ولا يفكر في دعوة غيره إلى الإسلام، فهم يريدون إسلامًا باهتًا لا يتميز بشيء، أقول لو أن أبا جهل عرض عليه وعلى من معه من كفار قريش هذا الإسلام الديمقراطي لما ترددوا لحظة في قبوله لأنه غير مكلف فلا يغير سلوكا ولا يترتب عليه شيء لا عمل ولا تعبد، فهو دين بلا دين.

إن إسلامنا تميزه عقيدة صافية خالصة صحيحة تربط العبد بربه سبحانه، كما تربطه بالناس، فالعلاقة بالله تعالى تقوم على تقديسه وتنزيهه عن كل عيب ونقص، فلا تنسب لله تعالى الولد ولا الصاحبة لأن في ذلك سبًا له سبحانه وشتما، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

فقد أخرج البخاري وأحمد والنسائي وابن حبان عن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني وشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه فقوله: اتخذ الله ولدا وأنا الله الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد».

بل يعتبر من نسب لله تعالى الصاحبة والولد كافرًا خاسرًا في الدنيا والآخرة إلا أن يتوب ويسلم لله رب العالمين، فعند ذلك يؤتى أجره مرتين، فقد أخرج البخاري وأحمد والنسائي والبيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين .... ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدرك النبي ﷺ فآمن به».

إن هذه العقيدة تشعر المسلم بانفراده بتعظيم الله بعبادته ومعرفته، وفي الوقت نفسه تربطه بالناس على أساس المحبة والبغض بناء على هذه العقيدة، وحتى الذين نبغضهم لا نظلمهم ولا نعتدي عليهم ولا ننتهك حرمتهم بل نعاملهم بالعدل، وأما من نحبهم فنعاملهم بالرحمة، كما ندعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ونجادلهم بالتي هي أحسن.

أسأل الله تعالى أن ينجينا من شر هبل وأعوانه، وأن يكفينا شر تحريف الإسلام إلى ما يزعمونه الإسلام الديمقراطي، وشر تخطيط الغزاة المجرمين، وأن يرد كيدهم في نحورهم، وأن يكفيناهم بما شاء وكيف شاء إنه على كل شيء قدير ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

التوبة وفضلها

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وبعد:

فهذه هي الحلقة الأولى عن التوبة، نبدأها بالحديث عن فضل التوبة، فنقول:

أولاً: قال ربنا جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

قال القاسمي: «وفي ذكر التوبة إشعار بمساس الحاجة إليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه». وقال الزمخشري: «إن الله يحب التوابين الذين يطهرون أنفسهم بطهرة التوبة من كل ذنب».

ومحبة الله للتوابين دليلها فتح الباب لهم لئلا يقنطوا من رحمة الله سبحانه فيقبلوا عليه، ويلوذوا ببابه، لينالوا من فضل التوبة وبركتها.

ثانيا: قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

وفي هاتين الآيتين بشارة لمن أراد التوبة، وَفَتْحُ بابها إلى قبيل الموت، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». وقوله: «ما لم يغرغر». أي ما لم تبلغ روحه حلقومه، فتكون بمنزلة الشيء يتغرغر به، أي ما لم يتيقن الموت لأن التوبة المقبولة هي التي تكون قبل الموت، أما عند تحقق وقوع الموت فلا يعتد بها.

قال الشيخ حافظ بن حكمي:

وتقبل التوبة قبل الغرغرة
كذا أتى في الشرعة المطهرة

ولذلك اجتمع أربعة من أصحاب النبي ﷺ فقال أحدهم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم». وقال الثاني: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم». فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه». [اخرجه احمد]

فمن فضل الله على عباده أنه أذن لهم في التوبة وفتح بابها ما لم يأت الموت وتنتهي الحياة، كما أنه جل شأنه رغب في التوبة قبل أن يأتي الموت، وحتى لا يقول العبد حين يعاين الهلاك بعد الموت: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠]، عند ذلك يأتيه الرد القاطع الذي يليق بحاله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

ثالثا: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨]، فالله تعالى يرغب أهل الإيمان في التوبة، لأنهم هم الذين يستجيبون لأمره ولأنهم هم أحق الناس بالتوبة، أي بالرجوع إلى الله، ونيل ثواب التوبة الذي لا يحصل عليه إلا أهل الإيمان، وكذلك رغبهم سبحانه دون غيرهم، وهذا لاختصاصهم بالفضل وتوجيههم للخير، وحضهم على التوبة النصوح، قال مجاهد: النصوح أن يتوب من الذنب فلا يعود إليه، قيل: توبة نصوح أي صادقة يقال نصحته: أي صدقته، وقيل: نصوح: أي بالغة في النصح، مأخوذ من النصح وهو الخياطة، كأن العصيان يخرق والتوبة ترقع، والنصح: الخيط، وقيل: نصوحًا أي خالصة، يقال: نصح الشيء إذا خلص، ونصح له: أخلص له القول.

[شرح السنة للبغوي ٨١/٥]

وقال القاسمي: أي توبة ترقع الخروق، وترتق الفتوق، وتصلح الفاسد، وتسد الخلل. [محاسن التاويل للقاسمي: ٥٨٦٨/١٦]. وسئل الحسن البصري عن التوبة النصوح فقال: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك

الجوارح، وإضمار أن لا يعود.

وقال القرطبي: اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولاً، فقيل: هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن في الضرع، وروى عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم ورفعه معاذ إلى النبي ﷺ.

وقال فتح الموصلي: علاماتها ثلاث: مخالفة الهوى وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ، وقال سهل بن عبد الله التستري: هي التوبة لأهل السنة والجماعة لأن المبتدع لا توبة له بدليل قوله ﷺ: «حجب الله على كل صاحب بدعة أن يتوب».

[الطبراني في الأوسط ٤٣٦٠]

وعن حذيفة: بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه، وأصل التوبة النصوح من الخلوص، ويقال هذا عسل ناصح إذا خلص من الشمع، وقيل: هي مأخوذة من النصاحة وهي الخياطة، وفي أخذا منها وجهان: أحدهما: لأنها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما تحكم الخياط الثوب بخياطته ويوثقه، والثاني: لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء الله وألصقته بهم كما يجمع الخياط الثوب ويلصق بعضه إلى بعض.

فهذه التوبة النصوح أي التي لا يتاب منها من فضلها أنها تكفر الذنوب والخطايا وسبب من أسباب دخول الجنة، ولذلك قال جل شأنه: ﴿مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وقال جل شأنه: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليتمنين أقوام لو أكثروا من السيئات قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: الذين بدل الله سيئاتهم حسنات».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل شيء يتكلم به ابن آدم فإنه مكتوب عليه فإذا أخطأ خطيئة فأحب أن يتوب إلى الله عز وجل فليأت رفيقه فليمدد يديه إلى ربه عز وجل ثم يقول: اللهم إني أتوب إليك منها لا أرجع إليها أبدًا فإنه يغفر له ما لم يرجع في عمله ذلك». [البيهقي في السنن الكبرى: ١٠/١٥٤]

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فتعرض عليه صغار ذنوبه وتنحى عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: أين لي ذنوب ما أراها هاهنا؟ قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه». [مسلم: ١/١٧٧]

انظر إلى حال ذلك الرجل وهو مقر لا ينكر من صغار ذنوبه التي تعرض عليه شيئًا وهو مشفق من كبار ذنوبه، وهو لا يتلكم ولا يذكر شيئًا سوى الإقرار لأنه يخشى أن تظهر الكبار، فلما سترها الله عليه وجاءت رحمة الله رب العالمين ليعطى مكان كل سيئة حسنة، عند ذلك فقط سأل عن كبار ذنوبه راجيًا الثواب لتبدل هي الأخرى حسنات، فضحك النبي ﷺ من طمع ذلك العبد في رحمة ربه، بعد أن كان مشفقًا على نفسه من الكبار، طلبها حتى تزداد حسناته فسبحان الذي بدل السيئات حسنات بعفوه وكرمه وإحسانه.

قال أبي طويل شطب الممدود أنه أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت من عمل الذنوب فلم يترك منها شيئًا وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داحة إلا أتاها فهل لذلك من توبة؟ قال: فهل أسلمت؟ قال: فأما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن، قال: وغدراني وفجراني، قال: نعم. قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى.

فالتوبة النصوح تذهب السيئات وتمحوها بفضل الله وعفوه وكرمه بل تتبدل السيئات إلى حسنات، ويجعلها الله تعالى سببًا في دخول الجنة التي وعد الله عباده، وهذا يدل على فضل وشرف ومنزلة التوبة.

التوبة وفضلها

إعداد

محمد رزق ساطور

الحلقة الثانية

الحمد الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات، وهو التواب الرحيم، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ، وبعد:

فقد استعرضنا في الحلقة الماضية حقيقة التوبة، وذكرنا شيئًا من فضائلها، وفي هذه الحلقة نكمل بعض فضائل التوبة- إن شاء الله تعالى- فنقول:

رابعًا: التائب يقبله الله تعالى ويتوب عليه، ولو لم يكن في التوبة إلا أن يسامحه الله ويقبل توبته لكفى ذلك شرفًا وفضلاً، قال جل شانه: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٨].

والمراد قَبِلَ توبتكم حين تبتم عن المحظور الذي ارتكبتموه. [روح المعاني ٦٥/٢/١].

قال الرازي: لأن التوبة من العباد الرجوع إلى الله تعالى بالعبادة، ومن الله الرجوع إلى العبد بالرحمة والإحسان، وأما العفو فهو التجاوز يعني عن المعاصي، فبين الله تعالى إنعامه علينا بتخفيف ما جعله ثقيلاً على من قبلنا كقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الاعراف: ١٥٧].

فتوبة الله تعالى دليل الرضا وتوفيق الله تعالى لمن تاب عليهم، فلقد أخبر سبحانه أنه تاب على النبي والمهاجرين والأنصار كرمًا منه سبحانه وفضلاً، فقال ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن الجوزي: كرر- سبحانه- ذكر التوبة، لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم، فقدم ذكر التوبة فضلاً منه، ثم أعاد ذكر التوبة. [زاد المسير لابن الجوزي ٥١٦/٣].

وقال القاسمي: اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك، مؤمنهم ومنافقهم، والمنفق لها طوعًا أو كرهًا، والمرغب فيها أو عنها والمتخلف نفاقًا أو كسلاً، وأنبأ عما لحق كلا من الوعد والوعيد، وميز الصادقين عن غيرهم ختم بفرقة منهم كانوا قد تخلفوا ميلاً للدعة وهم صادقون في إيمانهم، ثم ندموا فتابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها، ثم أنزل توبتهم في هذه الآية وصدرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبرًا لقلوبهم وتنويهًا لشانهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم، وبعثًا للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، كل على حسبه، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأنها صفة التوابين والأوابين صفة الأنبياء.

[محاسن التاويل للقاسمي ٣٢٨٥/٩]

وقال جل شانه عن أبينا آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

فتوبة الله اجتباء وتوفيق لمن تاب الله عليه وتشريف لأن الله تعالى تاب عليهم ليتوبوا ودلهم على التوبة،

وقبلهم ليقبلوا عليه ويتوبوا إليه حبًا وطمعًا في فضله جل شأنه، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وسئل بعض السلف عما ينبغي أن يقوله المذنب فقال: يقول ما قاله أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

وقال يونس عليه السلام: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقال ابن أبي نجيح: عن مجاهد أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قال الكلمات اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني، إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي، فتب علي، إنك أنت التواب الرحيم. [تفسير ابن كثير].

خامسا: أن الله تعالى يفرح بتوبة عبده، فرحًا يليق بذاته جل وعلا، فهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفرح الله تعالى بتوبة عبده، يدل على فضل التوبة وشرفها ومنزلتها، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه تهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده».

[البخاري ١١/١٠٥، ومسلم ١٧/٦٠، ٦١]

وأول شيء ننبه عليه في هذا الحديث أن المسلم يجب عليه أن يحذر من التعطيل والتمثيل، فإن كلا منهما منزل ذميم ومرتع وخيم ولا ينبغي لأحد أن يشم من نفسه ذلك الأمر الفاسد لأنه يفسد الذوق، ويحرم العبد الفهم والوعي ولا يمكنه أن يذوق طعم الإيمان، بل يعلم أن فرح الله تعالى لا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله سبحانه، وربما كان الأولى بنا طي الكلام في ذلك إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم وضعف عقولهم عن احتماله، ولكن الله جلت قدرته يسوق هذه البضاعة إلى من يعرف قدرها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

يقول ابن القيم رحمه الله: اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصه عن معرفته ومحبته وإكرامه بما لم يعط غيره، وسخر ما في سماواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته الذين- هم أهل قربه- استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسل إليه رسله، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره ومحل حكمته وموضع محبته، وخلق الجنة والنار لهم، فالخلق والأمر والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني، فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة، فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق، وخيرة خلق الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله، ولم يشعر به؛ ليسأله من العطايا والمواهب الظاهرة والباطنة، العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوبًا له، وأعده له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهدًا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده

ما يقربه إليه، ويزيده محبة وكرامة عليه وما يبعده منه ويسخطه عليه، فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب آبقًا شاردًا مائلاً عنه إلى عدوه ناسيًا لسيده، منهمكًا في موافقة عدوه وارتكب مساخط مولاه، فهو بذلك استدعى من سيده خلاف ما هو أهله، فبينما هو كذلك عرضت له فكرة فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لا بد له منه، وأن مصيره إليه وعرضه عليه، ففر إلى سيده من بلد عدوه وجدَّ في الهرب حتى وصل إلى بابه، ووضع خده على عتبة بابه وتوسد ثرى أعتابه متذللاً متضرعًا خاشعًا باكيًا آسفًا، يتملق سيده ويسترحمه ويستعطفه ويعتذر إليه قد ألقى بيده إليه واستسلم له وأعطاه قياده وألقى إليه بزمامه، فعلم سيده ما في قلبه فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه ومكان الشدة رحمة به وأبدله بالعقوبة عفوًا وبالمنع عطاء وبالمؤاخذة حلمًا، هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر، أما إذا لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبودًا، فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه، وإنما يشهده خواص المحبين.

[مدارج السالكين ١/ ٢٣٠، ٢٣٧ بتصرف]

سادسًا: أن الله تعالى دعا كل الخلق إلى التوبة فدعا إليه الذين عبدوا المسيح، ومن قال المسيح هو الله، ومن قال هو ثالث ثلاثة، ومن قال عزير ابن الله، ومن قال يد الله مغلولة، ومن قال إن الله فقير ونحن أغنياء، ومن دعا لله الصاحبة والولد، فقال لهم جميعًا: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

قال ابن كثير: وهذا من كرمه وجوده، ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه.

[تفسير ابن كثير ٢/ ٨١]

ودعا سبحانه إلى التوبة من هو أعظم محادة لله من هؤلاء وهو من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فقال الله تعالى لكليمه موسى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

وقال أيضًا: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠، ١١]، ودعا سبحانه إليها المشركين فقال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، ودعا إليها الكفار فقال جل شأنه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ودعا إليها المنافقين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

ودعا إليها من كتم ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى فقال جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وقال جل شأنه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦- ٨٩].

ودعا سبحانه إلى توبة السارق والسارقة فقال جل شأنه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٣٨، ٣٩]

ودعا إليها من أضاع الصلاة واتبع الشهوات، فقال جل شأنه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ

خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠]

ودعا إليها من يدعو مع الله إلهًا آخر ومن يقتل ومن يزني فقال: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

ودعا إليها جميع المسرفين بأي ذنب كان فقال: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

وقال جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]

فالتوبة بابها مفتوح لكل العباد لأنهم عباد الله وهو خالقهم ورازقهم والمدبر لشئونهم، فحينما يعودون إليه يقبلهم ويتجاوز عن سيائتهم وقبيح صنيعهم، وهذا يدل على شرف التوبة وفضلها لمن وعاها وأقبل بها على ربه سبحانه.

وقد قال النبي ﷺ: «لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين». [البخاري: ١٣/٤١١، ٧٤١٦، ومسلم ٢/١١٣٦]

سابعًا: يجعل الله تعالى من يخطئ ويتوب أفضل المخطئين وخيرهم

فإذا كان الخطأ يبعد العبد عن ربه، ويكون سببًا في العذاب فإن التوبة تجبر الخطأ ويكون التائب المخطئ خير التوابين، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». [أحمد في مسنده ٣/١٩٨].

فإذا علم العبد ذلك سارع إلى الله تعالى بالتوبة، وشغل نفسه بتطهير ما تدنس منه وكان حذرًا من الذنوب، حتى يكون خير الخطائين.

والحمد لله رب العالمين

تهنئة

أسرة تحرير مجلة التوحيد تتقدم بالتهنئة للأستاذ السيد عبد الفتاح بمطابع الأهرام بقليوب لترقيته إلى نائب مدير عام المطابع، كما تهنئ الأستاذ يوسف كامل لترقيته إلى وكيل إدارة. ندعو الله لهما بمزيد من الرقى والتقدم.

رئيس التحرير

قرار إشهار

رقم ٩٢٠ بتاريخ ٢٠٠٥/١٠/١٩

تشهد مديرية الشئون الاجتماعية بالغربية، الإدارة الاجتماعية بقطور أنها قد أشهرت فرع جمعية أنصار السنة المحمدية بالشين، ونطاق عملها وأنشطتها مركز قطور. وذلك طبقًا لأحكام القانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢ ولائحته التنفيذية.

التوبة وفضلها

الحلقة الثالثة

إعداد/ محمد رزق ساطور

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم: أي حكمًا، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة». [البخاري ٦/٥٩١، ومسلم ١٧/٨٢، ٨٣]

وفي هذا الحديث من الكنوز والفوائد الكثير لمن تدبره، وها نحن نذكر بعضًا منها:

الأولى: الاعتبار بما مضى في السابقين، وبمن كانوا قبلنا، فكان منهم من رضي الله عنهم وتقبل منهم، وأقال عثرتهم وأنار بصيرتهم، فكل من طلب من الله العفو، عليه أن يستقيم على أمره، ليقبل منه ويتجاوز عنه، وأن من لم يعتبر بغيره ويرجع عن غيه، كان عبرة لمن بعده، فالنبي ﷺ يربط هذه الأمة بمن سبقها على طريق التوبة والإيمان لأن دين الأنبياء واحد وهو الإسلام وحتى يعلم المسلمون أننا لا نسير في طريق التوبة وحدنا بل لقد سار في هذا الطريق كل الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم الذين صدقوا في إيمانهم، أما من بدل وغير فإننا نبرأ منه ويبرأ منه الأنبياء والمرسلون ومن صدق من أتباعهم.

والثانية: أن قساوة القلب، والبعد عن الله، والجهل واقتراف المعاصي، وفعل القبائح والسيئات لها حد ولها نهاية، من وضع لها حدًا في الدنيا بالتوبة فقد فاز، وإلا كانت النهاية في النار- عياذًا بالله منها- فهذا قاتل محترف قتل تسعة وتسعين نفسًا، وبعد ذلك يمل من كثرة هذه القبائح ويرجو رحمة ربه سبحانه ويطلب التوبة، فطريق العصيان كله ملل ونصب وشقاء وهلاك وتعب، فالمخالفات من شأنها أن تهلك القلب ولا تسعده، ماذا كان يريد هذا الرجل بعد أن قتل تسعة وتسعين نفسًا، ربما كان سعيدًا سعادة مؤقتة زائفة بذلك، وربما كان يثبت لنفسه هذه السعادة الزائفة بقتل الأنفس، ومع ذلك أحس أن ما فعله هو الدمار والشقاء والضياع والرعب والفزع والاضطراب والقلق، هذا حينما أبصر الحق وزالت عنه غشاوة الباطل فلا بد من حل للخروج من هذه الأزمات، إن ذلك لا يكون إلا بالقرب من الله تعالى والتوبة له والخضوع والذل والاستسلام والإذعان والانقياد لأمره تعالى، هذه بغية القلب التي يبحث عنها والتي إن وجدها استراح، آمن هذا الرجل بذلك، إن ما كان يعيش فيه من مال ومتع زائفة وحياة غنية باللهو والعبث والشهوة واللذة لم تشبع له نفسًا، ولم تسد له حاجة، فظل الرجل في تيه وملل حتى أحس بنور الله فتعلق به لأنه النجاة والفكاك من ظلمة العين وقساوة القلب، ولذلك لما وقف الراهب ليحول بينه وبين الله، وبينه وبين النور الذي رأى أنه نجاته، أحس أن ذلك الراهب يحول بينه وبين السعادة الحقيقية وأراد أن يرده إلى الوحل وإلى ما قاسى منه من هلاك وضياع ودمار، ولذلك قتله غير آسف على قتله لأنه بعد ما وجد الطريق رأى من يبعده عنه، فالتوبة هي العلاج والدواء وسبب السعادة، ثم فيها الاعتراف بما فعله العبد والوقوف بين يدي الله لطلب العفو والصفح، وعند ذلك تكتمل سعادة العبد؛ لأن من وجد الله فقد وجد كل شيء، ومن فقد طريق الله فَقَدَ كل شيء.

الثالثة: أن المستكثر من أي شيء يمل منه ويرغَّب عنه إلا المستكثر من الطاعات والبر والإيمان، فهذا القاتل مل من القتل على كثرته لأنه لم يشف له غليلاً، ولم يرح له قلبًا، فلا يطلب الزيادة على ما هو

عليه إلا المؤمن، ولذلك على العبد أن ينظر هل يزداد عند الله خيرًا أم إثمًا، فلا يستكثر إلا من القربات، فلو أنك نظرت إلى حال هذا القاتل، الذي بدأ طريقه وحياته بقتل الناس والاعتداء عليهم، وإذا به يفعل كل ذلك ولم يكتشف أمره، ولم يفضح، ولم يستطع أحد أن يقتله قبل أن يتمكن من كل هذا العدد، مع كل هذا الطغيان والتمرد والجبروت علم أن القتل لم يقدم له شيئًا مما قتل من أجله، فعاد نادمًا ليستكثر من الزاد الحق الذي انتكس عنه من قبل، فلابد من الندم على الإكثار في الفساد ثم العمل بالطاعات والإكثار منها فهي السبيل لمن فرط وقصر في حق الله.

الرابعة: قصور عقول بني آدم، وعدم إدراكها لكثير من مصالحها وأنها عاجزة ما لم ترتبط بالشرع، فلو أن إنسانًا فكر بعقله، في شأن قاتل محترف، ومجرم سفاك للدماء قتل تسعة وتسعين نفسًا، هل يهتدي للتوبة؟ يشاء العليم الخبير سبحانه أن يختم لهذا العبد خاتمة طيبة، فلا يمكن منه أحدًا ليقتله قبل أن يتوب، ولا تدركه منيته حتى يسأل أهل العلم، ويعزم الرجوع والعودة، ويقبل على الله، فيقبل منه توبته، وهذا من رحمة الله بالتائبين، فلابد للعبد أن يشغل نفسه بالله، ويرجع إليه ليوفقه، ولا يستعظم ذنوبه، فالله وعد بالغفران، فلابد من الرجوع السريع، والله الموفق.

الخامسة: أن التائب حين يريد التوبة ويطلبها عليه أن يسأل عن حكم أخطائه ومعاصيه وكيف يتحلل منها حتى تكون التوبة نصوحًا، ولا ينبغي أن يرتجل في توبته فيعتمد على فكره ورأيه وحده، بل عليه أن يسأل ويتعلم ليعمل عملاً لا يتوب منه بعد ذلك، وإذا سأل يتحرى ويبحث عن عالم من علماء الآخرة، ليطمئن على توبته، ومن هنا بدأ هذا الرجل يسأل عن أعلم أهل الأرض، ولم يكتف بالسؤال عن أي عالم، فهو يريد توبة تخلصه من كل ذنوبه فبحث عن خلاصة العلماء، وحينما لم يجد بغيته في المرة الأولى لم ييأس وظل يسأل عن أعلم أهل الأرض حتى وفقه الله إلى عالم فتاب على يديه، وهذا الرجل كان منصفًا، فمع أنه قابل عابدًا جاهلاً إلا أنه لم يعمم الحكم على غيره- فإن بعض الناس حين يتعامل مع إنسان فيخدعه فيقول إنهم جميعًا مثله- أو يقول: كلهم هكذا، بل أدرك هذا الرجل أن الناس فيهم الصادق والمدعي، فجعله ذلك يعود فيسأل عن أعلم أهل الأرض ووجده، وهذا من بركات الإنصاف وعدم إلقاء الأحكام جزافًا.

السادسة: أن العلم يمنع صاحبه القتل في الدنيا قبل الآخرة؛ لأنه ينير البصيرة، فيميز العالم بين من يسألونه، خاصة أن العلماء يرد عليهم خيار أهل الأرض، وكذا أفسد أهل الأرض، ولذلك فإن الجهل قتل صاحبه، فحينما أفتى الراهب هذا الرجل بأنه لا توبة له، أفتى بجهل، وكانت هذه الفتيا سببًا في قتله، وأن العالم حين أفتى نفس الرجل ولكن بعلم انقاد له وأذعن ولم يخالفه، ولم يعترض عليه ونفذ كل ما أمره به، وهذا من بركة العلم، وكذلك فإن العلم يجعل صاحبه يستوعب الجاهل والمجرم والقاتل فيؤلف قلبه، ويداوي جرحه، ولا يتأفف من رائحة المعاصي التي تفوح منه، فإن الطبيب إذا تأفف من مريضه فمن يداويه؟ ومن يخرج القيح والصديد من جروحه ويصبر عليه ويتابعه؟ ثم إن الطبيب مهما كانت حالة مريضه فإنه ينبغي ألا يصارح المريض إلى هذا الحد، فمثلاً لا يقول له: اذهب فسوف تموت الآن، أو لا أمل في شفائك، أو انطلق حتى لا تعدي الناس فأنت هالك لا محالة، بل إن الطبيب الواعي هو الذي يفسح لمريضه في الأجل ويطمئنه ويعطيه الدواء المناسب، ثم الأمل في وجه الله لا ينقطع، ولذلك فإن أهل العلم هم الأطباء والممرضون والخدم للخلق فلا ينبغي أن يقنطوا الناس في رحمة الله، بل التوبة مفتوحة حتى الغرغرة.

السابعة: أن العالم هو الذي يحبب الناس في الله، ويرغبهم في رحمته، ويبين لهم سعة حلمه وعفوه وكرمه لمن تاب وأناب، ولذلك قال العالم للرجل: «ومن يحول بينك وبينها»، فالعلاقة بين العبد وربه موصولة دائمة متينة، فلو أن العبد قطعها وانغمس في شهواته وانطوى على ملذاته، وذاب في رغباته، فإن الله تعالى لا يقطعها ولا ييأس من توبة عبده فهو الذي يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، والعالم مطالب أن يدل الناس على الله، ثم بعد ذلك علاقة العبد بربه لا يطلع عليها إلا الله، فإن شاء قبل منه وغفر له.

الثامنة: أن العالم لا يقف عند حد الفتوى الجافة، ولكن عليه أن يوجد للسائل مخرجًا كريمًا يساعد فيه العاصي على أن يتجاوز المحنة، فلقد كان من الممكن أن يكتفي العالم بأن يقول لذلك الرجل: نعم باب التوبة مفتوح فتب إلى الله، ويسكت عند هذا الحد، ولكن العالم لم يكتف بذلك بل إنه دله كيف يعمل؟ وكيف يتصرف؟ وكيف يتوب، ودله على قوم صالحين يعبد الله معهم في أرض كذا، وسماها

للرجل؛ لأن صاحب المعصية مهما صحت توبته وقبلت في حاجة إلى من يعلمه ويوجهه، ومن هذا فإن العالم ينبغي أن يجيب السائل بأكثر من السؤال، أو بما وراء السؤال ليزيل عنه كل إشكال.

التاسعة: البحث عن هذا الصنف من العلماء، مع إخلاص النية في سؤال أهل الحق، فلو أن الإنسان بحث عن أهل العلم، ولم يوفق لهم في البداية فحق على الله تعالى أن يوفقه ويدله على بغيته، فالله تعالى وفق العاصي القاتل إلى أهل العلم ومقابلتهم والتعلم منهم حين صدقت نيته، وكذلك الحذر من علماء السوء الذين يفتون بغير علم.

العاشرة: فضل الصحبة الطيبة، واختيار الصاحب الذي يذكرك بالله ولا يحرمك من نصيحته، ويحافظ عليك حتى من شر نفسك التي بين جنبيك، ولذلك، كان من بركة هذه الصحبة الطيبة أن غفر الله لهذا الرجل بنية اقترابه من الصحبة الصالحة، فإن كان من يقترب يصنع معه ذلك، فماذا بالصاحب الخليل والرفيق القريب.

الحادية عشرة: عاقبة الصحبة السيئة لقرناء السوء، كادت تختم لهذا الرجل بخاتمة سيئة، فلقد أماتت قلبه، ودفعته للمنكر، وزينت له القتل، وشجعته عليه، لولا أن الله سلم.

الثانية عشر: أن الشيطان أبعد عن الجماعة عنه عن الواحد، وأن من أراد التوبة لابد أن يلتحق بصحبة طيبة، ولا يترك نفسه وحده، حتى لا يقع في مصايد الشيطان ومخالبه ووساوسه التي تفسد على العبد علاقته بالله تعالى.

الثالثة عشر: أن الموت يأتي بغتة، وأن العبد إذا علم أنه مهدد بالموت صحح نيته، وعقيدته وعبادته فيلقى الله تعالى على نية حسنة، فمن كان يظن أن يموت هذا القاتل وهو لا يزال بصحته وقوته، ولكن العبد لا يدري متى يموت فينبغي له أن يستعد؛ لأن الموت يأتي بغتة، وعلمه بذلك يدفعه إلى سرعة التوبة والإنابة والتذلل والندم، حتى يعطيه الله فوق نيته الطيبة بغير حساب كرمًا منه تعالى وإحسانًا.

الرابعة عشر: لابد أن يستحي الإنسان من عمله، فلسوف يعرض على ربه، ويظهر أمام الملائكة، ولعله يختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فلابد من الإخلاص؛ لأن الإخلاص هو الخلاص، والاستحياء من العمل، أن يطلع الخلق على فضائحه، وملائكة الرحمة تلتمس المعذرة لمن تاب وأناب، وملائكة العذاب تطلبه لمن تكبر وظلم واستحق العذاب والعقاب.

الخامسة عشر: الانسلاخ عن مكان المعصية من أنفع الأدوية لعلاج اقتراف المعاصي؛ لأن وجود العبد في نفس المكان الذي تعود فيه على الفحش والمخالفات يجعله يحن للمعاصي، فإن هدى الله أهل المكان الأول جازت العودة إليهم؛ لأنهم سيساعدونه على الاستقامة، أما إذا خلا عن ناصح أمين، فالانسلاخ أولى والبعد أنفع.

السادسة عشر: إذا أحب الله تعالى عبدًا قبل منه توبته، ووفقه إليها، ومن ثم فإذا علم العبد ذلك حرص عليها لينال هذا الحب والرضوان حتى إذا ما قبض، لقي الله تعالى وهو عنه راض، ولما توقف الحكم على هذا الرجل على المسافة بين الأرض الطيبة أو الأرض السوء، طوى الله تعالى الأرض وقرب التائب من الأرض الطيبة ليكون من أهلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

السابعة عشر: أن الاختلاف ثابت وواقع حتى بين الملائكة، ولكن أدب الاختلاف يقتضي أن يتحاكم كل من الفريقين إلى أهل الحق ليفصلوا بينهم بما أنزل الله، ثم عليهم أن يعظموا حكم الله، ويحكموا أفضل الموجودين حتى يهديهم الله تعالى إلى سواء السبيل.

الثامنة عشر: فضل وشرف ابن آدم وأنه حين يستقيم على أمر الله فإنه يكون أشرف من الملائكة، بل إن الملك الذي نزل ليحكم بين الملائكة تصور في صورة آدمي وهذا يدل على شرف الصورة، فكيف بالأصل إذا استقام وأناب، والحمد لله رب العالمين.

إنا لله وإنا إليه راجعون

ودّعت أنصار السنة المحمدية واحدًا من أبنائها الدعاة؛ وهو الشيخ/ مسعد كامل حسن، وذلك يوم الأحد ١٦ ذو القعدة، وقد عمل بالدعوة إلى الله أكثر من خمس عشرة سنة على منابر الجماعة فرع جالية وقلابشو - ببلقاس، كما عمل في مجال التحقيق والنشر.

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا ومنه صالح العمل، وأن يسكنه فسيح جناته..

وقفات وفوائد في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه

إعداد
محمد رزق ساطور

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

لقد زكى الله تعالى الصادقين في توبتهم، ودعا المؤمنين إلى أن يكونوا معهم.

قال جل ذكره: ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة:١٨،١٩].

ولقد أخبر كعب بن مالك رضي الله عنه عن قصة هؤلاء الثلاثة وتخلفهم عن رسول الله ﷺ فقال: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَد تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ. وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا. كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الغَزَاةِ. وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الغَزَاةِ وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ- يُرِيدُ الدِّيوَانَ- قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلاَّ ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ. وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا. فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا. ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا. فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ- بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِن الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ. فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ كَعْبُ بْنُ

مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي. فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ- وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ. فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ»، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ؟» أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لاَ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ». فَقُمْتُ. وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المُخَلَّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ. فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي. ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ. فَقُلْتُ مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي. وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، فَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ. فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي. حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ المَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ: حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ البَلاَءِ. فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا. حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ. بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ. فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ. قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ». قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ. فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا. فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ: قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ.

قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ. وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِن الفَرَسِ. فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ. وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ. وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ. قَالَ كَعْبٌ حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِن المُهَاجِرِينَ غيرُه، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِن السُّرُورِ: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ». قَالَ قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ. فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِن المُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ- مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُذْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة:١١٧] إِلَى قَوْلِهِ-: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ- بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلَامِ- أَعْظَمَ، فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِ رسول اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ عز وجل: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ [التوبة:٩٥] إِلَى قَوْلِهِ-: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦] قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَقَبِلَ مِنْهُ. أ. هـ

وفي هذا الحديث من الفوائد الكثيرة؛ نذكر منها:

الأولى: جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، وما ترتب على هذا التقصير من هجر ولوم وتأنيب وانعكاس ذلك على نفسه حتى ضاقت عليه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وفي ذكر هذا التفريط والتقصير نصيحة للمسلمين حتى يقبح لهم المعصية والمخالفة، ليتأسوا بذلك فيهجروا المعاصي ويتركوا الذنوب لما يترتب عليها من آثار سيئة وعاقبة وخيمة، فالعاقل من اعتبر بغيره، ثم إن كعبًا رضي الله عنه حين يعطي خلاصة هذه التجربة إنما يريد أن ينصح بها، ليتجنب من يبلغه الحديث أسباب ما وقع فيه، وفيه الحض على الإسراع بفعل الخير وعدم التكاسل عنه.

الثانية: جواز إخبار الرجل عن جوانب الخير في نفسه إن لم يكن فخرًا أو كبرًا والتحدث بنعمة الله تعالى التي مَنَّ بها على العبد، فلقد أكرم الله تعالى هؤلاء الثلاثة ودعا المؤمنين إلى أن يكونوا معهم، فإخبار كعب عن هذه التوبة وإتمام نعمة الله عليهم فرحةً وتحدثًا بنعمة الله، كل هذا جائز، فالله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وإن كانت تزكية النفس منهيًا عنها فإنها في هذا الموطن جائزة كما تجوز حين يريد الرجل أن يلفت النظر إلى نعم الله التي أنعم بها عليه، فلقد قال الله تعالى عن يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

الثالثة: جواز تعزير المتخلف عن الجهاد مع ولي أمر المسلمين حتى يشعر بألم المخالفة وينبغي لولي الأمر أن يذكره ويعنفه ويوبخه.. إلى غير ذلك من أنواع التعزير، حتى يأخذ بيده إلى الله تعالى، لأن إهمال المسلمين المقصرين وعدم السؤال عنهم يفسدهم ويعرضهم للزلل والزيغ، ولذلك ذكر النبي ﷺ كعبًا وقال: «ما فعل كعب؟» وأهمل المنافقين ولم يسأل عنهم لأنهم رجس، نعوذ بالله من الخذلان.

الرابعة: فضل بيعة العقبة والتواثق على

الإسلام حتى إن كعبًا كان لا يراها دون مشهد بدر، وذلك لأن المسلمين في بادئ الأمر لاقوا من الاضطهاد والتعذيب ما جعلهم يخفون إسلامهم، ثم في ليلة العقبة يذهب المسلمون الجدد ليبايعوا ويعاهدوا الله ورسوله على الإسلام وهم يخافون أن يطلع عليهم أهل الكفر، فهذا يبين فضل ليلة العقبة وإن كانت بدر هي أشرف مشاهد رسول الله ﷺ ولقد سمى الله يوم بدر يوم الفرقان.

الخامسة: عدم الاكتفاء بسرد ما حدث، بل التحدث بسنة النبي ﷺ والإخبار عنها قدر المستطاع، ففي أثناء حديث كعب يقول: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها». ثم يذكر أيضًا في حديثه: «وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس». ثم يذكر أيضًا: «وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر». وكذلك جاء في بعض الروايات: «وكان لا يقدم من سفر إلا نهارًا في الضحى». وهذا يدل على أن المسلم حتى وهو يسرد واقعة حديث له لابد ألا ينسى هدي النبي ﷺ ولا يغيب عنه هذا الهدي الكريم، ثم الحرص على الفائدة، وبذل النصيحة والمعروف ولو لم يطلب منه ذلك، وهذه صفة في النبي ﷺ وأصحابه، ولذلك كان النبي ﷺ إذا سئل في مسألة أجاب وربما يزيد لحاجة السائل كالذي سأله عن الوضوء بماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته». [رواه أحمد ١/٢٠١، ٢٠٢]

السادسة: الحذر من الجواسيس، وستر بعض الأمور عن الرعية للمصلحة، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا أراد غزوة ورّى بغيرها، وهذه حكمة عالية فالحذر شيء مطلوب، وكانت هذه عادته ﷺ أن يعمي على الأعداء ليفوت عليهم فرصة الانقضاض على الإسلام والمسلمين، كما حدث ذلك في هجرته ﷺ.

السابعة: لم يكن للجيش ديوان يجمعهم في عهد النبي ﷺ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من دون الديوان ولذلك كان الرجل إذا تخلف ظن أن ذلك سيخفى على المسلمين، ما لم ينزل بذلك وحي من الله تعالى.

الثامنة: الندم على ما فات من تقصير وأن هذا الندم يدفع الهمم للطاعة لتدارك ما فات، ولذلك قال كعب: «فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت».

التاسعة: أن المتخلف عن رسول الله ﷺ إما مغموص عليه النفاق، أو رجل من أهل الأعذار، أو من خلفه رسول الله ﷺ واستعمله على المدينة أو خلفه لمصلحة.

العاشرة: الرد والذب عن عرض المسلمين، فلقد رد معاذ على من طعن في كعب بقوله: حبسه برداه والنظر في عطفيه، فقال له: بئس ما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيرًا. ولو أن كل طاعن وجد من يقوم طعنه، لما تفشى القيل والقال، ولنجىَ الله تعالى أعراض المسلمين من الخوض فيها.

الحادية عشرة: الستر على صاحب الخطأ رجاء إصلاحه وعدم فضح أمره، فحينما رَدَّ معاذ عن كعب وَرَدَ ذكر اسمه، أما الذي قال: «حبسه برداه والنظر في عطفيه فقال عنه: فقال رجل من بني سلمة» ولم يذكر اسمه، وكذا حينما صدق كعب مع رسول الله ﷺ قال: ثار رجال من بني سلمة خلفه يؤنبونه، ولعل العلة في عدم ذكر أسماء هؤلاء وغيرهم حتى لا يشتهر عنهم المخالفة، ولذلك كان النبي ﷺ يقول في نصيحته: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. ولا يصرح بأسمائهم رجاء إصلاحهم وتجنبًا لفضح أمرهم.

الثانية عشرة: عظم أمر المعصية وقبحها، قال ابن حجر: وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله، ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حرامًا ولا سفكوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟

الثالثة عشرة: أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ به الضعيف في الدين، فانظر إلى عدد المتخلفين عن رسول الله ﷺ ولم يمتنع هو وأصحابه عن كلام أحد منهم إلا هؤلاء الثلاثة، ولما كان إيمانهم بهذه المكانة صبروا وتحملوا وخرجوا من هذه المحنة أقوى وأخشع وأتقى لله تعالى.

الرابعة عشرة: إجراء الأحكام على الظاهر ووكول السرائر إلى الله تعالى، فمع أنه ﷺ يعلم كذب المنافقين إلا أنه قَبِلَ منهم علانيتهم ووكل السرائر إلى الله عز وجل، لأننا لم نؤمر أن نشق عن صدور الناس.

والله أعلم.

الصحابة هم خير القرون

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله ومن والاه، وبعد:

عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة سنين خوادع يتهم فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن ويكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب ويتكلم في أمر الناس الرويبضة». قيل: يا رسول الله، وما الرويبضة؟ قال: «السفيه ينطق في أمر العامة».

[أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى]

وفي رواية: قيل: يا رسول الله، وما الرويبضة، قال: «من لا يؤبه له». وفي رواية: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه يتكلم في أمر العامة». وفي رواية: قالوا: يا رسول الله، وما الرويبضة؟ قال: «الفويسق يتكلم في أمر العامة».

فقد ابتلينا ببعض التافهين الذين لا يؤبه لهم وليس لهم وزن ولا قيمة ولا ذكر، أرادوا أن يلفتوا النظر إليهم فتكلموا في الدين وطعنوا في أصحاب النبي الأمين ليدلوا على جهلهم وإفلاسهم، وليتكلم عنهم الناس.

ولولا تأثر العامة بمثل هذا الضلال الذي أذاعه ذلك التافه النكرة ما رددنا على ذلك، إذ أنه إفك قديم تناقله أهل الباطل ليطعنوا في أصحاب نبينا ﷺ لذا نريد أن ندفع عدوان الظالمين المعتدين وكشف زيغ المتعالين الجاهلين وتبرئة الصحابة المتقين من أقلام الحاقدين فغالبهم ناقلون للطعن والبهتان من الخائضين في هذا المقام الكبير بالجهل والهوى وقلب الحقائق والاعتماد في ذلك على الآثار الضعيفة والأخبار الواهية والمتروكة التي يشيعها الرافضة ودعياتهم وغيرهم من رجالات الفكر المنحرفين وزعماء الفساد الملحدين.

وقد أنكر الإمام أحمد - رحمه الله - على جمع الأخبار التي فيها طعن على بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وغضب لذلك غضبًا شديدًا وقال: «لو كان هذا في أفناء الناس - أي أحادهم - لأنكرته، فكيف في أصحاب رسول الله ﷺ، وقال: أنا لم أكتب هذه الأحاديث». وقال المروذي: قلت لأبي عبد الله: فمن عرفته يكتب هذه الأحاديث الرديئة ويجمعها أيهجر؟ قال: نعم يستأهل صاحب هذه الأحاديث الرديئة الرجم. [رواه الخلال في السنة ٥٠١/٣ بسند صحيح]

نهي الرسول ﷺ عن سب الصحابة

قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه». [متفق عليه]. وقال الإمام محمد بن صُبيح بن السماك: «علمت أن اليهود لا يسبون أصحاب موسى - عليه السلام - وأن النصارى لا يسبون أصحاب عيسى صلى الله عليه وسلم، فما بالك يا جاهل سببت أصحاب محمد ﷺ وقد علمت من أين أُتيت، لم يشغلك ذنبك، أما لو شغلك ذنبك لخفت ربك، لقد كان في ذنبك شغل عن المسيئين فكيف لم يشغلك عن المحسنين، أما لو كنت من المحسنين لما تناولت المسيئين ولرجوت لهم أرحم الراحمين، ولكنك من المسيئين، فمن ثم عبت الشهداء والصالحين، أيها العائب لأصحاب محمد ﷺ، لو نمت ليلك وأفطرت نهارك لكان خيرًا لك من قيام ليلك وصوم نهارك مع سوء قولك في أصحاب محمد ﷺ، فويحك ! لا قيام ليل ولا صوم نهار وأنت

تتناول الأخيار، فأبشر بما ليس فيه البشرى إن لم تتب مما تسمع وترى، ويحك ! هؤلاء شرفوا في أحد وهؤلاء جاء العفو من الله تعالى فيهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فما تقول فيمن عفا الله عنهم؟ وبم تحتج يا جاهل إلا بالجاهلين، شر الخلف خلف شتم السلف، والله لواحد من السلف خير من ألف من الخلف، وقد اتفق أهل العلم على أنهم خير الناس بعد الأنبياء، فقد جاء في الصحيحين عن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني». وأفضل الصحابة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، وأدلة هذا كثيرة وعامة أهل العلم على هذا، وقد جعل الله جل وعلا بقاء الصحابة أمنة للأمة، فإذا ذهب قرنهم وانقرض جيلهم حلت بمن بعدهم الفتن وظهرت البدع وفشا الجور والفساد، ففي صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا فخرج علينا فقال: «مازلتم ههنا؟» قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: «أحسنتم أو أصبتم». قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء فقال: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون». قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب الصحابة خير قلوب العباد فجعلهم الله وزراء نبيه يقاتلون على دينه».

[رواه الإمام أحمد وسنده حسن]

الحث على التأسي بأصحاب الرسول ﷺ

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا وأقومها هديًا وأحسنها حالاً، قومًا اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم». [رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله]

الصحابة اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه ﷺ

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وقول عبد الله بن مسعود: كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، كلام جامع بين فيه حسن قصدهم ونياتهم ببر القلوب، وبين فيه كمال المعرفة ودقتها بعمق العلم، وبين فيه تيسير ذلك عليهم وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف». [منهاج السنة ٢/٧٩]

وقال الإمام ابن أبي حاتم - رحمه الله -: «فأما أصحاب رسول الله ﷺ، فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل وعرفوا التفسير والتأويل وهم الذين اختارهم الله - عز وجل - لصحبة نبيه ﷺ ونصرته وإقامة دينه وإظهار حقه، فرضيهم له صحابة وجعلهم لنا أعلامًا وقدوة فحفظوا عنه ﷺ ما بلَّغهم عن الله عز وجل وما سن وما شرع وحكم وقضى وندب وأمر ونهى وأدب، ووعوه وأتقنوه ففقهوا في الدين وعلموا أمر الله ونهيه ومراده بمعاينة رسول الله ﷺ ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله وتلقفهم منه واستنباطهم عنه، فشرفهم الله عز وجل بما مَنَّ عليهم وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة فنفى عنهم الشك والكذب والغلط والريبة والغمز وسماهم عدول الأمة، فقال جل ذكره في محكم كتابه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ففسر النبي ﷺ عن الله عز وجل قوله: «وسطًا» قال: «عدلاً»، فكانوا عدول الأمة وأئمة الهدى وحجج الدين ونقلة الكتاب والسنة، وندب الله عز وجل إلى التمسك بهديهم والجري على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والاقتداء بهم، فقال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥].

وقال الإمام أبو نعيم الأصبهاني - رحمه الله - عن الصحابة: «سمحت نفوسهم - رضي الله عنهم - بالنفس والمال والولد والأهل والدار، ففارقوا الأوطان وهاجروا الإخوان وقتلوا الآباء والإخوان وبذلوا النفوس صابرين، وأنفقوا الأموال محتسبين وناصبوا من ناوأهم متوكلين، فآثروا رضاء الله على الغناء، والذل على العز، والغربة على الوطن، هم المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون حقًا، ثم إخوانهم من الأنصار أهل المواساة».

قال الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩]، ثم وعدهم بذلك المغفرة والأجر العظيم، وقال الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقال عز وجل: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال عز وجل: ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨]، وقال عز وجل: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال عز وجل: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨]، ثم إن الله عز وجل أثنى على من جاء من بعد الصحابة فاستغفر للصحابة وسأل مولاه الكريم ألا يجعل في قلبه غلاً لهم، فأثنى الله عز وجل عليه بأحسن ما يكون من الثناء فقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

دلائل فضائل للصحابة الكرام

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤٠٦/٣): «وقد اتفق عامة أهل السنة من العلماء والعباد والأمراء والأجناد على أن يقولوا: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم، ودلائل ذلك وفضائل الصحابة كثيرة ليس هذا موضعها، وكذلك نؤمن بالإمساك عما شجر بينهم، ونعلم أن بعض المنقول في ذلك كذب، وهم كانوا مجتهدين إما مصيبين لهم أجران، أو مثابين على عملهم الصالح مغفور لهم خطؤهم وما كان لهم من السيئات وقد سبق لهم من الله الحسنى فإن الله يغفرها لهم إما بتوبة أو بحسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو غير ذلك فإنهم خير قرون هذه الأمة كما قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم».

وقال: فمن سوى بين قتال الصحابة الذين اقتتلوا بالجمل وصفين وبين قتال ذي الخويصرة التميمي وأمثاله من الخوارج المارقين والحرورية المعتدين كان قولهم من جنس أقوال أهل الجهل والظلم المبين ولزم صاحب هذا القول أن يصير من جنس الرافضة والمعتزلة الذين يكفرون أو يفسقون المتقاتلين بالجمل وصفين كما يقال مثل ذلك في الخوارج المارقين، فقد اختلف السلف والأئمة في كفرهم على قولين مشهورين مع اتفاقهم على الثناء على الصحابة المقتتلين بالجمل وصفين والإمساك عما شجر بينهم فكيف نسبة هذا بهذا، وأيضًا فالنبي ﷺ أمر بقتال الخوارج قبل أن يقاتلوا، وأما أهل البغي فإن الله تعالى قال فيهم: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، فلم يأمر بقتال الباغية ابتداءً فالاقتتال ابتداء ليس مأمورًا به، ولكن إذا اقتتلوا أمر بالإصلاح بينهم، ثم إن بغت الواحدة قوتلت، ولهذا قال من قال من الفقهاء: إن البغاة لا يُبْتَدَأُون بقتالهم حتى يقاتلوا، وأما الخوارج فقد قال النبي ﷺ فيهم: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة». وقال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد».

[مجموع الفتاوى ٥٦/٣٥]

الدماء التي جرت بين الصحابة لا تدخل في هذا الوعيد

قال النووي: وأما كون القاتل والمقتول من أهل النار فمحمول على من لا تأويل له ويكون قتالهما عصبية ونحوها، ثم كونه في النار فمعناه أنه مستحق لها، وقد يجازى بذلك وقد يعفو الله تعالى عنه، هذا مذهب أهل الحق وعلى هذا يتأول كل ما جاء من نظائره، واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة ليست بداخلة في هذا الوعيد، ومذهب أهل السنة إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم وتأويل قتالهم وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغ فوجب عليه قتاله ليرجع إلى أمر الله وكان بعضهم مصيبًا وبعضهم مخطئًا معذورًا في الخطأ لأنه مجتهد، والمجتهد إذا

أخطأ لا إثم عليه، وكان علي رضي الله عنه هو المحق المصيب في تلك الحرب، هذا مذهب أهل السنة، وكانت القضايا مشتبهة حتى أن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا. [شرح سنن ابن ماجه ١/٢٨٥]

ويقول الإمام الذهبي رحمه الله في السير (١/٩٢، ٩٣): «كما تقرر الكف عن كثير مما شجر بينهم، وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف وبعضه كذب، فينبغي طيه وإخفاؤه بل إعدامه لتصفو القلوب، وتتوفر على حب الصحابة والترضّي عنهم، وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء». إلى أن قال: «فأما ما نقله أهل البدع في كتبهم من ذلك فلا نعرج عليه، ولا كرامة فأكثره باطل وكذب وافتراء، وفضيلة الصحبة ولو للحظة، لا يوازيها عملٌ ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بالقياس، وقد أخرج ابن عساكر في تاريخه (٥٩/١٤١) في ترجمة معاوية رضي الله عنه من طريق ابن منده ثم من طريق أبي القاسم ابن أخي أبي زرعة قال: جاء رجل إلى عمي فقال له: إني أبغض معاوية، فقال له: لم ؟ قال: لأنه قاتل عليًا بغير حق، فقال له أبو زرعة: رب معاوية رب رحيم وخصم معاوية خصم كريم، فما دخولك بينهما؟

وجوب حبهم والترحم عليهم

وقال الآجري رحمه الله في كتاب الشريعة (٥/٢٤٨٥، ٢٤٩١) باب ذكر الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، ورحمة الله عليهم أجمعين: ينبغي لمن تدبر ما رسمنا من فضائل أصحاب رسول الله ﷺ وفضائل أهل بيته رضي الله عنهم أجمعين، أن يحبهم ويترحم عليهم ويستغفر لهم، ويتوسل إلى الله الكريم - أي بالدعاء والترحم والاستغفار والترضي - ويشكر الله العظيم إذ وفقه لهذا، ولا يذكر ما شجر بينهم، ولا ينقر عنه ولا يبحث، فإن عارضنا جاهل مفتون قد خطي به عن طريق الرشاد فقال: لم قاتل فلان لفلان، ولم قتل فلان لفلان وفلان ؟ قيل له: ما بنا وبك إلى ذكر هذا حاجة تنفعنا ولا تضرنا إلى علمها. فإن قال قائل: ولم ؟ قيل: لأنها فتن شاهدها الصحابة رضي الله عنهم، فكانوا فيها على حسب ما أراهم العلم بها، وكانوا أعلم بتأويلها من غيرهم، وكانوا أهدى سبيلاً ممن جاء بعدهم، لأنهم أهل الجنة، عليهم نزل القرآن، وشاهدوا الرسول ﷺ، وجاهدوا معه، وشهد لهم الله عز وجل بالرضوان والمغفرة والأجر العظيم، وشهد لهم الرسول ﷺ أنهم خير القرون، فكانوا بالله عز وجل أعرف وبرسوله ﷺ وبالقرآن وبالسنة، ومنهم يؤخذ العلم، وفي قولهم نعيش وبأحكامهم نحكم، وبأدبهم نتأدب، ولهم نتبع، وبهذا أمرنا، فإن قال قائل: وإيش الذي يضرنا من معرفتنا لما جرى بينهم والبحث عنه؟ قيل له: لا شك فيه؛ وذلك أن عقول القوم كانت أكبر من عقولنا، وعقولنا أنقص بكثير، ولا نأمن أن نبحث عما شجر بينهم فنزل عن طريق الحق ونتخلف عما أمرنا فيهم، فإن قال قائل: وبم أمرنا فيهم ؟ قيل: أمرنا بالاستغفار لهم والترحم عليهم والمحبة لهم والاتباع لهم، دل على ذلك الكتاب والسنة وقول أئمة المسلمين، وما بنا حاجة إلى ذكر ما جرى بينهم، قد صحبوا الرسول ﷺ، وصاهرهم، وصاهروه، فبالصحبة له يغفر الله الكريم لهم، وقد ضمن الله عز وجل لهم في كتابه ألا يخزي منهم واحدًا، وقد ذكر لنا الله تعالى في كتابه أن وصفهم في التوراة والإنجيل، فوصفهم بأجمل الوصف، ونعتهم بأحسن النعت، وأخبرنا مولانا الكريم أنه قد تاب عليهم، وإذا تاب عليهم لم يعذب واحدًا منهم أبدًا، رضي الله عنهم ورضوا عنه: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وجوب الانشغال بما فرضه الله عليك

فإن قال قائل: إنما مرادي من ذلك لأن أكون عالمًا بما جرى بينهم، فأكون لم يذهب عليَّ ما كانوا فيه لأني أحب ذلك ولا أجهله، قيل له: أنت طالب فتنة، لأنك تبحث عما يضرك ولا ينفعك، ولو اشتغلت بإصلاح ما لله عز وجل عليك فيما تعبدك به من أداء فرائضه واجتناب محارمه كان أولى بك، وقيل له: ولا سيما في زماننا هذا مع قبح ما قد ظهر فيه من الأهواء الضالة». وقيل له: اشتغالك بمطعمك وملبسك من أين ؟ هو أولى بك، وتمسكك بدرهمك من أين هو؟ وفيم تنفقه؟ أولى بك. وقيل: لا نأمن أن تكون بتنقيرك وبحثك عما شجر بين القوم إلى أن يميل قلبك فتهوى ما يصلح لك أن تهواه، ويلعب بك الشيطان فتسب وتبغض من أمرك الله بمحبته والاستغفار له وباتباعه، فتزل عن طريق الحق، وتسلك طريق الباطل، فإن قال: فاذكر لنا من الكتاب والسنة وعمن سلف من علماء المسلمين ما يدل على ما قلت، لنرد نفوسنا عما تهواه من البحث عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم.

وللحديث بقية إن شاء الله.

الصحابة هم خير القرون

• الحلقة الثانية •

إعداد

محمد رزق ساطور

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله ومن والاه، وبعد:

فقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية أن أهل السنة والجماعة يتبرؤون من طريقة الروافض والشيعة الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب والخوارج الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، وأنهم يمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية منها ما هو كذب ومنها ما هو قد زيد فيه ونقص وغُيِّرَ عن وجهه، والصحيح منها هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك يعتقدون أن كل أحد من الصحابة ليس معصومًا عن كبائر الإثم وصغائره بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما صدر منهم إن صدر، حتى أنهم يُغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، ولهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وكلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ، وقد ثبت في قوله إنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم، وبالجملة فكل من شهد له منهم رسول الله ﷺ بالجنة شهدنا له ولا نشهد لأحد غيرهم، بل نرجو للمحسن ونخاف على المسيء ونكل علم الخلق إلى خالقه.

فلا تغتر بزخارف المبطلين وانتحالهم وآراء المتكلمين، إن الرشد والهدى والفوز والرضا فيما جاء من عند الله ورسوله لا فيما أحدثه المحدثون وأتى به المتنطعون من آرائهم المضمحلة وعقولهم الفاسدة.

فالصديقة بنت الصديق التي قال فيها النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن حبان والترمذي وابن ماجه وأحمد]. وقد برأها الله سبحانه في كتابه، وهي زوجته في الدنيا والآخرة، فمن قذفها بما برأها الله منه فقد كفر بالله العظيم وكذب بكتابه الحكيم. [الدر المنثور ١٦٨/٦]

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن زيد في قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]، «قال: نزلت في عائشة رضي الله عنها حين رماها المنافق بالبهتان والفرية فبرأها الله من ذلك وكان عبد الله بن أبي هو الخبيث فكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون لها، وكان رسول الله ﷺ طيبًا وكان أولى أن يكون له الطيبة وكانت عائشة رضي الله عنها الطيبة فكانت أولى أن يكون لها الطيب». [أخرجه الطبراني في معجمه في الكبير]، وأخرج ابن مردويه والطبراني وأبو يعلى في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد نزل عذري من السماء ولقد خلقت طيبة وعند طيب ولقد وعدت مغفرة وأجرًا عظيمًا.

وعن ذكوان حاجب عائشة رضي الله عنها قال: دخل ابن عباس رضي الله عنهما على عائشة رضي الله عنها فقال: أبشري ما بينك وبين أن تلقي محمدًا ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنت أحب نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ ولم يكن يحب رسول الله ﷺ إلا طيبًا، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأنزل الله أن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٤٣]، وكان ذلك بسببك، وما أنزل الله تعالى لهذه الأمة من الرخصة، وأنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سماوات جاء بها الروح الأمين، فأصبح وليس مسجد من مساجد الله يذكر الله فيه إلا هي تتلى فيه آناء الليل وآناء النهار، قالت: دعني منك يا ابن عباس، فوالذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيًا منسيًا».

[أخرجه أحمد والطبراني وأبو يعلى]

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ استعمله على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلت: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك ؟ قال: «عائشة». قال: من الرجال ؟ قال: «أبوها». [أخرجه البخاري ومسلم وابن حبان والترمذي وابن ماجه وأحمد]

وأخرج الحاكم عن الزهري قال: لو جُمعَ علم الناس كلهم ثم علم أزواج النبي ﷺ، لكانت عائشة رضي الله عنها أوسعهم علمًا.

وأخرج الحاكم عن عروة قال: ما رأيت أحدًا أعلم بالحلال والحرام والعلم والشعر والطب من عائشة رضي الله عنها.

وأخرج الحاكم عن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة، رضي الله عنها.

وأخرج أحمد في الزهد والحاكم عن الأحنف قال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم والخطباء هلم جرا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من عائشة، رضي الله عنها. وأخرج سعيد بن منصور والحاكم عن مسروق أنه سئل: أكانت عائشة رضي الله عنها تحسن الفرائض؟ فقال: لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض.

وأخرج الحاكم عن عطاء قال: كانت عائشة رضي الله عنها أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيًا في العامة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها قالت: خلالٌ فيَّ سبع لم تكن في أحد من الناس إلا ما آتى الله مريم بنت عمران، والله ما أقول هذا لكي أفتخر على صواحبي، قيل: وما هن؟ قالت: «نزل الملك بصورتي، وتزوجني رسول الله ﷺ لسبع سنين، وأهديت إليه وأنا بنت تسع سنين، وتزوجني بكرًا، لم يشركه فيَّ أحد من الناس، وأتاه الوحي وأنا وإياه في لحاف واحد، وكنت من أحب الناس إليه، ونزل فيَّ آيات من القرآن كادت الأمة تهلك فيهن، ورأيت جبريل لم يره أحد من نسائه غيري، وقبض ﷺ لم يله أحد غير الملك وأنا».

وتمسك الرافضة في طعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وحاشاها من كل طعن بخروجها من المدينة إلى مكة ومنها إلى البصرة وهناك وقعت وقعة الجمل بهذه الآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قالوا: إن الله تعالى أمر نساء النبي ﷺ وهي منهن بالسكون في البيوت ونهاهن عن الخروج وهي بذلك قد خالفت أمر الله

تعالى ونهيه عز وجل، وأجيب بأن الأمر بالاستقرار في البيوت والنهي عن الخروج ليس مطلقًا وإلا لما أخرجهن ﷺ بعد نزول الآية للحج والعمرة ولما ذهب بهن في الغزوات، ولما رخص لهن لزيارة الوالدين وعيادة المرضى وتعزية الأقارب، وقد وقع كل ذلك كما تشهد به الأخبار، وقد صح أنهن كلهن كن يحججن بعد وفاة رسول الله ﷺ إلا سودة بنت زمعة رضي الله عنها. وفي رواية عن أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه إلا زينب بنت جحش وسودة رضي الله عنهما، ولم ينكر عليهن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا الأمير علي رضي الله عنه ولا غيره، وقد جاء في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال لهن بعد نزول الآية: «أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن» فعلم أن المراد الأمر بالاستقرار الذي يحصل به وقارهن وامتيازهن على سائر النساء بأن يلازمن البيوت في أغلب أوقاتهن ولا يكن خرَّاجات ولَّاجات طوَّافات في الطرق والأسواق وبيوت الناس، وهذا لا ينافي خروجهن للحج أو لما فيه مصلحة دينية مع التستر وعدم الابتذال، وعائشة رضي الله عنها إنما خرجت من بيتها إلى مكة للحج وخرجت معها لذلك أيضًا أم سلمة رضي الله عنها، وكذا صفية رضي الله عنها وهي مقبولة عند الشيعة، لكن عائشة لما سمعت بقتل عثمان رضي الله عنه وانحياز قتلته إلى علي رضي الله عنه حزنت حزنًا شديدًا واستشعرت اختلال أمر المسلمين وحصول الفساد والفتنة فيما بينهم، وبينما هي كذلك جاءها طلحة والزبير ونعمان بن بشير وكعب بن عجرة في آخرين من الصحابة رضي الله عنهم هاربين من المدينة خائفين من قتلة عثمان رضي الله عنه لما أنهم أظهروا المباهاة بفعلهم القبيح وأعلنوا بسب عثمان رضي الله عنه فضاقت قلوب أولئك الكرام وجعلوا يستقبحون ما وقع، وعلموا أن لا قدرة لهم على منعهم إذا هموا بذلك فخرجوا إلى مكة ولاذوا بأم المؤمنين رضي الله عنها وأخبروها الخبر فقالت لهم: أرى الصلاح أن لا ترجعوا إلى المدينة ما دام أولئك السفلة فيها محيطين بمجلس الأمير علي رضي الله عنه غير قادر على القصاص منهم أو طردهم، فأقيموا ببلد تأمنون فيه وانتظروا انتظام أمور أمير المؤمنين رضي الله عنه وقوة شوكته، واسعوا في تفرقهم عنه وإعانته على الانتقام منهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم، فارتضوا ذلك واستحسنوه، فاختاروا البصرة، لما أنها كانت إذ ذاك مجمعًا لجنود المسلمين، ورجحوها على غيرها، وألحوا على أمهم رضي الله عنها أن تكون معهم إلى أن ترتفع الفتنة ويحصل الأمن وتنتظم أمور الخلافة، وأرادوا بذلك زيادة احترامهم لما أنها أم المؤمنين والزوج المحترمة غاية الاحترام لرسول الله ﷺ، وأنها كانت أحب أزواجه إليه وأكثرهن قبولاً عنده، وبنت خليفته الأول رضي الله عنه فسارت معهم بقصد الإصلاح وانتظام الأمور وحفظ عدة نفوس من كبار الصحابة رضي الله عنهم، وكان معها ابن أختها عبد الله بن الزبير وغيره من أبناء أخواتها أم كلثوم زوج طلحة وأسماء زوج الزبير، بل كل من معها بمنزلة الأبناء في المحرمية، رضي الله عنهم أجمعين، وكانت في هودج من حديد، فَبَلَّغَ الأميرَ رضي الله عنه خبرَ التوجه إلى البصرة أولئك القتلةُ السفلةُ على غير وجهه، وحملوه على أن يخرج إليهم ويعاقبهم، وأشار عليه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم بعدم الخروج واللبث إلى أن يتضح الحال فأبى رضي الله عنه ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً فخرج رضي الله عنه ومعه أولئك الأشرار أهل الفتنة فلما وصلوا قريبًا من البصرة أرسلوا القعقاع إلى أم المؤمنين وطلحة والزبير رضي الله عنهم ليتعرف مقاصدهم ويعرضها على الأمير رضي الله عنه، فجاء القعقاع إلى أم المؤمنين رضي الله عنها فقال: يا أماه ما أشخصك وأقدمك هذه البلدة ؟ فقالت: أي بني الإصلاح بين الناس، ثم بعثته إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما فقال القعقاع: أخبراني بوجه الصلاح ؟ قالا: إقامة الحد على قتلة عثمان رضي الله عنه وتطييب قلوب أوليائه فيكون ذلك سببًا لأمننا وعبرة لمن بعدهم، فقال القعقاع: هذا لا يكون إلا بعد اتفاق كلمة المسلمين وسكون الفتنة فعليكما بالمسالمة في هذه الساعة، فقالا: أصبت وأحسنت فرجع إلى الأمير رضي الله عنه فأخبره بذلك فسر به واستبشر وأشرف القوم على الرجوع ولبثوا ثلاثة أيام لا يشكون في الصلح، فلما غشيهم ليلة اليوم الرابع وقررت الرسل والوسائط في البين أن يظهروا المصالحة صبيحة هذه الليلة ويلاقي الأمير رضي الله

عنهما طلحة والزبير رضي الله عنهما وأولئك القتلة ليسوا حاضرين معه وتحققوا ذلك ثقل عليهم واضطربوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فتشاوروا فيما بينهم أن يغيروا على من كان مع عائشة رضي الله عنها من المسلمين ليظنوا الغدر من الأمير رضي الله عنه فيهجموا على عسكره فيظنوا بهم أنهم هم الذين غدروا فينشب القتال، ففعلوا ذلك فهجم من كان مع عائشة رضي الله عنها على عسكر الأمير، وصرخ أولئك القتلة بالغدر فالتحم القتال وركب الأمير متعجبًا فرأى الوطيس قد حمي والرجال قد سبحت بالدماء فلم يسعه رضي الله عنه إلا الاشتغال بالحرب والطعن والضرب.

وقد نقل الواقعة الطبري وجماهير ثقات المؤرخين، فما خطر ببال أم المؤمنين رضي الله عنها أنها خرجت لفتنة، بل ظنت أن خروجها لعصمة دماء المسلمين، وأنهم سيعظمون خروجها ويقفون عند قولها فتنتهي الفتنة وتعصم الأمة من شرورها، لكن أهل الغدر والفتن أوقعوا الأصحاب في القتال بمكيدة خبيثة.

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبي شيبة وابن سعد عن مسروق قال: كانت عائشة رضي الله عنها إذا قرأت: «وقرن في بيوتكن» بكت حتى تبل خمارها وما ذاك إلا لأن قراءتها تذكرها الواقعة التي قتل فيها كثير من المسلمين، وهذا كما أن الأمير رضي الله عنه أحزنه ذلك فقد صح أنه رضي الله عنه لما وقع الانهزام على من مع أم المؤمنين رضي الله عنها وقتل من قتل من الجمعين طاف في مقتل القتلى فكان يضرب على فخذيه ويقول: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا، وليس بكاؤها عند قراءة الآية لعلمها بأنها أخطأت في فهم معناها أو أنها نسيتها يوم خرجت كما توهم بعضهم، وقد ينضم لما ذكرناه في سبب البكاء أن النبي ﷺ قال يومًا لأزواجه المطهرات وفيهن عائشة رضي الله عنها: كأني بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب، ولم تكن سألت قبل المسير عن الحوأب هل هو واقع في طريقها أم لا حتى نبحتها في أثناء المسير كلاب الحوأب، عند ماء فقالت لمحمد بن طلحة: ما اسم هذا الماء، فقال: يقولون له حوأب، فقالت: أرجعوني، وذكرت الحديث وامتنعت عن المسير وقصدت الرجوع، فلم يوافقها أكثر من معها ووقع التشاجر حتى شهد مروان بن الحكم مع نحو من ثمانين رجلاً من دهاقين تلك الناحية بأن هذا الماء ماء آخر وليس هو حوأبا فمضت لشأنها بسبب ذلك وتعذر الرجوع ووقوع الأمر فكأنها رضي الله عنها رأت سكوتها عن السؤال وتحقيق الحال قبل المسير تقصيرًا منها وذنبًا بالنسبة إلى مقامها فبكت له.

وقد أكرمها علي رضي الله عنه وأحسن مثواها وبالغ في احترامها وردها إلى المدينة ومعها جماعة من نساء أعيان البصرة عزيزة كريمة وهذا مما يرد على الرافضة.

فقد ثبت بالنصوص الصحيحة أن عثمان وعليًا وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم من أهل الجنة بل قد ثبت في الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». [أخرجه مسلم وابن حبان والترمذي وابن ماجه وأبو داود وأحمد]

وعن جابر رضي الله عنه أن عبدًا لحاطب رضي الله عنه جاء إلى نبي الله ﷺ يشكو حاطبًا، فقال: يا نبي الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ إنه قد شهد بدرًا والحديبية».

[أخرجه مسلم وابن حبان والترمذي وأحمد والطبراني]

وعن جابر رضي الله عنه عن أم مبشر رضي الله عنها عن حفصة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «إني لأرجو ألا يدخل النار أحد إن شاء الله تعالى ممن شهد بدرًا والحديبية». قالت: يا رسول الله، أليس قد قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًا﴾ [مريم: ٧١]، قال: ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ [مريم: ٧٧]. [أخرجه مسلم وابن حبان والترمذي وابن ماجه وأبو داود وأبو أحمد والطبراني]

وأبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم هم من الصحابة رضي الله عنهم ولهم فضائل ومحاسن، وما يحكى عنهم كثير منه كذب، والصدق منه قليل، وَهُمْ كانوا فيه مجتهدين فالمجتهد إذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر، وخطؤه يغفر له.

وللحديث بقية إن شاء الله.

هل يُطلب المدد من المقبور

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن أعجب ما ابتلينا به هذه الأيام من يزعمون أن المدد يطلب من الأموات، ويعيب علينا هؤلاء أننا نقول: مددك يا الله، ولا نقول: مددك يا فلان، وكأن التوحيد أصبح تهمة عند هؤلاء !!

وهذا ليس بغريب على من قل علمهم وتضاءل فهمهم، فقد صدق فيهم قول الله تعالى: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» [الزمر: ٤٥]، وقوله جل شأنه: «ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ» [غافر: ١٢].

والمَدد: هو ما يمد منه فيكون سببًا في تقويته وإعانته، كما قال الله تعالى: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ» [الأنفال: ٩].

أخرج الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: نظر نبي الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ وأصحابه ثلاثمائة وبضعةَ عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه وجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه من منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، فقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك إنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ»، ويقول سبحانه: «بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» [آل عمران: ١٢٥]، ويقول سبحانه: «ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا» [الإسراء: ٦]، فالمدد منه سبحانه، ولذلك من أراد شيئًا فليسأل الله تعالى وليطلب منه جل شأنه، فقد أخرج الترمذي وأحمد أن النبي ﷺ قال: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف».

وأخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد عن العلاء قال: سمع عبد الله بن المغفل ابنًا له وهو يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة. قال: يا بُني، إذا سألت فاسأل الله الجنة وتعوذ من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون في آخر الزمان قومٌ يعتدون في الدعاء والطهور. والاعتداء في الدعاء ممنوع، قال الله تعالى: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» [الأعراف: ٥٥]، فالدعاء له آداب وشرائط وهي أسباب الإجابة، فمن استكملها كان من أهل الإجابة، ومن أخل بها فهو من أهل الاعتداء في الدعاء فلا يستحق الإجابة.

وفي «تفسير البحر المحيط»: قال العلماء: الاعتداء في الدعاء على وجوه منها الجهر الكثير، والصياح، وأن يدعو أن يكون له منزلة نبي، وأن يدعو بمحال، ونحوه من الشطط، وأن يدعو طالب معصية، وقال ابن جريج والكلبي: الاعتداء رفع الصوت بالدعاء، وعنه الصياح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو الإسهاب في الدعاء.

قال القرطبي: وقد ذكر وجوهًا من الاعتداء في الدعاء، قال: ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب ولا في السنة، فيتخير ألفاظًا مقفاة، وكلمات مسجعة، وقد وجدها في كراريس هؤلاء - يعني المشايخ - لا معوّل عليها، فيجعلها شعاره يترك ما دعا به رسول الله ﷺ وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء.

قال ابن جبير في الاعتداء في الدعاء: أن يدعو على المؤمنين بالخزي والشرك واللعنة.

ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل غير الله، وأن يطلب المدد من غير الله تعالى، والخطر العظيم في ذلك أن من سأل غير الله، فقد أثبت لهذا الذي دعاه من دون الله أنه يسمع نداءه حين دعاه، بل وأثبت له أنه يراه ويقدر على إجابة دعائه ويعلم حاله ويستطيع أن ينفعه ويكشف عنه الضر ويستجيب له، وإثبات كل ذلك لغير الله شرك لأنه أعطى وأثبت صفات الله تعالى للمخلوق، ووصفه بما لا يليق إلا بالله تعالى، وصدق الله إذ يقول: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» [فاطر: ١٣، ١٤]، ويقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ» [الحج: ٧٣].

أفيليق بالعبد المسلم أن يشبه الخلق بالله ؟ أو أن يصف المخلوق بصفات الخالق سبحانه، «أَفَمَنْ

يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ» [النحل: ١٧]، ويقول سبحانه: «وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ (٢٠) وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» [فاطر: ١٩].

فالضلال في دعاء غير الله أنه تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذه علامة المشرك أنه لا ينزه الله تعالى، بل يسوي بين الله وخلقه، قال الله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» [الأنعام: ١] أي: يساوونه بخلقه.

ثم كيف يترك الحي الذي لا يموت ويلجأ للأموات الذين لا يشعرون ولا يستطيعون، قال الله تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» [الأحقاف: ٥، ٦].

إن الذين يلجأون إلى الموتى في قبورهم وينزلون بهم الحاجات ويسألونهم القربات ويعتقدون أنهم قادرون على الإجابة حتى أن الواحد منهم يقف خاشعًا أمام القبر يكلم الرفات ويسجد على العتبات ويسكب العبرات ويقول للأموات: جئت لك، والعارف لا يُعَرِّف، والشكوى لأهل البصيرة عيب، معتقدًا أن الميت يعلم السر والخفاء، فقد جعلوا الأموات أندادًا يحبونهم كحب الله ويدعونهم كما يدعى الله، ويعتقدون فيهم النفع والضر، وهذه ألوان من الشرك، قال الله تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً» [الإسراء: ٥٦]، ويقول تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ» [سبأ: ٢٢].

لقد آن لنا أن نسأل الله وحده ولا نطلب المدد إلا منه، ولا ندعو إلا إياه، ولا نعرف خوفًا أو طمعًا أو رغبة أو رهبة أو إنابة أو توكلاً أو رجاءً إلا على الله الواحد القهار، فقد كان هذا هو حال نبينا ﷺ خير العباد وحال أهل الإيمان جميعًا.

وقد أخرج الترمذي والحاكم وصححه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا كَرَبَهُ أمرٌ قال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث». وبإسناده قال: قال رسول الله ﷺ «ألظوا بياذا الجلال والإكرام».

وأخرج أبو داود والنسائي وأحمد عن أنس أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات الأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى».

وكذا علم فاطمة رضي الله عنها كيف تدعو، فقد أخرج الحاكم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تلكني إلى نفسي طرفة عين».

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ ما قال عبدٌ قطّ إذا أصابه همٌ وحزن: اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحًا. قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات. قال: أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن.

وقال بعض العلماء: «وقد أجمع أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ - رضي الله عنها - وأتباعهم من علماء السنة على أن الاستغاثة بالأموات من الأنبياء وغيرهم، أو الغائبين من الملائكة أو الجن وغيرهم، أو بالأصنام والأحجار والأشجار أو الكواكب ونحوها من الشرك الأكبر، لقول الله عز وجل: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» [الجن: ١٨]، وقوله سبحانه: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» [فاطر: ١٣، ١٤].

وقوله عز وجل: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» [المؤمنون: ١١٧].

ولذا يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتوجه بالعبادة لله رب العالمين وحده لا يشرك به شيئًا، ولا يطلب المدد والغوث إلا من الله تعالى، حتى لا يقع في الشرك، فقد قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا» [النساء: ٤٨]، وقال سبحانه: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» [المائدة: ٧٢].

وقال سبحانه: «حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» [الحج: ٣١].

نسأل الله أن يجنبنا الشرك ما علمنا منه وما لم نعلم، وأن يتقبل منا صالح العمل، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وقفات مع التوسل والوسيلة

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فإن غياب العلم وكثرة الجهل وتفشي البدع والخرافات والأباطيل زين لكثير من الناس الباطل، بل ربما ألبسوه ثوب الحق، فتوجهوا للصالحين والأولياء عند قبورهم ليتوسلوا بهم، زاعمين زورًا «أنه إذا حزبتكم الأمور فعليكم بأهل القبور»، وزاعمين زورًا أنه «من زار الأعتاب ما خاب»، وزاعمين زورًا أنه «إذا اعتقد أحدكم في حجر لنفع»، ويقولون: إن الوسيلة إلى الله هم الأولياء والصالحون، ويستدلون زورًا بقول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [المائدة: ٣٥]، فيقولون: نحن نبتغي إلى الله الوسيلة بهؤلاء الصالحين

فنريد - إن شاء الله تعالى - في هذه الوقفات أن نوضح الحق لطالبه بغير تعصب إلا للحق لعل الله تعالى أن يشرح الصدور بالعودة إلى الملك الغفور بعيدًا عن عبادة المقبور أو الاعتقاد في أهل القبور، فما هي الوسيلة المطلوب ابتغاؤها لننال رضا الله تعالى والقبول عنده؟ هل الوسيلة دعاء غير الله واعتقاد النفع والضر فيهم وسؤالهم والطلب منهم والاستغاثة والرجاء والرهبة وطلب البركة والرزق والصحة والغنى منهم؟

قال أهل التفسير: قال ابن عباس: إن جماعة من الإنس كانوا يعبدون جماعة من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس لا يدرون بإسلامهم، وبقوا

متمسكين بدينهم، فنزلت: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» [الإسراء: ٥٧]، يقول تعالى لهؤلاء المشركين جميعًا: إن هؤلاء الذين تدعونهم آلهة، وتعبدونهم من دون الله، هم عباد من خلق الله، وتحت قهره وسلطانه، ويعملون جاهدين على الفوز بالقرب منه تعالى بالطاعة والقربة، وأكثر هؤلاء المعبودين قربًا من الله يدعو الله، ويبتغي إليه الوسيلة والقربة منه، ويخشى عذابه وعقابه. فإذا كان هذا هو حال هؤلاء الأرباب فكيف تعبدونهم؟! وما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله الواحد الأحد الخالق القاهر بالعبادة والدعاء والخشية، كما يتوجه إليه بها الذين تعبدونهم أنتم وتدعونهم أربابًا، وعذاب الله خليق بأن يُحْذَر، ويُخَاف ويُخْشى، وقد كان بعضهم يدعو عزيرًا ابن الله ويعبده، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده، وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم، وبعضهم يدعو غير هؤلاء، فالله تعالى يقول لهم جميعًا: إن هؤلاء الذين تدعونهم، أقربهم إلى الله يبتغي إلى الله الوسيلة، ويتقرب إلى الله بالعبادة، ويرجو رحمته ويخشى عذابه، فأولى بهم إن كانوا يعقلون أن يرجعوا إلى الله تعالى ويعبدوه، ويتوبوا عن شركهم وضلالهم، ويتأسوا بالصالحين في ذلك، فالوسيلة ما يقرّب العبد من الله بالعمل بأوامره ونواهيه.

وأخرج البخاري في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه». الحديث، ويقول الله تعالى: «وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ» [سبأ: ٣٧]، فالتقرب إلى الله تعالى بالإيمان والأعمال الصالحة.

أما التوسل فينقسم إلى قسمين أساسيين، توسل مشروع، وتوسل ممنوع، والمنصف من يتجرد للحق ويبحث عنه فيعتقده ويرجع إليه، ولا ينبغي أن يلبس على نفسه الحق، حتى لا ينطبق عليه قول الله تعالى: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» [فاطر: ٨]، وقول الله تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» [محمد: ١٤]، والحق لا يخفى على طالبه.

أولاً: القسم الأول: التوسل المشروع:

وهو التوسل إلى الله بالوسيلة المشروعة، ودليله ما دل الكتاب والسنة على أنه توسل مشروع، وما سوى ذلك فإنه توسل ممنوع، فالهدى والخير كله ما كان في كتاب الله تعالى وصحيح السنة المطهرة بفهم السلف الصالح.

والتوسل المشروع يقع تحته أنواع ثلاثة:

الأول: التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى أو بصفة من صفاته العلى، كأن يقول المسلم في دعائه: كما أخرجه الترمذي وابن ماجه عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، قال: فقال: والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى».

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتى على رجل وهو يقول: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام، فقال: لقد سأل الله بالاسم الذي إذا دُعي به أجاب».

وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب مسلمًا قط هم أو حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحًا».

أخرجه أحمد وابن حبان وأبو يعلى والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»، أو يدعو فيقول: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة العدل والحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين». أخرجه النسائي والحاكم.

فمن أراد أن يدعو الله تعالى فليدعه باسم من أسمائه الحسنى أو بصفة من صفاته العلى.

ودليل مشروعية هذا النوع من التوسل قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» [الأعراف: ١٨٠]، وقوله تعالى: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» [الإسراء: ١١٠].

الثاني: من التوسل المشروع: التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به العبد:

ويدل على مشروعيته قوله تعالى: «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [آل عمران: ١٦]، وقوله تعالى: «رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ» [آل عمران: ١٩٣]، وقوله تعالى: «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» [آل عمران: ٥٣]، وقوله تعالى: «إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ» [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١].

ومما يدل على ذلك من السنة المطهرة ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز فذهب وتركه، وأني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أني اشتريت منه بقرًا، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فسقها، قال لي: إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فإنها من الفرق، فساقها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساخت عنهم الصخرة، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم من أحب الناس إليَّ، وإني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها، فقالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا».

فكل واحد من هؤلاء الثلاثة توسل إلى الله تعالى بعمل صالح، ولذا ورد في الحديث: «فقال بعضهم لبعض انظروا أفضل أعمال عملتموها لله تعالى فسلوه بها لعله يفرج بها عنكم»،

فالتوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة مشروع.

الثالث: التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه:

ويدل على مشروعيته أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسألون النبي ﷺ أن يدعو لهم، فعن أبي ريحانة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأوفينا على شرف فأصابنا برد شديد، حتى أن كان أحدنا يحفر الحفير ثم يدخل فيه ويغطي عليه بحجفته، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك من الناس قال: ألا رجل يحرسنا الليلة أدعو الله له بدعاء يصيب به فضلاً؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فدعا له، قال أبو ريحانة: فقلت: أنا، فدعا لي بدعاء هو دون ما دعا للأنصاري». أخرجه الإمام أحمد ورجاله ثقات والحاكم وصححه.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أمي كانت امرأة مشركة، وإني كنت أدعوها إلى الإسلام وكانت تأبى عليَّ، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام وكانت تأبى عليَّ، وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهدِ أم أبي هريرة». فخرجت أعدو أبشرها بدعاء رسول الله ﷺ فلما أتيت الباب إذا هو مجاف، وسمعت خضخضة الماء، وسمعتْ خشف رجلي، يعني وقعها، فقالت: يا أبا هريرة، كما أنت، ثم فتحت الباب وقد لبست درعها وعجلت عن خمارها، فقالت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ أبكي من الفرح كما بكيت من الحزن، فقلت: يا رسول الله، أبشر فقد استجاب الله دعاءك وقد هدى أم أبي هريرة. فقلت: يا رسول الله، أدع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب عُبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحببهم إليهما». فما خلق الله مؤمنًا يسمع بي ولا يراني أو يرى أمي إلا وهو يحبني. (أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ومسلم).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت المواشي وتقطعت السبل فادع الله، فدعا رسول الله ﷺ فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة. قال: فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت، وانقطعت السبل وهلكت المواشي، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ظهور الجبال والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر». قال: فانجابت عن المدينة انجياب الثوب. (أخرجه البخاري ومسلم).

وفيهما أن النبي ﷺ لما ذكر أن في أمته سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب وقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». قام عكاشة بن محصن. فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم».

وعن أسير بن جابر قال: لما أقبل أهل اليمن جعل عمر رضي الله عنه يستقري الرفاق فيقول: هل فيكم أحد من قرن حتى أتى عليه قرن، فقال: من أنتم؟ قالوا: قرن، فرفع عمر بزمام أو زمام أويس فناوله عمر فعرفه بالنعت، فقال له عمر: ما اسمك؟ قال: أنا أويس. قال: هل كان لك والدة، قال: نعم. قال: هل بك من البياض ؟ قال: نعم، دعوت الله تعالى فأذهبه عني إلا موضع الدرهم من سرتي لأذكر به ربي، فقال له عمر: استغفر لي، قال: أنت أحق أن تستغفر لي، أنت صاحب رسول الله ﷺ فقال عمر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له: أويس القرني». (الحديث أخرجه الإمام أحمد والحاكم).

فالتوسل المشروع أن تتوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته العلى، أو تتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، أو تتوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه، وذلك بأن يكون حيًا ويسمع ويقدر على ذلك.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

وقفات مع التوسل والوسيلة

الحلقة الثانية

إعداد/ محمد رزق ساطور

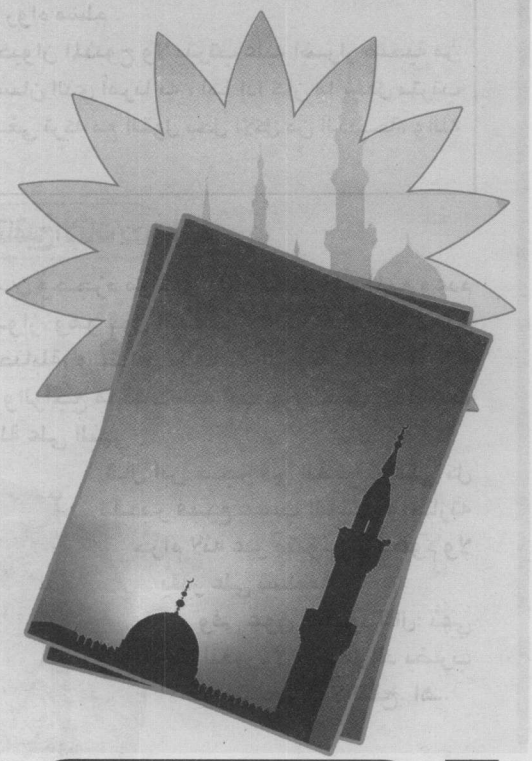

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

إن موضوع التوسل من الموضوعات الهامة التي ينبغي أن نعتقد فيه العقيدة الصحيحة، خاصة وقد اختلطت المفاهيم وانتشرت الأباطيل والأهواء، فَضَلَّ فيه أهلُ الزيغ والهوى وهم يحسبون أنهم مهتدون، قال الله تعالى: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [القصص: ٥٠]. فتعالوا نكمل ما بدأناه في التوسل.

قلنا: إن الوسيلة ما يقرّب العبد من الله بالعمل بأوامره ونواهيه وقسمنا التوسل إلى قسمين أساسيين، توسل مشروع، وتوسل ممنوع، وقلنا: إن التوسل المشروع أقسام ثلاثة: توسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى أو بصفة من صفاته العلى، وتوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به العبد، وتوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه، وذلك بأن يكون حيًا ويسمع ويقدر على ذلك.

أما التوسل الممنوع: فهو التوسل إلى الله تعالى بما لم يثبت في كتاب الله تعالى ولا في سنة المعصوم ﷺ، ولا دل عليه دليل من الشرع وهو أنواع:

النوع الأول: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ونحو ذلك، يقول الله تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» [الأحقاف: ٥، ٦]، فأول المخالفات والضلال في دعاء غير الله أنه - أي من يدعو غير الله تعالى - ترك دعاء الله ولجأ إلى غيره يدعوه ويرجوه ويسأله ويعتقد أنه قادر على نفعه ودفع الضر عنه، أيصلح أن يترك العبد ربه الحي الذي لا يموت والمجيب لمن دعاه والسميع لمن ناجاه ويدعو ميتًا ضعيفًا لا يستطيع نفع نفسه فضلاً عن غيره ؟!

بل قال الله عنه: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ»، فمن دعا غير الله تعالى فقد أجرم في حق الله ؛ إذ أعرض عن ربه ولجأ لغيره، ثم ليعلم أن من دعا غير الله لا يستجيب له إلى يوم القيامة، بل الأعجب أنه لا يشعر بدعاء من دعاه ولا يعلم عنه شيئًا، والأغرب المؤكد أنه حين يعلم يوم القيامة أن أحدًا قد دعاه من دون الله يتبرأ منه: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ» [يونس: ٢٨، ٢٩].

ويقول الله تعالى: «وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ» [الأعراف: ١٩٧]، وقال تعالى: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» [فاطر: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ» [سبأ: ٢٢]، وقال تعالى:«قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ» [الرعد: ١٤]، ألا تدل تلك الآيات البينات على تحريم دعاء غير الله من الموتى والمقبورين والصالحين والأنبياء والمرسلين؟! وأن من دعا نبيًا أو وليًا، أو ملكًا، أو بشرًا، أو جنًا، وسألهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، أن هذا من أعظم الشرك الذي حرمه الله ووصف به المشركين، حيث اتخذوا من دونه أولياء بزعمهم، قال الله تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» [يونس: ١٨]، لكن الشيطان الرجيم لا يترك الناس تفكر وتفهم لتتوب وترجع إلى الحق المبين، بل يلبس عليهم الحق حتى يستحسنوا الباطل ومن ثَمَّ لا يشعرون بجرم ما فعلوه: «.. بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» [الرعد: ٣٣].

فزين الشيطان الرجيم لمن دعوا غير الله تعالى بقوله: أنتم مسلمون وآباؤكم مسلمون تعرفون ربكم ولا تنكرونه ومن ثَمَّ فهذه الآيات البينات حق ولكن تقصد المشركين الذين كانوا لا يعرفون الله تعالى كأبي جهل وأقرانه من صناديد أهل مكة، ومن ثَمَّ فلا تنطبق عليكم تلك الآيات، ثم أنتم تتوسلون بالصالحين وهم يتوسلون بالأصنام، وأنتم تعتقدون في الله حق الاعتقاد لكن تدعون الأولياء والصالحين من باب الواسطة، فأنتم مذنبون لا ينبغي أن تتوجهوا إلى الله مباشرة لأن الذنوب تحول بينكم وبين الله تعالى، فتتخذون الواسطة حتى يقبلكم الله، ألا ترون إذا كان لأحدكم حاجة في مكان ما وذهبتم من غير واسطة لم تقض حاجتكم، وأنتم أيضًا تعرفون أن هذا هو الرب العظيم، وهذا عبد فقير لربه، فاطمئنوا فأنتم مع ذلك لم تقعوا في الشرك المحرم.

فأقول وبالله التوفيق: إن هذا التزيين المقصود منه توريط العبد في الشرك ليقع فيه ثم لا يفكر بعد ذلك في تركه لأنه لم يستقبحه. وسأرد على تلك الشبهات واحدة تلو الأخرى:

الأولى: أما تمويهه بقوله أنتم مسلمون وآباؤكم مسلمون تعرفون ربكم ولا تنكرونه، أما أهل الشرك فلا يعرفونه بل ينكرونه، فهذا كلام فاسد لا يصح، فقد قال الله لنبيه ﷺ عن أهل الشرك ومعتقدهم في الله: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ» [يونس: ٣١]، وقال سبحانه: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» [العنكبوت: ٦١]، وقال سبحانه: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ» [العنكبوت: ٦٣]، وقال سبحانه: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» [الزخرف: ٩]، وقال سبحانه: «قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ» [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

إذن أهل الشرك والجاهلية أقروا بأنَّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، ومع كل ذلك لما لجأوا لغير الله وسألوا غيره وتوجهوا بالعبادة لغيره وسمهم بالشرك والكفر والضلال المبين: «وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» [النحل: ٨٦، ٨٧]، بل إنهم يحتجون بالقدر على شركهم، وهذا من قبيح صنيعهم، قال الله تعالى: «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ» [الأنعام: ١٤٨]، «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ» [يونس: ٢٨، ٢٩]، «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ» [النحل: ٣٥].

إذن المعرفة لن تمنع عن الإنسان وصف الشرك إن أشرك، فلقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [الزمر: ٦٥].

الثانية: أما تزيين الشيطان لهم بقوله: أنتم تتوسلون بالصالحين وهم يتوسلون بالأصنام، فهذه شبهة أوهى من الأولى ؛ يقول الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [الأعراف: ١٩٤].

وقد تمسك قوم نوح عليه السلام بعبادة غير الله وأوصى بعضهم بعضًا: «وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» [نوح: ٢٣]، ففي العظمة لأبي الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: كان لآدم عليه السلام خمسة بنين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وكانوا عُبَّادًا، فمات رجل منهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا، فجاءهم الشيطان فقال: حزنتم على صاحبكم هذا ؟ قالوا: نعم. قال: هل لكم أن أصور مثله في قبلتكم إذا نظرتم إليه ذكرتموه ؟ فقالوا: لا ؛ نكره أن تجعل لنا في قبلتنا شيئًا نصلي إليه. قال: فأفعله في مؤخر المسجد. قالوا: نعم، فصوره لهم حتى مات خمستهم فصور صورتهم في مؤخر المسجد ونقص العلم حتى تركوا عبادة الله وعبدوا هؤلاء الخمسة العُباد الذين ماتوا، فبعث الله عز وجل نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، فقالوا: «لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا».

الثالثة: أما تزيين الشيطان لهم ووسوسته بقوله: أنتم تعتقدون في الله حق الاعتقاد، لكن تدعون الأولياء والصالحين من باب الواسطة.

نقول: إن الواسطة لها ثلاثة أحوال؛ الأول: للتعريف: بمعنى أن لي حاجة في مكان ما فإن ذهبت وحدي ربما لا تُقضى الحاجة من أول مرة، فأنا أبحث عن واسطة لأحصل على حقي، مهمة الواسطة في هذه الحالة أن يعرف الطرف الثاني بي فعند ذلك تُقضى المصلحة، إذن مهمة الواسطة في هذه الحالة التعريف، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، فهل هذا النوع من الواسطة يصلح مع الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

فالله تعالى هو العليم الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، «أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» [البقرة: ٧٧]، «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢١٦]، «ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [المائدة:

٩٧]، «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» [التوبة: ٧٨]. إذن هذا النوع من الواسطة لا يصلح مع الله تعالى.

الثاني: واسطة لرد الظلم: بمعنى أن لي حاجة في مكان ما فإن ذهبت وحدي لم تُقْضَ الحاجة لأن القائم عليها ظالم، فمهمة الواسطة في هذه الحالة أن يرد عني الظلم فتقضى المصلحة، فهل هذا النوع من الواسطة يصلح مع الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالله هو الحكم العدل: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء: ٤٠]، «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [يونس: ٤٤]، «وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف: ٤٩]، «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» [يونس: ٥٤]، إذن هذا النوع من الواسطة لا يصلح مع الله تعالى.

الثالث: واسطة لطمس الحقائق وإعطاء من لا حق له حق غيره: بمعنى أن هناك حاجة في مكان ما فإن ذهبتُ وحدي لم تُقْضَ الحاجة لأن الشروط لا تنطبق عليَّ ومن ثم ليست من حقي، فمهمة الواسطة في هذه الحالة أن يقلب الحقيقة ليجعل من لا حق له هو صاحب الحق، فهل هذا النوع من الواسطة يصلح مع الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يقول الله تعالى: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» [القلم: ٣٥، ٣٦]، ويقول: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» [ص: ٢٨]، ويقول: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» [الجاثية: ٢١]، وهذا النوع أيضًا من الواسطة لا يصلح مع الله تعالى.

إذن هذه الشبهات والتزيين الشيطاني لا تغني عن العباد شيئًا، فإذا وقع العبد في الشرك خَسِر الدنيا والآخرة وحُرِم خيرهما، يقول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا» [النساء: ٤٨]، «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» [المائدة: ٧٢]، «حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» [الحج: ٣١].

أخرج البخاري وأحمد عن عبد الله رضي الله عنه قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى، قال النبي ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار». وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله نداً دخل الجنة.

وأخرج الترمذي وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله». الحديث.

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله قال: لما نزلت: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال: «ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه: «يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣].

إذن قد استبان لمن يطلب الحق أن التوسل إلى الله تعالى بدعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات ونحو ذلك، من الشرك الأكبر الذي حرمه الله تعالى وحذر من الوقوع فيه، فلا تغتر بتلك الأباطيل، والجأ إلى الله وحده وتب إليه وادعه وحده حتى يقبلك ويغفر لك ويدخلك جنته، ورحم الله من قال:

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترف
ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته
إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وللحديث بقية إن شاء الله.

شياطين الإنس والجن في رمضان

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فإن شهر رمضان شهرٌ كريم، وموسمٌ عظيم للعبادة والطاعة، يُعَظِّمُ اللهُ تعالى فيه الأجر ويُجزل فيه العطاء، ويفتح أبواب الخير فيه لكل راغب، فهو شهرُ الخيرات والبركات، وشهرُ المنح والهبات، تُفتح فيه أبواب الجنات، وتغلق فيه أبواب النيران، خاب وخسر من أدركه رمضان فانسلخ قبل أن يُغفر له، فقد أخرج ابن حبان والترمذي وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكرت عنده فلم يُصَلِّ عليَّ، وَرَغِمَ أنفُ رجلٍ دخل عليه رمضانُ ثم انْسَلَخَ قبل أن يُغفر له، وَرَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك عنده أبواه الكبر فلم يُدْخلاه الجنة».

وأخرج الترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أولُ ليلة من شهرِ رمضانَ صُفِّدَتْ الشياطينُ ومَرَدَةُ الجنِّ، وغُلِّقَت أبوابُ النارِ، فلم يُفتح منها بابٌ وفُتحت أبوابُ الجنةِ فلم يُغلق منها بابٌ وينادي مُناد: يا باغي الخيرِ أقبل، ويا باغي الشرِّ أقْصِرْ، ولله عُتقاءُ من النارِ وذلك كل ليلة».

فالصائم والقائم والقانت والخاشع له فضل ومنزلة في رمضان، ولكننا نريد أن نتكلم عن شياطين الإنس والجن في رمضان، فعند البخاري «وسلسلت الشياطين»، وعند الترمذي: «صُفدت الشياطين ومردة الجن»، «وتُصفد فيه مردةُ الشياطين فلا يخلصونَ فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره»، فهناك اتفاق بين شياطين الإنس والجن على الضلال والإضلال، قال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ» [الأنعام: ١١٢]، ففي تفسير ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا»، قال: إن للجنِّ شياطينَ يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيَلْقَى شيطانُ الإنسِ شيطانَ الجنِّ، فيقولُ هذا لهذا: أضْلَلْتُهُ

بكذا، وأضللهُ بكذا، قال: فهو قولُه: «يُوحي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا»، فقد اتفق شياطينُ الإنس والجنِّ على أن يفسدوا الصيام على الصائمين، وذلك بتزيين الباطل والمنكر والضلال كتبرج المرأة والغيبة والنميمة والكذب والفحش والغش والبيع المحرم والغناء واللهو وغير ذلك من المعاصي.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يَدَعْ قول الزُّور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه».

وهذه الأفعال لا تبطل الصيام، ولكنها تنقص من أجره، وقد يذهب ثوابه بالكلية، والله تعالى من رحمته بعباده يهيئ لهم صيامًا بعيدًا عن كيد الشيطان ووسوسته وإغوائه حتى تكتمل العبادة ويزداد الإيمان والعتق من النار، فتصفد الشياطين ومردة الجن وتسلسل فلا يَخْلُصُون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره، فيضعف كيدهم ويقل شرهم، ليمتنعوا من إيذاء المؤمنين، وهذه علامة لدخول شهر الصيام وتعظيم لحرمته، والله تعالى يعصم فيه من شاء من المعاصي ولا يخلص إليهم فيه الشياطين كما كانوا يخلصون إليهم في سائر السنة، وكثير من الناس إلا من رحم الله يعزفون عن ذكر الرحمن ويهرعون إلى صوت الشيطان الذي استحوذ على قلوبهم وملك عليهم مشاعرهم فاستجابوا له في كل ما دعاهم إليه عن طريق وسوسته أو عن طريق جنده الذين يبثهم في صفوف الجهلة من شياطين الإنس والجن، فينصرفون بذلك عن الحق المبين ويتقلبون في الشقاء والمعاصي فتقسوا قلوبهم بذلك ولا يفيقون إلا بعد انتهاء أوقات الطاعة حيث ضيع عليهم الشيطان مواسم الخير، يقول الله تعالى: «وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» [الإسراء: ٦٤]، ويقول: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [البقرة: ٢٦٨]، ويقول: «وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا» [النساء: ٣٨]، ويقول: «وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا» [النساء: ١١٩]، يقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ» [محمد: ٢٥]، وشياطين الجن يُسخرون شياطين الإنس معهم للغواية، فربما زينوا لهم أنهم هم الذين يفهمون الإسلام فهمًا صحيحًا - وهم أبعد الناس عنه - حتى يطلقوا لأنفسهم العنان في الطعن في ثوابت هذا الدين، بل ربما فاق شياطينُ الإنس شياطين الجن في الغواية وصدق عليهم قول القائل:

فلا تحسبوا إبليس علمني الخنا
فإني منه بالفضائح أبصر
وكيف يرى إبليس معشار ما أرى
وقد فُتحت عيناي لي وهو أعور

فهم متعاونون على الإثم والعدوان، يخططون في رمضان ليشغلوا الليل والنهار في ما يضر الصائم بزعم التسلية تارة، وقتل الوقت تارة، فترى الخريطة التي رسموها مفزعة ليس فيها إلا اللهو والعبث والسهر في اللغو والرفث، فترى في النهار الأفلام والغناء، وفي المساء المسلسلات والفوازير ولقاءات من يسمونهم بالنجوم، وكيف يقضي هؤلاء أوقات صيامهم ليتأسى بهم الناس، إلى غير ذلك من برامج تافهة تضر ولا تنفع، فهم يتخلقون بالأخلاق الذميمة التي يحرص الشيطان على نشرها في الناس حتى تذهب الفضائل وتنتشر الرذائل.

وقد أخرج الدارمي والحاكم وابن الجعد وعبد الرزاق عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصغير ويتخذها الناس سنة، فإذا غيرت قالوا غيرت السنة، قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت قراؤكم وقلت فقهاؤكم وكثرت أمراؤكم وقلت أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة.

فلا بد من وقفة مع النفس، فتقويمها بالصيام والقيام والقرآن والذكر والإطعام والصدقة والاعتمار والطاعة في رمضان خاصة مع تصفيد العدو وسلسلته، وتحجيم شره يعطي الصائم القدرة على دفع ما يُكدر صفو تقواه، وما يفسد عليه لذة نجواه، فترد للنفس ما سلب منها وتعطيها قوة على قوتها لكي تنتصر على غيها، وتنقذها من الدرك الذي هوت فيه.

فإذا صدقت نية العبد استعان بربه سبحانه فخلصه من كل ذلك. قال القرطبي: وقد حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا ؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد، قال: أجاهده. قال: فإن عاد، قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي، قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك.

فاللهم كما صفدت الشياطين ومردة الجن وسلسلتهم حتى لا يفسدوا علينا عبادتنا وصيامنا فخذل عنا واعصمنا ونجنا من شياطين الإنس الظاهر منهم والخفي المستتر، ورد كيدهم في نحورهم، واشغلهم بأنفسهم فلا يعكرون علينا صفونا وديننا، وأصلح اللهم فساد قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واجعلنا في هذا الشهر المبارك من المقبولين الفائزين الرابحين، إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقفات مع التوسل والوسيلة

الحلقة الثالثة

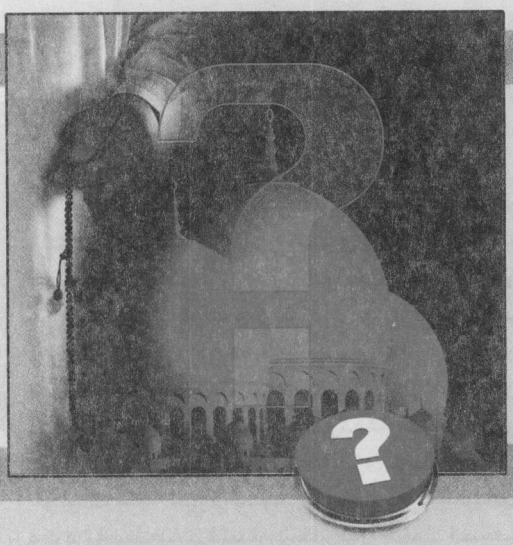

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد ذكرنا أن التوسل ينقسم إلى قسمين أساسيين: توسل مشروع، وتوسل ممنوع، وعلمنا أن التوسل المشروع أقسام ثلاثة.

أما التوسل الممنوع: فقد ذكرنا منه النوع الأول: وهو التوسل إلى الله بدعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات ونحو ذلك، ورددنا على بعض الشبهات لإزالة الالتباس، ثم نكمل ما بدأناه فنقول وبالله التوفيق:

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بفعل العبادات عند القبور والأضرحة مثل دعاء الله عندها، لأن تحري العبادة عند القبور وسيلة إلى الشرك بالله، لإفضائه إلى دعاء الأموات من دون الله، ولهذا أنكر علي بن الحسين على الرجل الذي كان يأتي إلى فرجة عند قبر النبي ﷺ ويتحرى الدعاء عندها، وساق له حديث النبي ﷺ وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم». رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفري، ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا وبقية رجاله ثقات.

وقد تدرج الشيطان الرجيم بمن يتعمد الدعاء عند القبور إلى دعاء أصحاب القبور إذ أنهم وجدوا في أنفسهم أن الدعاء عند بعض القبور أحرى بالإجابة (هكذا زعموا) من بقية القبور فصاروا يتعمدون الدعاء عند قبور مخصوصة، بعد أن كانوا يدعون عند القبور مطلقًا دون أن يخصوا قبرًا بالدعاء، ثم تدرجت الحال فقال العامة بعد اندراس العلم وضعف البصيرة وكثرة الجهل والتقليد الأعمى: إنما تعمد من قبلنا الدعاء عند هذا القبر لمزية صاحبه فصار الشرك والعياذ بالله، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى» عند البخاري قال: كان اللات رجل يلت السويق للحجاج فعكفوا على قبره».

وفي تفسير البغوي قال مجاهد: كان في رأس جبل له غنيمة يسلأ منها السمن ويأخذ منها الأقط ويجمع رسلها ثم يتخذ منها حيسًا فيطعم منه الحاج.

ولما قال بعض الصحابة حديثي العهد بالإسلام للنبي ﷺ: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» أي: شجرة يتبركون بها ويعلقون بها أسلحتهم كما يفعله المشركون، قال ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة». أخرجه ابن حبان والترمذي وأحمد بن حنبل والطيالسي.

والله تعالى يقول: «إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» [فاطر: ١٤].

والذي يتعبد عند القبر يعتقد أن العبادة عند القبر أفضل من غيرها في مكان آخر، بل تراه يقف في خشوع ويقول لصاحب القبر: أنا جئت إليك أرفع شكواي وأنت تعرفها فلا تحتاج مني أن أفصح بها إليك، ثم يتمرغ على الأعتاب متمسحًا بالأبواب متلطخًا بالتراب مستغيثًا وصارخًا بغير الخالق الوهاب، فزعم العبادة لله وهو معتقد في غيره، وهذا لون من الشرك القبيح الذي لا يليق، فالذي أفضى إلى ذلك هو العبادة عند القبر.

ولذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وعند وجودها في كبد السماء، وقال: «إنه حينئذٍ يسجد لها الكفار». رواه مسلم، ولأن الكفار يسجدون للشمس حينئذٍ، فنهى عن ذلك ؛ لما فيه من مشابهة المشركين، وإن لم يقصد المصلي السجود إلا لله الواحد المعبود ؛ لأن النهي يشمل عبادة غير الله تعالى وأيضًا التشبه بمن كانوا يعبدون القبور.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك».

فنهى عن اتخاذ القبور مساجد، ومعلوم أن من صلى عند قبر فقد اتخذه مسجدًا، ومن بنى عليه ليصلي فيما بُنِيَ عليه فقد اتخذه مسجدًا، ومن وضع القناديل والستور والسرج فقد اتخذه مسجدًا، وهذا من الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد، وهو ذريعة مفضية إلى الشرك الأكبر.

وقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن حبان وابن حنبل عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيهم مساجد».

فالواجب أن تبعد القبور عن المساجد، وألا يجعل في المساجد قبور، امتثالاً لأمر الرسول ﷺ، وحذرًا من اللعنة التي صدرت من ربنا عز وجل على من بنى المساجد على القبور، لأنه إذا صلى المصلي في مسجد فيه قبور فقد يزين له الشيطان دعوة الميت أو الاستغاثة به أو الصلاة له أو السجود له فيقع في الشرك الأكبر، وعلى الأقل هو متشبه بمن كانوا يعبدون القبور، «ومن تشبه بقوم فهو منهم». أخرجه أبو داود.

فإذا اقترن مع ذلك دعاء الأموات، وسؤالهم المغفرة، وطلب الشفاء، والذبح لهم، والاستعانة بهم، فكل هذا مما هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة أنه شرك أكبر، قال الله تعالى: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» [فاطر/ ١٣-١٤].

وأفعال الناس عند القبور لا تتعدى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما هو مشروع:

وهو زيارة القبور لتذكر الآخرة وللسلام على أهلها والدعاء لهم، فقد أخرج أحمد وابن ماجه والبيهقي عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

وقد كان هذا في أول الإسلام عند قربهم من عبادة الأوثان، واتخاذ القبور مساجد، فلما رسخ الإسلام في قلوب الناس، وأمنت عبادة القبور والصلاة إليها، نسخ النهي عن زيارتها، لأنها تذكر الآخرة وتزهد في الدنيا.

النوع الثاني: مُبتدع ينافي كمال التوحيد:

وهو من الوسائل التي تؤدي إلى الشرك وهو قصد عبادة الله تعالى والتقرب إليه عند القبور أو قصد التبرك بها أو البناء عندها وتجصيصها وإسراجها واتخاذها مساجد وشد الرحال إليها ونحو ذلك مما ثبت النهي عنه، فقد أخرج مسلم والنسائي وابن حبان عن أبي مرثد الغنوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها».

وأخرج مسلم والنسائي وابن حبان والترمذي وابن ماجه عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور والكتابة فيها والبناء عليها والجلوس عليها.

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان وابن ماجه وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج.

وأخرج مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

النوع الثالث: شرك ينافي التوحيد:

وهو صرف شيء من أنواع العبادة لصاحب القبر كندائه ودعائه من دون الله والاستعانة به والطواف حول القبر والذبح والنذر له، ونحو ذلك. يقول الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ × أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنْظِرُونِ» [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥].

ويقول جل شأنه: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ» [الحج: ٦٣].

وأخرج أحمد والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

وأخرج الطبراني - ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث - عن عبادة بن الصامت قال: قال أبو بكر: قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله عز وجل».

فمن المخالفات التي ترتكب عند الميت دعاؤه أو الاستغاثة به ومناداته وسؤاله وطلب المدد منه كأن يقول: يا سيدي فلان انصرني، أو أغثني، أو اشفني، أو مدد يا فلان، فهذا كله من الشرك القبيح الذي لا يليق بالعبد أن يفعله، فينبغي أن يتوب العبد من ذلك ولا يعود إليه أبدًا.

ومن المخالفات التي ترتكب عند القبر النذر للميت: بأن يقول: يا سيدي فلان إن شفيتني أو شفيت مريضي أو قضيت حاجتي، أو منحتني كذا أو وفقت ولدي أو ابنتي أو أعليت مركزي ووظيفتي فلك عليَّ أن أفعل كذا وكذا، وهذا كله من الشرك القبيح الذي لا يليق بالعبد أن يفعله أو أن ينذره، فالنذر عبادة لا تكون إلا لله تعالى.

وقد أخرج البخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجه والنسائي عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

ولأن جاه الصالحين ومكانتهم عند الله إنما تنفعهم هم، كيف يزين الشيطان للناس أن يتركوا الحي الذي لا يموت ويحتمون بالأموات، أو يظنون أنهم ينفعونهم أو يضرون؟! إنه التقليد الأعمى للآباء والأجداد، كما قال أسلافهم: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ» [البقرة: ١٧٠]، «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ» [المائدة: ١٠٤]، «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣].

ومع أن إبراهيم عليه السلام في حواره مع قومه يقول لهم: «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ × أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ × قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» [الشعراء: ٧٢- ٧٤].

فالذي أهلكهم وأوقعهم في الشرك والضلال هو التقليد الأعمى للآباء بغير هدى من الله تعالى، فالأنبياء لهم مكانتهم ومنزلتهم عند الله تعالى، وكذلك الصالحون، يقول الله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ» [الأنعام: ٩٠].

فمن أراد أن ينال الفضل فليقتد بهم وليتأس بهديهم، وقال تعالى: «أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ × الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ × لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فالفضل لهم هم لأنهم آمنوا واتقوا فاستحقوا البشرى في الدارين، أما من يتعدى ويتوسل بهم ويسأل الله تعالى بجاههم فقد وقع بذلك في الشرك القبيح والضلال المبين «وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ» [يونس: ١٠٦].

فليرجع هؤلاء إلى الله تعالى، وليبتعدوا عن التوسل الممنوع الذي يوقعهم في الشرك القبيح، وليتوسلوا إلى الله تعالى بما شرعه وأذن به كالتوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى أو بصفة من صفاته العليا، أو التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به العبد نفسه، أو التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح الذي يرجى إجابة دعائه، وذلك بأن يكون حيًا ويسمع ويقدر على ذلك، والرجوع إلى الحق أولى من التمادي في الباطل، والحق لا يخفى على طالبه.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

وقفات مع التوسل والوسيلة

الحلقة الرابعة

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد بينا أن التوسل قسمان ,توسل مشروع، وتوسل ممنوع ,وعلمنا أن التوسل المشروع أقسام ثلاثة,أما التوسل الممنوع: الأول: هو التوسل إلى الله تعالى بدعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات ونحو ذلك,والثاني: التوسل إلى الله تعالى بفعل العبادات عند القبور والأضرحة بدعاء الله عندها، والبناء عليها، ووضع القناديل والستور ونحو ذلك,وبينا أن أفعال الناس عند القبور لا تتعدى ثلاثة أنواع:

منها ما هو مشروع وهو زيارة القبور لتذكر الآخرة وللسلام على أهلها والدعاء لهم , والثاني: مُبْتَدَع ينافي كمال التوحيد وهو من الوسائل التي تؤدي إلى الشرك وهو قصد عبادة الله تعالى والتقرب إليه عند القبور أو قصد التبرك بها أو البناء عندها وتجصيصها وإسراجها واتخاذها مساجد وشد الرحال إليها ,والثالث: شِرْكٌ ينافي التوحيد وهو صرف شيء من أنواع العبادة لصاحب القبر كندائه ودعائه من دون الله والاستعانة به والطواف حول القبر والذبح والنذر له ونحو ذلك والنوع الثالث من التوسل الممنوع: التوسل إلى الله تعالى بجاه الأنبياء والصالحين ومكانتهم ومنزلتهم عند الله، فهذا حرم سداً للذريعة من الوقوع في التوسل الممنوع، ثم نكمل ما بدأناه بالكلام عن بعض الشبهات والرد عليها فنقول وبالله التوفيق: حينما يجد المخالف أن الحق قد اتضح وظهر جليا وخشي على نفسه أن يرضخ للحق نفث الشيطان له ببعض الشبهات وأوحى إليه ببعض الاعتراضات حتى لا يلين للحق أو يستجيب له ,وصدق الله إذ يقول (وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ

وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)(١٢١) [سورة الأنعام] ,وعند ذلك وجب التعرض لشبهاتهم لدحضها لعل الله أن يهديهم ويرجعوا عن غيهم وضلالهم) ,فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)(٣٢) [سورة يونس].

الشبهة الأولى: ما ثبت في البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا،قال: فيسقون. ففهموا من الحديث أن عمر رضي الله عنه توسل إلى الله تعالى بجاه العباس رضي الله عنه ومكانته عند الله عز وجل،قالوا فإن كان عمر رضي الله عنه توسل إلى الله تعالى بجاه العباس رضي الله عنه ,فنحن من باب أولى يحق لنا أن نتوسل إلى الله تعالى بجاه الأنبياء والصالحين ومكانتهم ومنزلتهم عند الله.هذا الحديث في الاستسقاء ,والاستسقاء طلب السقيا وإنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر,وقد كانوا في عهد النبي ﷺ إذا عدم الماء وحبس المطر لجأوا إلى الله تعالى وصلوا صلاة الاستسقاء فيؤمهم النبي ﷺ ويدعو ربه فينزل المطر بإذن الله تعالى ,وقد شرعت صلاة الاستسقاء لأجل ذلك ,فلما قبض رسول الله ﷺ وأصابهم قحط واحتاجوا إلى المطر خرجوا يصلون صلاة الاستسقاء ,فمن يتقدمهم ليصلي بهم؟ فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا أي يصلي بنا ويدعو لنا فيستجيب الله تعالى له وينزل علينا المطر فيسقينا الله من فضله ,فلما قبض النبي ﷺ قال عمر وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ,فالتوسل هنا بالعباس أي بصلاته ودعائه وليس بجاه العباس رضي الله عنه ومكانته عند الله عز وجل ,ولو كانت كذلك لما جاز لهم أن يلجأوا إلى العباس وعلى مقربة منهم قبر النبي ﷺ ,فلماذا توسلوا بالعباس ولم يتوسلوا بالنبي ﷺ وقبره على مقربة منهم؟! ,فلو كان هذا جائزاً لذهبوا إليه ,وتوسلوا به وما تركوه وتوسلوا بالعباس , لكنهم علموا أن الميت لا يتوسل به ولو كان رسول الله ﷺ ,ومن هنا توسلوا بدعاء العباس فخرج إلى المصلى متواضعاً متذللاً متخشعاً مترسلاً متضرعاً لأن هذا هو المأذون به في الشرع ,ففي التفسير الكبير "قال السدي أصاب الناس قحط على عهد سليمان بن داود عليهما السلام فأتوه فقالوا له يا نبي الله لو خرجت بالناس إلى الاستسقاء فخرجوا وإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول اللهم إنا خلق من خلقك ولا غني لي عن فضلك قال فصب الله تعالى عليهم المطر فقال لهم سليمان عليه السلام ارجعوا فقد استجيب لكم بدعاء غيركم " ,وفي تفسير ابن أبي حاتم " عن الأوزاعي خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهن بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة قالوا اللهم نعم قال اللهم إنا نسمعك تقول (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ) وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا " ,فليس في هذا الحديث أي دليل أو حتى شبهة دليل على قولهم ,فبطل بذلك قولهم واتضح الحق ولله الحمد والمنة.

الشبهة الثانية: أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه حديث عثمان بن حنيف: أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في ",ففهموا من الحديث أنه يدل على جواز التوسل بجاه النبي ﷺ أو غيره من الصالحين،وليس في الحديث ما يدل على ذلك، بل هذا توسل بدعاء النبي ﷺ لا بذاته ولا بجاهه ,فقد علمه النبي ﷺ أن يسأل الله تعالى ويلجأ إليه متوسلا بإيمانه بالنبي ﷺ وتصديقه ومعلوم أن الإيمان برسول الله ﷺ وتصديقه هو إيمان بالله رب العالمين لتقضى له حاجته ,قال شيخ الاسلام ابن تيمية " فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ودعا له النبي ﷺ ولهذا قال وشفعه فيَّ فسأل الله أن يقبل رسوله فيه وهو دعاؤه وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب وما أظهر الله ببركة دعائه من

الخوارق والإبراء من العاهات فإنه ﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره ".فمعنى أتوسل إليك بنبيك " أي بدعاء نبيك ,وهذا كقول الله تعالى (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)(٨٢) [سورة يوسف] ,أي: أهل القرية وأصحاب العير ,أما بعد موت النبي ﷺ فلا يمكن أن يطلب الدعاء من النبي ﷺ.وقال ابن حجر الهيتمي " وإنما علمه النبي ﷺ ذلك ولم يدع له، لأنه أراد أن يحصل منه التوجه وبذل الافتقار والانكسار والاضطرار مستغيثا به ﷺ ليحصل له كمال مقصوده.

الشبهة الثالثة: يوردون حديث: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي،فقال: يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال: يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله،فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك،فقال: غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك ",قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: موضوع ,وجملة القول: أن الحديث لا أصل له عنه ﷺ فلا جرم أن حكم عليه بالبطلان الحافظان الجليلان الذهبي والعسقلاني كما تقدم النقل عنهما,وإنما مدار الحكم على الخبر بالوضع أو الضعف الشديد من حيث الصناعة الحديثية هو انفراد الكذاب أو المتهم بالكذب أو الفاحش الخطأ به.وهكذا اتفقت كلمة الحفاظ كابن تيمية والذهبي والعسقلاني وابن عبد الهادي والسهسواني والألباني وغيرهم على بطلان هذا الحديث.ومن ثم لا ينبغي أن نحتج بالحديث الموضوع وما لا أصل له وما رواه أهل الكذب ,فلا حجة في هذا الحديث فبطل استدلالهم.

الشبهة الرابعة: "توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم " ويرويه بعضهم "إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم ".

والرد عليهم من وجوه منها:

أولاً: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين ".وممن حكم ببطلان هذا الخبر السهسواني والألباني وغيرهما. إذاً هذا خبر باطل لا أصل له في شيء من كتب الحديث البتة.

ثانياً: ثبوت جاهه لا يدل على جواز التوسل به كما لا يجوز لنا السجود له ولا الركوع لأن هذا يحتاج إلى نص شرعي نحكم به على ذلك فلا يؤخذ بالرأي أو الهوى ,بل إن تعظيم جاهه ﷺ يكون باتباعه وطاعته وعدم مخالفة أمره.

ثالثاً : لم يثبت عن أحد من الصحابة الكرام أو من تبعهم بإحسان من السلف الصالح أنه فعل هذا التوسل الممنوع ,مع أنهم أحرص الناس على الخير فلو كان خيراً ما تركوه.

الشبهة الخامسة: يروون حديث:"إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور " وفي رواية "فاستغيثوا بأصحاب القبور ".

والرد عليه من عدة أوجه:

١ - هذا أثر باطل لا أصل له ذكره العجلوني وعزاه للأربعين لابن كمال باشا,وقال شيخ الإسلام: "كلام موضوع مكذوب باتفاق العلماء ", وقال في موضع آخر: هذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة.

٢ - ومما يدل على بطلانه أن الشرع يدل على خلافه ,قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) [سورة فاطر: ١٣، ١٤].

٣ - الأصل في الأموات أنهم لا يسمعون قال تعالى (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) [سورة فاطر : ٢٢]، وقال تعالى (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) [سورة النمل: ٨٠],عز وجل قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [سورة الأعراف: ١٩٤],وقال تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ×وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) [سورة الأحقاف: ٥، ٦]. وهذا هو الأقرب للدليل، وهو الأظهر من

حيث أصول الشريعة، وهو أنَّ الميت لا يسمع كل شيء، لا يسمع من ناداه، لا يسمع من أتاه يُخْبِرُهُ بأشياء، وأنه لا دليل على أنّه يُبَلّغ ما يحصل لأن هذا من خصائص النبي ﷺ، وأنَّ الأحاديث الواردة في ذلك بأنه يُبَلَّغ ونحو ذلك أنها أحاديث ضعيفة لا تقوم بها الحجة.

٦ - الحديث في باب الاستغاثة بغير الله وهي مجمع على تحريمها لأنها شرك وليست من التوسل في شيء.

الشبهة السادسة: حديث: " لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه "، وهو حديث باطل مناقض لدين الإسلام، وضعه بعض المشركين " لو اعتقد أحدكم بحجر لنفعه ". قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة موضوع.كما قال ابن تيمية , وغيره: قال الشيخ على القاري في " موضوعاته ": وقال ابن القيم: هو من كلام عباد الأصنام الذين يحسنون ظنهم بالأحجار.وقال ابن حجر العسقلاني: لا أصل له.

وهل كان عباد الأصنام إلا يحسنون الظن بالحجارة فوقعوا في الشرك الأكبر القبيح المحرم ,يقول الله تعالى""قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) [سورة الشعراء: ٧١],ويقول سبحانه (أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونه أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) [سورة الزمر: ٣] ,ثم إن هذا الحديث يفتح باب الشرك على مصراعيه لأنه يجعل كل من اعتقد في شيء وظنه نافعا حتى لو كان حجرا جعله الله نافعا، وبسببه صار كثير من الناس يحسنون الظن بالكهنة والدجالين والمشعوذين،ويتبركون بالجمادات والأشجار كعمود الرخام الموجود في المسجد الحسيني وعتبة أم هاشم وباب المتولي وشجرة الحنفي ونعل الكلشني وغير ذلك، وكذلك مقاصير الموتى وأخشاب الأضرحة ظانين فيها النفع والبركة وذلك باب واسع من أبواب الشرك فتحه الشيطان الرجيم ليصد الناس عن التوحيد,كما قال تعالى (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ) [سورة النمل: ٢٤]. وقد أصبحت هذه الأحاديث الباطلة التي لا أصل لها سنداً ومتكئاً لشرك الألوهية الذي ما جاءت الرسل إلا للتحذير منه، والأعجب من ذلك احتجاجهم بكلام مجنون ليلى حين قال:

أمر على الديار ديار ليلى
بقلب في جناح الوجد طارا
فامكث في جوانبها بشوق
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي
ولا هبهن أجج في نارا
ولا حسن الرسوم أطار نومي
ولكن حب من سكن الديارا

فدل على بطلان حجتهم وفساد قولهم واعتقادهم وظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

الشبهة السابعة: أوردوا حديث "إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا علي فإن لله في الأرض حاضرا سيحبسه عليكم " أخرجه الطبراني وأبو يعلى من طريق معروف بن حسان السمرقندي عن سعيد بن عروبة عن قتادة عن عبد الله بن بريدة عن ابن مسعود.وهذا حديث ضعيف له علتان:فمعروف غير معروف بل مجهول ,قاله ابن أبي حاتم وقال ابن عدي منكر الحديث " وضعفه الهيثمي في المجمع ,ثم هناك انقطاع بين ابن بريدة وابن مسعود ,وعلى ذلك فالحديث ضعيف بل منكر لا تقوم به حجة،ثم الحديث لو ثبت لدل على الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه كما قال سبحانه (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي من شِيعَتِه عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) [سورة القصص : ١٥], ولا علاقة لهذا بالتوسل بالجاه أو غيره ,فبطل استدلالهم بذلك ولله الحمد والمنة.ومثله حديث (إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد أحدكم غوثا وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل يا عباد الله أغيثوني فإن لله عبادا لا يراهم " رواه الطبراني فهذا حديث ضعيف وفيه انقطاع ,فينبغي أن نتبع الحق ونبتعد عن الشبهات ليستقيم لنا ديننا (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِه وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) [سورة آل عمران: ٧] ,وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله ,والحمد لله رب العالمين.

الغفلة

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

من الأمراض التي استشرت وانتشرت بين الناس مرض الغفلة، وهذا المرض لا يفرق بين جاهل وعالم، بل يصيب كلاً على قدر استجابته، وتقبله للغفلة، والغفلة سهو يعتري العبد من قلة التحفظ والتيقظ، بل تصيب العبد بأنواع من التبلد وقلة الإحساس؛ حتى لا يشعر أنه بَدَّل وغَيَّرَ أو تغير، فيرضى عن نفسه وهو متقلب فيها، وتنشأ أيضًا هذه الغفلة بسبب الذنوب والمعاصي، ولا تزال تزداد حتى تُطبِق على العبد وتُوقعه في الكفر عياذًا بالله تعالى، ولقد جاءت مادة الغفلة في القرآن الكريم في مواضع متعددة، نذكرها في هذا المقال، ثم في المقال القادم إن شاء الله نبين أسباب الغفلة وعلاجها.

الأول: غفلة الكفار المغبونين بالإعراض عن الإيمان، قال جل ذكره: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] أي: في غفلة تامة وجهالة عامة من توحيده تعالى، والإيمان بكتبه ورسله عليهم السلام، فهم لم يعرفوا ربهم حق المعرفة، ولو عرفوه حق المعرفة ما غفلوا عن ذكره، وتوحيده وأوامره ونواهيه؛ لأن المعرفة الحقيقية تُورث القلب تعظيم الله سبحانه ومحبته وخوفه ورجاءه، فيستحي العبد عند ذلك أن يَراه ربُّه على معصية، وكذا في غفلة عن وقوع الحساب، ووجود الثواب والعقاب، وسائر ما جاء به النبي ﷺ.

وذكر غفلتهم عن ذلك عقيب بيان اقتراب الحساب لا يقتضي قصر الغفلة عليه، فإن وقوع تأسفهم وندامتهم، وظهور أثر جهلهم وحماقتهم لما كان مما يقع في يوم الحساب كان سببًا للتعقيب المذكور، مع أن اقتراب الحساب يقتضي أن يفيق العبد، ويبتعد عن الغفلة، ورحم الله من قال:

بالموت ينتبه الفتى من غفلة
صاحبته طول حياته وسنانا

الثاني: غفلة مقيدة بإقرارهم واعترافهم، قال سبحانه: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، فهؤلاء الكفار تشخص أبصارهم، أي ترتفع إلى فوق من دون أن تطرف من شدة الهول، يتحسرون على أنفسهم أن كانوا في غفلة تامة عن يوم القيامة، وعن البعث والجزاء والرجوع إلى الله تعالى، فإنهم لم يكتفوا بأن وصفوا أنفسهم بالغفلة، بل بالظلم؛ لأنهم تركوا آيات الله، وكذَّبوا بها، فانظر كيف صنعت الغفلة بأهلها؟!

لقد أقروا واعترفوا على أنفسهم مع أن المتوقع أن يتنصلوا منها، فقد ذكر الله تعالى أقوامًا، فقال جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ . ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

انظرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وهذا فريق آخر من أهل النار يبالغون في الإنكار، فيشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢١]، لكن أهل الغفلة اعترفوا على أنفسهم بها.

الثالث: غفلة شهد عليهم بها القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩]. قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أنذر هؤلاء المشركين بالله يوم حسرتهم وندمهم على ما فرطوا في جنب الله، وأورثت مساكنهم في الجنة أهل الإيمان بالله والطاعة له، وأدخلوا هم مساكن أهل الإيمان بالله من النار، وأيقن الفريقان بالخلود الدائم والحياة التي لا موت بعدها، فيا لها من حسرة وندامة».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ يَا أَهْلَ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا» [مسلم ٢٨٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: أَلاَ يَتْبَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ، فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلِيبُهُ، وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ، فَيَتْبَعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ: أَلاَ تَتْبَعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ اللَّهُ رَبُّنَا هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ، ثُمَّ يَتَوَارَى، ثُمَّ يَطَّلِعُ فَيَقُولُ: أَلاَ تَتْبَعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ اللَّهُ رَبُّنَا، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ، قَالُوا: وَهَلْ نَرَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ تِلْكَ السَّاعَةَ، ثُمَّ يَتَوَارَى، ثُمَّ يَطَّلِعُ فَيُعَرِّفُهُمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي، فَيَقُومُ الْمُسْلِمُونَ وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ فَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِيَادِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ وَقَوْلُهُمْ عَلَيْهِ سَلَّمْ سَلَّمْ، وَيَبْقَى أَهْلُ النَّارِ فَيُطْرَحُ مِنْهُمْ فِيهَا فَوْجٌ، ثُمَّ يُقَالُ: هَلِ امْتَلأْتِ؟ فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ فَيُقَالُ: هَلِ امْتَلأْتِ؟ فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى إِذَا أُوعِبُوا فِيهَا وَضَعَ الرَّحْمَنُ قَدَمَهُ فِيهَا وَأَزْوَى بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: قَطْ، قَالَتْ: قَطْ قَطْ، فَإِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: أُتِيَ بِالْمَوْتِ مُلَبَّبًا فَيُوقَفُ عَلَى السُّورِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ، فَيُقَالُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وُكِّلَ بِنَا، فَيُضْجَعُ فَيُذْبَحُ ذَبْحًا عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لاَ مَوْتَ» [الترمذي ٢٥٥٧،

الغفلة سهو يعتري العبد من قلة التحفظ والتيقظ، بل تصيب العبد بأنواع من التبلد وقلة الإحساس.

وصححه الألباني في صحيح الجامع ٨٠٢٥].

فائدة: ما جاء في هذا الحديث من صفات الله تعالى مثل الرؤيا والقدم وغيرها نؤمن بها كما جاءت، بلا تكييف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي مَن سلك فيها طريق التسليم، والخائض فيها زائغٌ، والمنكر لها معطِّل، والمكيِّف مشبِّه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فالله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال المفسرون: فهذه هي الحسرة إذا ذُبح الموت، فلو مات أحد فرحًا مات أهل الجنة، ولو مات أحد حزنًا مات أهل النار.

الرابع: غفلة مقيدة بشهادة الملائكة المقربين، قال سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢١-٢٢].

والمعنى: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت أيها الإنسان من الأهوال والشدائد فكشفنا عنك غطاءك، أي: فجلَّيْنا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاينته، فزالت الغفلة عنك.

الخامس: غفلة الأوثان عن عبادة من عبدوها، أعني أن الأوثان كانت غافلة عن عبادة المشركين لها، قال ربنا جل وعز: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ. فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:٢٨-٢٩].

قال القرطبي: «غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل؛ لأنا جماد لا روح فينا». وحتى لو كان هؤلاء الشركاء -الذين عبدوهم من دون الله- أنبياء أو صالحين أو ملائكة أو جن لكانوا عن عبادتهم غافلين، لا يعلمون عنها شيئًا، ويوم القيامة يتبرءون من عبادتهم، وهذه غفلة مطبقة على أهل الشرك؛ لأنهم يعبدون آلهتهم بزعم أنها تقربهم إلى الله، وتدفع عنهم الضر، وتجلب لهم النفع، وما إلى ذلك من افتراءاتهم، فكيف يكون حالهم حين يعلمون أن هؤلاء الشركاء لا يدرون شيئًا عن عبادتهم ولم يشعروا بها؟

فالذين يتوجهون إلى قبور الموتى ومقاصيرهم، فيتمسحون بها، ويعتقدون فيها النفع والضر، ويسجدون على أعتابهم، ويسكبون عندها العبرات، ويسألونهم كشف الكُرُبات، هؤلاء الموتى لا يعلمون عنهم شيئًا، فلا يسمعونهم، ولا يشعرون بهم ولا بغيرهم، يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]. وقال سبحانه: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

السادس: غفلة تبعدهم عن أحكام آيات الله سبحانه، قال جل شأنه: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٣٦]، والغفلة مجاز عن عدم الذكر والمبالاة، أي بسبب تكذيبهم بالآيات، وعدم مبالاتهم بها وتفكرهم فيها، بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية، وإلا فالمكذِّب بأمر لا يكون غافلاً عنه؛ للتنافي بين الأمرين، وفي ذلك إشارة إلى أن من شاهد مثلها لا ينبغي له أن يكذِّب بها مع علمه بها.

ولقد ابتُلينا في أيامنا هذه بغفلة عن أحكام آيات الله؛ لدرجة جعلت الناس يستهينون بالأحكام الشرعية، فيتصرفون معها تارة بالإنكار، وتارة بالطعن في أهلها، وتارة بمسايرة الركب، والطعن في ثوابت هذا الدين، وتارة في القول على الله بغير علم؛

تنشأ الغفلة بسبب الذنوب والمعاصي، ولا تزال تزداد حتى تطبق على العبد وتوقعه في الكفر والعياذ بالله.

بزعم أنهم أوصياء على الدين، مما جعل العفة والحجاب والنقاب تهمة وريبة تُمنَع بها العفيفة الشريفة العابدة المطيعة من ورود الأماكن العامة ودخول الجامعات، وتُفتَح الأبواب المغلقة للسافرة المتبرجة الكاسية العارية بلا نكير ولا تحذير.

السابع: غفلة شُبِّهوا فيها بالأنعام من الحيوان، قال جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فهؤلاء لهم قلوب لا يعقلون بها؛ لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثوابًا ولا عقابًا، ولا يميزون بين الحق والباطل، هؤلاء عطَّلوا قلوبهم وساء فهمهم، وانتكسوا إلى أسفل سافلين، وانحطوا إلى دركة الحيوان البهيم، فاستحقوا أن يُوصفوا بأنهم أضلّ من الأنعام.

وكذلك عطلوا جوارحهم، فمع أنهم لهم أعينًا إلا أنهم لا يبصرون بها الهدى، ولهم آذانًا لا يسمعون بها الحق ولا المواعظ، فكل همهم الطعام والشراب، فهم أضل من الأنعام؛ لأنها تبصر منافعها ومضارها، وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك؛ فقد عطَّلوا جوارحهم، وتصرفوا بأهوائهم، فقال الله عنهم: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

الثامن: غفلة؛ تقدس الله وتعالى عنها وهي منفية عنه سبحانه، يقول سبحانه: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤].

التاسع: غفلة عن أعمال الظالمين تعالى الله وتقدس وتنزه عنها، قال سبحانه ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

العاشر: غفلة يتمناها أهل الكفر لأهل الإيمان؛ لينقضُّوا عليهم ويهلكوهم، قال سبحانه: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢]. فليحذر أهل الإيمان من الغفلة التي يتمناها لهم عدوهم؛ حتى ينقضوا عليهم، ولما غفل المسلمون عن دينهم شيئًا، انقض أعداء الله وبدَّلوا الشرع بقوانين فاسدة باطلة، وغيَّروا حكم الله المحكم، وذهبوا يحكمون بأهوائهم، وعاثوا في الأرض فسادًا؛ ألا فليفق المسلمون من غفلتهم، حتى يزيلوا الكفر والشرك والباطل من على ظهر الأرض، ويغيِّروا ما أفسده المبطلون.

وإن هذه الغفلة لمن أشد العقوبات على أهل المعاصي؛ لأنها تجعلهم سكارى عن الحق، نعوذ بالله من الغفلة، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إني لأحسب أن الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله» [جامع بيان العلم وفضله].

وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله إذا أشكلت عليه مسألة، قال لأصحابه: ما هذا إلا لذنب أحدثتُه، وكان يستغفر، وربما قام وصلى فتنكشف له المسألة، ويقول: رجوت أني تِيبَ عليَّ. فبلغ ذلك الفضيل بن عياض فبكى بكاءً شديدًا، ثم قال: ذلك لقلة ذنبه، فأما غيره فلا ينتبه لهذا إلا أن يشاء الله..».

وجاء في ترجمة وكيع بن الجراح الكوفي -وهو أحد الأئمة الأعلام الحفاظ، وقد كان الناس يحفظون تكلفًا، ويحفظ هو طبعًا-، قال علي بن خشرم: رأيت وكيعًا وما رأيت بيده كتابًا قط، إنما هو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ؟ فقال: ترك المعاصي، ما جرَّبت مثله للحفظ».

الحادي عشر: غفلة المؤمنات عما يقوله عنهن أهل الكيد والنفاق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]. إلى غير ذلك من المواضع الأخرى، وقد أوردنا أكثرها ونكتفي بهذا، ونلتقي في المقال القادم بإذن الله للحديث عن: «الغفلة أسباب وعلاج».

أسباب الغفلة

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

قلنا في العدد الماضي إن الغفلة سهوٌ يعتري العبد من قلة التحفظ والتيقظ، وأنها تصيب العبد بأنواع من التبلد وقلة الإحساس، حتى لا يشعر أنه بدَّل وغيَّر أو تغير، فيرضى عن نفسه وهو متقلب في الغفلة، وقد انغمس في الدنيا وشهواتها ونسي الآخرة، لدرجة أن قلبه صار لا يفقه، وعينه لا ترى، وأذنه لا تسمع، فقد عطَّل جوارحه، وحرم نفسه الانتفاع بها، وعند ذلك اجتهد في تعمير دنياه، وتخريب أخراه، فكرِه لقاء الله واليوم الآخر؛ لأنه يكره أن ينتقل من العمران إلى الخراب، فضيَّع نفسه بذلك.

والحقيقة أن لهذه الغفلة أسبابًا ينبغي أن نعرفها؛ حتى نتمكن من تحديد الداء لمعرفة الدواء..

فنقول: إن للغفلة أسبابًا كثيرة، منها ما يلي:

أولاً: الجهل بالله عز وجل وأسمائه وصفاته:

فالجهل نقيض العلم، والجهل ظلمة، والظلمة تحيط بالقلب، فيَعُمّه سواد يحجبه عن الله تعالى، وعظمته وعلمه وحكمته، فالجهل بالله أول الآفات، وعنوان المخالفات، ورأس الشقاوات، وإن أهل الجهل بالله لفي قولٍ مُختلفٍ مضطرب، لا تجد قلوبهم تأتلف على شيء، فقلوبهم متشعبة، ونياتهم مختلفة، وهمَمهم دنية..

فالجهل بالله وشرائعه ووعده ووعيده هو سبب كل شر وفساد في الأرض. وكثير من الناس يعتقدون أن الله تعالى هو ربهم، ولكن ينقصهم العلم بأن الله معهم حيث ما كانوا، يطّلع عليهم، ويعلم سرهم ونجواهم، ويعلم مستقرهم ووقع خطاهم، قال الله تعالى ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

وينقصهم العلم بأن الله تعالى يراهم أينما كانوا، وأن الله شديد العقاب، وينقصهم العلم بأن الله يثيب ويعاقب، وأنه شديد العذاب، كثير الثواب، ولما جهلوا عقاب الله لم يبالوا ما فعلوا من المعاصي، وجهلوا مراقبة ربهم لهم؛ فلم يهمهم ما وقعوا فيه، وجهلوا عظمته وكبرياءه فلم يخافوه، ولم يحبوه، ولم يرجوه، وجهلوا ما أُمروا به فلم يمتثلوا ما نُهوا عنه، ولم ينزجروا، وكلما زاد الجهل كان العبد أكثر جرأة على حدود الله ومحارمه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والقرآن الكريم يندِّد بالجهل وأهله، ويحذِّر منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ إلى

غير ذلك من الآيات التي تدل على ذم الجهل بالله والجهل بدينه.

فإذا كثر الجهل وعم؛ كثر الإشراك بالله، وكثرت البدع والمنكرات، والأمور المكفرات؛ لبُعْد أصحابها وإعراضهم عن تعلم دين الله تعالى.

إن الذين لا يعرفون الله تعالى حق معرفته يعصونه، بل يكرهونه؛ لأنهم يعبدون الشيطان من دونه، وقد حذر الله عباده من هذا المسلك، فقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

وقال ابن القيّم -رحمه الله تعالى-: «أهل الجهل والظّلم الّذين جمعوا بين الجهل بما جاء به النّبيّ ﷺ والظّلم باتّباع أهوائهم الّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

وهؤلاء قسمان: أحدهما: الّذين يحسبون أنّهم على علم وهدًى، وهم أهل الجهل والضّلال، فهؤلاء أهل الجهل المركّب الّذين يجهلون الحقّ، ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، فهم لاعتقادهم الشّيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السّراب الّذي ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وهكذا هؤلاء.. فأعمالهم وعلومهم بمنزلة السّراب الذي يكون صاحبه أحوج ما هو إليه، ولم يقتصر على مجرّد الخيبة والحرمان، كما هو الحال فيمن أمّ السّراب، فلم يجده ماء، بل انضاف إلى ذلك أنّه وجد عنده أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين سبحانه وتعالى، فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفّاه إيّاه بمثاقيل الذّرّ، وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباء منثورًا؛ إذ لم يكن خالصًا لوجهه، ولا على سنّة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشّبهات الباطلة الّتي كان يظنّها علومًا نافعة كذلك هباءً منثورًا، فصارت أعماله وعلومه هباء منثورًا كذلك.

والقسم الثّاني من هذا الصّنف: أصحاب الظّلمات، وهم المنغمسون في الجهل؛ بحيث قد أحاط بهم من كلّ وجه، فهم بمنزلة الأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً، فهؤلاء أعمالهم الّتي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرّد التّقليد واتّباع الآباء من غير نور من الله تعالى، كظلمات عديدة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظّلم واتّباع الهوى، وظلمة الشّكّ والرّيب، وظلمة الإعراض عن الحقّ الّذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم» ا.هـ.

ومن غفلة هؤلاء الجهلة الضُّلال:

ادعاؤهم أن قبرَ فلانٍ الترياقُ المجرَّبُ في إجابة الدعوة، وكشف الشدة، وإزالة الكربة، وطمس الغمة؛ فخضعوا للقبور، ودعوا من فيها، واعتقدوا فيهم النفع وكشف الضر، وسألوهم كما يُسأل الحي القيوم، فما قدروا الله حق قدره، وما عرفوه سبحانه، ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

ومن غفلة هؤلاء الجهلة الضلال

أولاً: زعمهم أن شرع الله لا يصلح لهذه الأزمان:

بل يصلح في عهد الخيمة والبعير، أما في عهد الطائرة والصاروخ والإنترنت، فلا يصلح هذا الدين، ويرون أن شرع الله قاصر، وحكم الله لا يصلح لحل مشاكل البشر!!

ثانيًا: الاغترار بالدنيا والانغماس في شهواتها:

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ :٨]، وقال جل وعلا: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا». [مسلم ١٠٥٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبغض كل جعظري جواظ سخاب بالأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة» [ابن حبان (١ / ٢٧٣، رقم ٧٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٨٧٨].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ» [الترمذي ٢٤٦٥، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٩٤٩].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» [البخاري ٦٤١٦].

فتعالوا نتدبر هذا المثل الذي ضربه الله كي نستفيد منه، يقول الله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا... ﴾ الآيات [الكهف: ٣٢-٤٤].

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ ﴾ أي بين رجل من أهل الغفلة، ورجل من أهل الإيمان، ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا ﴾، أما المؤمن فقد آمن ورضي بالله ربًا فأحبه وأطاعه، وأما الذي يحتاج إلى مزيد من النعم كي يؤمن فهو الكافر، فحين يقول: ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا ﴾ أي للرجل الكافر؛ كي يستبين له فضل الله ونعمه فيؤمن، كما قال الله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وانظر إلى فضل الله وعطائه ﴿ جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾، والجنة من الاجْتِنَانِ وهو السَّتْر لِتَكَاثُفِ أشجارها، وتَظْلِيلِها بِالْتِفَافِ أغْصَانِهَا فكأن الجنتين سترت أوراقها - لشدة التفافهما - ما بالجنتين، فلا يرى مَن بخارجها ما بداخلها.

وهاتان الجنتان من أعناب أي كرم العنب، وفي هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصًا أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حفّ بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تنمو بها الثمار وتنضج، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعًا.

فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف كانت ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، ولم تكتم شيئًا من خيرها، أي لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة، فقد اجتمعت له جملة من النعم.. بستانين من العنب والفاكهة، وزينهما بالشجرة الطيبة المثمرة التي ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وكانت هاتان الجنتان فيهما زيادة على ذلك الزرع، وهو القوت الضروري الذي لا غنى عنه، فقد جمعت كل أصناف النعم والخير، وبارك الله ثمارها كثرةً وغزارة ونماء، وفجّر الأنهار فيها في كل جوانبها، وزيادة على ذلك كانت خزائنه ممتلئة بالمال ذهبًا وفضة، فماذا قال بعد كل هذه النعم، هل شكرها؟ أم ماذا قال؟ ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا ﴾، بعد كل هذه النعم يقول أنا، أنت من؟ أنت الذي إذا جعت اشتكيت، وإذا شبعت اشتكيت، إن قل مالك اشتكيت، وإن زاد اشتكيت، إن تزوجت اشتكيت، وإن لم تتزوج اشتكيت، إن رُزقت الولد اشتكيت، وإن حرمت اشتكيت، إن علا منصبك اشتكيت، وإن دنا اشتكيت، فلا راحة في الدنيا:

فبدلاً من أن يشكر ربه إذا به يقول أنا، ويا ليته افتخر بشيء يستحق الافتخار، ولكنه قال: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً ﴾، والمال عرض زائل، واسمه يدل عليه.

ودخل الغني الغافل يفاخر بماله وعشيرته ونفره إلى بستانه، ورأى ما هو عليه من حسن وبهاء، وثمار

وخصب، وزينة وازدهار، فاغتر بالدنيا وزينتها، وظنها تدوم له ولا تفنى، فقال لصاحبه المؤمن: ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدًا، ولا أن تخرب، ثم قاده غروره إلى الكفر بالله والدار الآخرة والمعاد، فقال: إنه لا يظن أن يكون هناك حشر، ولا معاد، ولا حساب، ثم زاد غروره فقال: إن كان هناك ساعة وحشر، وبعث ونشور، وقيامة ومعاد إلى الله، فإنه سيجد عند الله خيرًا من هذا البستان؛ لأنه يزعم أن سعيد الدنيا سعيد الآخرة ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وعند ذلك انبرى له صاحبه المؤمن يعظه ويزجره عما هو عليه من الكفر والغي والاغترار: ما هذا الذي تقول أكفرتَ بالله الذي خلقك من سلالة من طين، ثم جعل نسلك من ماء مهين، ثم سواك رجلاً قويًا بالغًا؟ لقد كان الأولى بك أن تحمد الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد، وبدلاً من أن تقول ما قلت أن تقول: ما شاء الله لا قوة لي على تحصيله إلا بمعونة الله، ومع أني وأنت تراني أفقر منك، وأقل منك مالاً وولدًا، فإني أرجو الله تعالى أن يعوضني خيرًا، وأن يرزقني ربي الغنى والولد لإيماني وإخلاصي لله، وأن يرزقني جنة تكون خيرًا من جنتك، وأن يسلب منك ما أنعم به عليك؛ فيخرب عليك جنتك بأن يرسل عليها مطرًا من السماء، يدمر زروعها، ويقتلع أشجارها، فتصبح بلقعًا قَفْرًا لا تُنبت شيئًا، أو يغور ماؤها في الأرض ويتوارى، فلا تستطيع العثور عليه لإخراجه لسقيها، فتموت الأرض، وتُحرم خيرها فترجع فقيرًا.

ونزلت الكوارث والمصائب التي حذر منها المؤمن، وأحيط بثمار جنته التي كان يقول: إنه لا يظن أن تبيد أبدًا، فقد حلّ بها ما كان يحذره منه صاحبه المؤمن من دمار وغور ماء، فأصبحت الجنة بلقعًا قفرًا خاوية على عروشها، ولكن الغرور ما يزال به حتى أنفق عليها ما كان يدخره من ذهب وفضة مما امتلأت به خزائنه حتى أتى على آخره، فأخذ يضرب كفًا بكفٍّ أسفًا وندمًا وحزنًا على ما حلّ بها، وعلى ما أنفق عليها من مال، وهي كما هي خراب لم تثمر، ويقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا.

ومع تندمه لم ينفعه الندم؛ لأنه تحسر على ضياع الخير والنعم التي كان فيها، ولم يتحسر على كفره؛ تعظيمًا لله وندمًا على ذلك، فلم يكن ندمه توبة، وإنما كان متحسرًا على ما فاته من النعم.

لقد أطبقت الغفلة على أهل الدنيا، فحرمتهم أفضل ما فيها من التوحيد ومحبة الملك، الفعال لما يريد، وأوقعتهم في الوحل وفتنتهم، وأغرقتهم في الحطام الفاني؛ فلم يفيقوا منها إلا على دمار وضياع، ولكن بعد فوات الأوان.

أسأل الله تعالى أن يهدينا إلى الحق المبين، وأن يعافينا وإياكم من الغفلة، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا؛ إنه علي كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وصلي الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله أجمعين.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

تنبيه هام

نود التنبيه على قراء المجلة الكرام أنه قد زاد الاشتراك السنوي الداخلي من ٢٠ جنيهاً إلى ٢٥ جنيهاً وذلك نظراً لارتفاع التخليص البريدي.

وتقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

الحلقة الثانية

أسباب الغفلة

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد: فقد قلنا إن للغفلة أسبابًا منها: أولاً: الجهل بالله عز وجل وأسمائه وصفاته. وثانيًا: الاغترار بالدنيا والانغماس في شهواتها. ونكمل بقية أسباب الغفلة؛ فنقول وبالله تعالى التوفيق:

ثالثًا: صحبة السوء

فالمرء على دين خليله كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل» [صحيح الجامع ٣٥٤٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيّ» [صحيح الجامع ٦٣٥٠].

قال سبحانه في وصف خليل السوء ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، نزلت في عقبة بن أبي معيط، وذلك أن عقبة كان لا يَقْدَمُ من سفر إلا صنع طعامًا فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ، فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعامًا فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ، فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان عقبة صديقًا لأبيّ بن خلف، فلما أخبر أبي بن خلف قال له: يا عقبة صبأت؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييتُ أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدًا إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة، فقال عليه السلام: «لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوتُ رأسك بالسيف» فقتل عقبة يوم بدر صبرًا. وأما أبي بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أحد بيده.

وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه في وجهه، فاحترق خداه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت» [أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨٨) بسند صحيح، وانظر الدر المنثور، وأسباب النزول للواحدي، وتفسير البغوي].

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»

[البخاري ٥٥٣٤، ومسلم ٢٦٢٨].

قال النووي رحمه الله: «فيه تمثيله ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فُجْرُه وبَطَالَتُه. ونحو ذلك من الأنواع المذمومة».

وانظر إلى أبي طالب حين حضرته الوفاة قال له النبي ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله»، وفي رواية «أي عم إنك أعظمهم عليَّ حقًا، وأحسنهم عندي يدًا، ولأنت أعظم حقًا علي من والدي، فقل كلمة تجب لك عليَّ بها الشفاعة يوم القيامة، قل: لا إله إلا الله» فأراد أن يتلفظ بها، وأراد أن ينجو من النار، وأن يدخل في رحمة الواحد الغفار، وكاد أن يفعل، لكن صحبة السوء - أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة- تضرّ وتُعمي وتُصم، فقد قال له أبو جهل: كيف ترغب عن ملة آبائك وأجدادك؟ ورسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فهذا من شؤم الصحبة السيئة الخبيثة، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة ١١٣]» [البخاري ١٣٦٠، ومسلم ٢٤].

وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء....» الحديث [مسلم ٢٧٦٦].

لقد انتفع الرجل بابتعاده عن الصحبة السيئة، والحرص على الصحبة الطيبة، وختم الله تعالى له بالخير على اقترابه من الصحبة الطيبة، فصُحبة السوء تمنع من الهداية والاستقامة، والالتزام والتمسك بشرع الله، وتودي بصاحبها إلى الغفلة والبعد عن دين الله تعالى.

وقد أوصى رجل ابنه فقال: يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك - أي كفاك - واصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى سيئة سدَّها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدَّق قولك، وإن حاولت أمرًا أمرك -أي أعانك- وإن تنازعتما آثرك. ويقول الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

رابعًا: الانصراف عن ذكر الله

من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى الغفلة البعد عن ذكر الله تعالى، قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، فذكر الله تعالى تطمئن به القلوب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وتنفرج به الكروب، وينال العبد به محبة علام الغيوب، وبذكر الله يحصل النصر والتمكين، ويثبِّت الله القلب في مواطن الضعف قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وأما ترك الذكر فيؤدي إلى ضنك العيش في الدنيا، والعمى في الآخرة، ويورث الوبال والحسرة، والضلال والغفلة، قال سبحانه: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ

ترك الذكر يؤدي إلى ضنك العيش في الدنيا والعمى في الآخرة، ويورث الوبال والحسرة، والضلال والغفلة

الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها» [أخرجه الطبراني والبيهقي بأسانيد أحدها جيد كما قال المنذري وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ٤٩٨٦].

وبقدر الإعراض عن ذكر الله تعالى تكون الغفلة والإعراض الكلي؛ مما يسبب الشقاوة الكلية، فالذين يعرضون عن ذكر الله يلجأون إلى ذكر من يتوهمون فيهم أنهم شركاء وأنداد لله، فيعبدونهم أي يعظمونهم ويخضعون لهم، ويدعونهم ويستمدون منهم المدد والبركات، ويرفعون إليهم الحاجات، ويرجون عند ذكر أسمائهم الخير والنعمة، ويتوقعون من سخطهم الشر والنقمة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، بل إنهم ينسون بغير ذكر الله، ولا يسعدون بذكره سبحانه، قال جل شأنه ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وهذا الانصراف عن ذكر الله تعالى سوّل لبعض الناس أن يبتدعوا ذكرًا يتراقصون به ويتمايلون، ويلهجون بكلمات يزعمونها ذكرًا، ولم يعرفوا من ذكر الله إلا هذا النوع الذي لا أصل له في كتاب الله ولا في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

خامسًا: الإعراض عن النصيحة

الإنسان في طريقه تنتابه عوارض تُباعد بينه وبين الله تعالى، وتوقعه في المعصية والمخالفة فتورثه الذل والمهانة، ويكون في أمَسّ الحاجة إلى من ينصحه ليبصِّره بعيبه، وينقذه مما هو فيه من غيّ وتيه، والدين في كلمة واحدة: النصيحة، كما قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة ثلاث مرار، قالوا: يا رسول الله لمن؟ قال: لله، ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» [مسلم ٥٥].

فجعل الدين محصورًا في النصيحة؛ لأن حقيقة النُصْح: إخلاص القول والعمل لله جل وعلا، وهو يتضمن أن يخلص المتابعة، ويخلص اتباع الكتاب، ويكون دائمًا بالطاعة، ودائمًا بمحبة الخير للأمة، فتقدم النصيحة لطالب العلم بحسب مقامه بأدب واحترام، وبيان للحق بدليله، من غير عُنف ولا تعالٍ، بل بالحكمة والموعظة الحسنة، وبدلاً من أن يحرص على النصيحة تراه يُعرض عنها، وينفر منها فلا يحب الناصحين، ولا يتذكر مع المتذكرين، بل إن كثيرًا منهم تخوفه بالله فلا يخاف، وتذكّره بعقاب الله فلا يلقي لك بالاً، تذكره بالآخرة والجنة والنار فلا يجد في نفسه إقبالاً عليك، ولا يجد لهذه المواعظ تأثيرًا في نفسه ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ﴿أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧]، ولكنهم مع ذلك لا يلقون للمواعظ بالاً، بل إن كثيرًا منهم كما قال الله تعالى ﴿وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧]، فلا يمكن أن يقبل النصيحة من أي أحد، كائنًا من كان، فأصبحوا في غفلة وغمرة عن هذه المعاني العظيمة ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وهذا الإعراض يورث الغفلة، بل هو من أعظم أسبابها، نعوذ بالله من الخذلان.

سادسًا: التسويف والتمني

التسويف: التأخير، وإذا قال: سوف أفعل، والتمني: حديث النفس بما يكون مستقبلاً وما لا يكون، وقيل إرادة تتعلق بالمستقبل، فهو بدلاً من أن يسرع بالعودة إلى الله تعالى يسوفها ويؤخرها، والمسوِّف هو الذي كلما همّت نفسه بفعل الخير يعوقها بـ(سوف)، فلا يزال على ذلك حتى يأتيه الموت فيقول كما

الإنسان في طريقه تنتابه عوارض تباعد بينه وبين الله تعالى، وتورثه الذل والمهانة، ويكون في أمَسّ الحاجة إلى من ينصحه ليبصره بعيبه

قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فياتيه قول الحق: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ويتمنى على الله الأماني، فالتسويف والتمني داءان خطيران، يفسدان القلب والوقت، ويَعْرُجَانِ بالمرء إلى عالم الخيال، وهما صفة بليد الحس، عديم المبالاة، الذي كلَّما همَّت نفسه بخير، إما يعوقها بسوف حتى يفجأه الموت، وإما يركب بها بحر التمني، وهو بحر لا ساحل له، يدمن ركوبه مفاليس العالم.

قيل لبعض الحكماء: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: من بَعُدت همته، واتسعت أمنيته، وقصرت آلته، وقلت مقدرته.

فَلْيَدَعِ المسوِّف الأماني الكاذبة، والخيالات الكاسدة وأحلام اليقظة التي تضيّع الوقت وتطيش في الميزان، فالله تعالى يقول: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] وقال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك في أهل القبور»، فقال لي ابن عمر: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك؛ فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدًا» [صحيح الترمذي للألباني ٢٣٣٣]، وأصل الحديث رواه البخاري ٦٤١٦].

أسوأ الناس حالاً: من بَعُدت همته، واتسعت أمنيته، وقصرت آلته، وقلت مقدرته

والتسويف آفة لا تنتهي، ورجاء المعدوم وانتظاره سَفَه، وإن مَثَل المسوِّف كمثل رجل أراد أن يخلع شجرة فعمد إليها، وكاد أن يخلعها، ولكنه لم يصبر وتركها، وقال آتيها غدًا، وهو لا يدري أنها كلما كبرت كلما اشتدت، وهو كلما كبر كلما ضعف، فكيف له بعد ما قويت واشتدت وضعف هو؟!!

فالتسويف والتمني يؤديان حتمًا للغفلة التي تطبق على العبد، ولا تنفك عنه؛ لاجتماع المعاصي عليه، وعدم التحول عنها أو التوبة منها، فتحول بينه وبين ربه، وتجتمع عليه فتقتله وتبيده؛ فيصيبه الهلاك والدمار.

سابعًا: الانغماس في الشهوات وفي الشبهات

الانغماس في الشهوات والشبهات يجعل على العينين غشاوة، وفي السمع وقر، وعلى القلب أقفال، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الدنيا من أنواع الملاذ والشهوات من النِّسَاء وَالْبَنِينَ، فبدأ بالنِّسَاء؛ لأن الفتنة بهن أشدّ، ثم بالبنين، ثم بالمال من الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ، وَالأَنْعَامِ من الإبل والبقر والغنم، وَالْحَرْثِ أي الأرض للغرس وللزراعة، ثم يخبر أن ذلك كله مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وزينتها الفانية الزائلة.

وكما قال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب! وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفها بالمكاره، ثم

قال: يا جبريل ! اذهب فانظر إليها، فذهب، ثم نظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب ! وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، فلما خلق الله النار، قال: يا جبريل ! فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها». [صحيح الجامع ٥٢١٠].

فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات، وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام؛ فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء، والصبر على الأذى، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام، وتصفيها من ظلمة شهواتها؛ فتنجو من غوائل آفاتها.

وقال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حب شهواتها محصورًا في سجن هواها، مقهورًا مغلولاً زمامه في يدها تجره حيث شاءت، فتمنع قلبه من الفوائد.

وقال جعفر بن حميد: أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يُدرك إلا بترك النعيم. وقال أبو يحيى الوراق: من أرضى الجوارح بالشهوات؛ فقد غرس في قلبه شجر الندامات.

وقال وهيب بن الورد: ما زاد على الخبز فهو شهوة. وقال أيضًا: من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل.

وقال قتادة: «إذا كان الرجل كلما هوى شيئًا ركبه، وكلما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى؛ فقد اتخذ إلهه هواه».

فإذا أوغلوا في الشهوات، وفي اللهو، وفي اللعب، صاروا إلى الغفلة ولم يفيقوا منها ولم ينفكوا عنها، فالتوسع في الملذات والاستكثار من الشهوات، يؤدي إلى التكاسل عن العبادة والطاعات، والتكبر على الناس مع فعل الموبقات. والشبهات قال الله تعالى عنها: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]؛ فتدخل عليه شبهات في العلم وفي الفهم، تورث الابتداع وعدم وضوح المنهج، والغفلة عن الحق المبين، ويتعلق بالمتشابه ابتغاء الفتنة؛ لما في قلبه من الزيغ، فلا بد من ردّ المتشابه إلى المحكم.

قال عبد الرحمن بن مهدي: «أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم»، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم» [البخاري ٤٥٤٧].

أسأل الله تعالى أن يهدينا إلى الحق المبين، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن ينجينا وإياكم من الغفلة، إنه علي كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وصلي الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله أجمعين. وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

إذا كان الرجل كلما هوى شيئًا ركبه، وكلما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى؛ فقد اتخذ إلهه هواه

الحلقة الثالثة

أسباب الغفلة

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد سبق أن قلنا: إن للغفلة أسبابًا، منها: أولاً: الجهل بالله عز وجل وأسمائه وصفاته. ثانيًا: الاغترار بالدنيا والانغماس في شهواتها. ثالثًا: صحبة السوء.

رابعًا: الانصراف عن ذكر الله.
خامسًا: الإعراض عن النصيحة.
سادسًا: التسويف والتمني.
سابعًا: الانغماس في الشهوات وفي الشبهات.
ونكمل بقية أسباب الغفلة؛ فنقول وبالله التوفيق:

ثامنًا: نسيان الموت والآخرة والمصير

مع أن الناس يودِّعون في كل يوم الأهل والأحباب والخلان والأصحاب إلا أنهم ينسون، أو يتناسون الموت والقبر، والبعث والنشور، والآخرة والمصير الذي ينتظرهم، ومن ثَم ينشغلون باللهو واللعب، يقول الله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، ويقول جل شأنه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

وكيف ينسى العبد الموت وهو أقرب إليه من شراك نعله؟، كيف ينسى الموت وما هو إلا نَفَس يخرج ثم لا يعود؟، كيف ينسى الموت والأجل محتوم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال تبارك وتعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

إن نسيان الموت يؤدي إلى الغفلة التي تؤدي إلى التعلق والانهماك في لذات الدنيا وشواغلها، وتسويف التوبة، والتكاسل عن الطاعات، ولذا قيل: مَن أكثر ذكر الموت أكرمه الله بثلاث: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي ذكر الموت ابتُلي بثلاث: تسويف التوبة، وترك الرضا، والتكاسل عن العبادة.

ولأن نسيان الموت يؤدي إلى نسيان الاستعداد لما بعد الموت، فيُبتلى بنسيان الموت وسكراته، والقبر وأهواله، وعذابه ونعيمه، ووضع الموازين، ونشر الدواوين، والمرور على الصراط، ونسيان النار وما أعد الله فيها لأصحاب القلوب القاسية، وهذا الذي يبعده عن أن ينتفع بالموت، والله تعالى يقول ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، ويقول سبحانه ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

تاسعًا: البدع والأهواء

وهذا حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدًى وعلم؛ فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن

عقائدهم
وأعمالهم التي ترتبت
عليها كانت كسراب يُرى في أعين الناظرين ماء، ولا حقيقة له:

إن سموم البدع والأهواء والضلالات الواقعة في القلب مهلكة هلاكًا يحول بين العبد وربه، ومن ثَم يتحول إلى الغفلة المطبقة التي لا يفيق منها إلا على الدمار المحقق إلا أن يشاء الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالأَهْوَاءِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ» [أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١ / ٢٠٧ رقم ٦٦٤)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير معلل بن نفيل وهو ثقة].

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلاَّتِ الْفِتَنِ». [رواه أحمد (١٩٢٧٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٢ رقم ٥٢).].

فهم الصادّون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى ما يخالفها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون السنة بدعة، والبدعة سنة، والمنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وفي مسند ابن الجعد وغيره قال سفيان الثوري: «البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها».

وفي اعتقاد أهل السنة للالكائي: دخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء، فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله. قال: لا. قال، تقومان عني وإلا قمت، فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرآ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرآ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي».

وقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْضُهُ أَنْ يُذْهَبَ بِأَصْحَابِهِ، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ، أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَى مَا عِنْدَهُ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ؛ فَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ». [أخرجه الدرامي ١٤٣].

ولا تزال البدع والأهواء بأصحابها حتى توقعهم في المهالك، وتوردهم المعاطب، وتلقي بهم في أودية الشبهات والشهوات، فتراهم بدلّوا الحق إلى الباطل، والتوحيد إلى الشرك، فنصبوا القباب والأضرحة، وراحوا يتقربون إليها بأصناف من العبادات يتمسحون بها، ويتعبدون عندها، ويطلبون منها ما لا يُطلب إلا من الله تعالى، وأقاموا الموالد التي يتفشى فيها الشرك بكل أنواعه، من اعتقاد النفع والضر في المقبور، وسؤاله والتعلق به، إلى الاستغاثة والرجاء، والاستعانة وطلب الشفاء، والنذر والذبح والطواف، إلى غير ذلك من العبادات التي لا تصلح إلا لله رب العالمين.

وإذا أنكر عليهم منكر اتهموه بجملة من التُّهَم أعدوها بليل؛ ليصموا بها أهل التوحيد، وهذا من ضلالهم وغيّهم وافترائهم على دين الله رب العالمين، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

وترى فريقًا منهم قد لجأ إلى السحر والدجل، والشعوذة والأحجبة، والتمائم، ونشر الوهم والباطل مقابل دراهم معدودة وأباطيل قد حبكوا إفكها، وأشاعوا زورًا أن فلانًا مكشوف عنه الحجاب، وهذا يدري المخبوء خلف الباب وتحت الأعتاب، وهذا تؤخذ منه النفحات والبركات. وهذا ضلال قديم وبهتان عظيم.

وترى فريقًا آخر من أهل الأهواء بدلّوا شريعة الله المحكمة إلى قوانين باطلة، وشرائع زائغة؛ فبدلّوا نصوص الشريعة بالأعراف والعادات والأحوال بدون قيود أو ضوابط، مما أفضى إلى تبديل الشريعة ونسخها؛ لأن أهل الأهواء والبدع لن يتورعوا عن تبديل النصوص القطعية بالعرف؛ ليتوصلوا بذلك إلى إسقاط الواجبات، واستحلال المحرمات، وترك التحاكم إليها، وإحلال القوانين الوضعية الباطلة محلها، بزعم أنها لا تصلح في

لا تزال البدع والأهواء بأصحابها حتى توقعهم في المهالك، وتوردهم المعاطب، وتلقي بهم في أودية الشبهات والشهوات، فتراهم بدّلوا الحق إلى الباطل

زماننا، وما شابه ذلك من الردود البالية السقيمة، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وترى فريقًا منهم بعد ما علموا الحق وعملوا به دخلت عليهم الأهواء والمصالح والأغراض؛ فحوَّلتهم عن الحق الذي تعلموه وعلَّموه إلى التفرق والتحزب والتعصب والعمى، فلا يؤاخي إلا من كان على هواه، سواء كان يعمل بالحق أو لا يعمل به، فالعمدة في محبته وولائه موافقته في مذهبه وإن كان باطلاً، ثم يرقع بعض الشبهات ويتخذها دينًا يوالي عليه ويعادي، ويصدق عليه قول القائل:

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

ويوزع الأحكام على خلق الله بلا روية ولا باعث إلا من هواه، فهو في كل يوم يبتعد عن دينه، ويزداد قربًا من الضلال، حتى يصير من أئمة الضلال، وهو يحسب أنه من المهتدين، وكذلك الذين يتخذون الدين ستارًا للكسب المادي والثراء الفاحش فيأكلون من حرام، ولا يسأل الواحد نفسه عن كسبه أهو من الحلال أو الحرام، ألا ساء ما يزرون وصدق الله ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤-٥].

إنهم في غفلة لا يفيقون منها -إلا أن يشاء الله- إلا على تحسرهم ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١-٥٢].

فالناس فريقان: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

عاشرًا: نسبة النعمة إلى غير المنعم بها

المتفضل بالنّعمة على الحقيقة هو الله جل وعلا، قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهذا الصنف من الناس ينسبُ النّعمة إلى غيرِ مُوردِها والمنعمِ بها، فترَاه ينسبها إلى نفسه، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، فيقول هذا بسبب جدِّي واجتهادي وكفاءتي وصبري وكفاحي وعلمي.

أو ينسبها إلى أسبابها، وينسَى مسبِّبها وربَّها، فعن زَيْد بن خَالد الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قال: صلى لنا رسول اللَّه ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ على إِثْرِ سَمَاءٍ كانت من اللَّيْلَةِ، فلما انْصَرَفَ أَقْبَلَ على الناس؛ فقال: هل تَدْرُونَ مَاذَا قال رَبُّكُمْ؟ قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: «أَصْبَحَ من عِبَادِي مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، فَأَمَّا من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا من قال بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» [البخاري ٨٤٦، ومسلم ٧١].

وكما قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

والأسبابُ لا يُنكَر أثرُها ولا الأخذُ بها، ولكنّ الذي يُنكَر الغفلةُ عن الله سبحانه وتعالى.

ومنها أيضًا قول قائلهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ولولا قوة الفرامل لمات الركاب، ونحو هذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان ووقايته منسوبة إلى الكلب، وحفظه منسوبًا لقوة الفرامل، وهذا من الشرك بالله، بل ينبغي أن ينسب الفضل لصاحبه، وهو الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق يحفر معنا حتى رأيت التراب قد وارى بياض بطنه، أو قال شعره، وهو يقول: «والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا» [البخاري: ٢٨٣٧، ومسلم ١٨٠٣].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فمن تعوَّد أن ينسب الفضل لغير الله تعالى عاش في غفلة عن ربه فلم يشكر له نعمة، ولم يشعر بفضله سبحانه، بل ربما ينسب الفضل للبدوي والرفاعي والدسوقي، وغيرهم ممن أطلق عليهم المدركون بالكون، الذين يديرون الكون، ويدبرون أمره كما يزعمون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

> بعض أهل الأهواء دخلت عليهم المصالح والأغراض، فحوَّلتهم عن الحق الذي تعلموه وعلَّموه إلى التفرق والتحزب والتعصب والعمى، فلا يؤاخي إلا من كان على هواه، سواء كان يعمل بالحق أو لا يعمل به

حادي عشر: عدم الحرص على طلب العلم

العبد في أمسّ الحاجة إلى التعلم؛ ليرفع من شأنه، ولكي

يحسن التعبد لربه، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ويقول سبحانه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني: قيل لأبي شروان: أيحسن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إن كانت الجهالة تقبح منه فالتعلم يحسن به، فقيل: وإلى متى يحسن منه؟ فقال: ما حسنت به الحياة.

وقيل لحكيم: ما حدّ التعلم؟ فقال: حد الحياة، أي يجب له أن يتعلم ما دام حيًا.

وقال شيخ للمأمون: أقبيح بي أن أستفهم؟ فقال: بل قبيح بك أن تستبهم!.

والعلم في الأصل أفضل من الجهل، وكل الناس يحبون الانتماء والانتساب إلى العلم، وينهربون ويربأون بأنفسهم أن يُنسَبوا إلى الجهل، وهناك تفاوت في العلوم، فأهم العلوم هو العلم الذي يفقه به العبد دينه، فيعرف به كيف يعبد ربه؛ بل يعرف به ربه، ويعرف دينه، فهذا هو أشرف وأفضل العلوم، فمن أهمل هذا الجانب من العلم تقلب في الجهل والضلال المبين، وحرم نفسه من الجلوس بين يدي أهل العلم لنيل شرف التعلم مع الفهم، ورحم الله من قال:

من يأخذ العلم من شيخ مشافهة
يكن عن الزيغ والتصحيف في حرم
ومن يكن آخذًا للعلم من صحف
فعلمه عند أهل العلم كالعدم

ولذلك قيل: لا تأخذ العلم من صُحُفِيّ، ولا القرآن من مصحفي، يعني: لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف، ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف والكتب دون شيخ يعلّمه.

فمن حرم نفسه من العلم، ومن الجلوس بين يدي أهل العلم، عاش في غفلة وظلمة حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها، كما قال جل شأنه ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ثاني عشر: عدم التدبر والتفكر في آيات الله الكونية

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقال جل وعلا: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، وقال جل شأنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

فالتفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، وما في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، سببٌ من أسباب تقوية الإيمان وزيادة العلم وكثرة الأجر، أما عدم التدبر في آيات الله المنظورة والمتلوة فإنها ترمي العبد في ظلمات الغفلة وغيّها، مما يطمس على العبد ويبعده عن الحق المبين، قال الله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، وما في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، سببٌ من أسباب تقوية الإيمان وزيادة العلم وكثرة الأجر

هذا ما تيسر في أسباب الغفلة التي تؤدي إليها، ثم نذكر بعد ذلك إن شاء الله تعالى علاج مرض الغفلة بعد ما شخّصنا الداء.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

علاج الغفلة

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

سبق أن بينا أن الغفلة سهو يعتري العبد من قلة التحفظ والتيقظ، وأنها تصيب العبد بأنواع من التبلد وقلة الإحساس؛ حتى لا يشعر أنه بدَّل وغيَّر أو تغيَّر، فيرضى عن نفسه وهو مُتَقَلِّبٌ فيها؛ فقد انغمس في الدنيا وشهواتها، ونسي الآخرة لدرجة أن قلبه صار لا يفقه، وعينه لا ترى، وأذنه لا تسمع؛ فقد عطل جوارحه وحرم نفسه من الانتفاع بها، وعند ذلك اجتهد في تعمير دنياه وتخريب أخراه، فكره لقاء الله واليوم الآخر؛ لأنه يكره أن ينتقل من العمران إلى الخراب، فضيع نفسه بذلك.

والحقيقة أن لهذه الغفلة أسبابًا ينبغي أن نعرفَها حتى نتمكنَ من تحديد الداء لمعرفة الدواء، وقد علمنا أن أسباب الغفلة كثيرة منها:

أولاً: الجهل بالله عز وجل وأسمائه وصفاته.
ثانيًا: الاغترار بالدنيا والانغماس في شهواتها.
ثالثًا: صحبة السوء.
رابعًا: الانصراف عن ذكر الله.
خامسًا: الإعراض عن النصيحة.
سادسًا: التسويف والتمني.
سابعًا: نسيان الموت والآخرة والمصير.
ثامنًا: البدع والأهواء.
تاسعًا: نسبةُ النِّعمة إلى غيرِ المنعِم بها.
عاشرًا: عدم الحرص على طلب العلم.
حادي عشر: عدم التدبر والتفكر في آيات الله الكونية.

ولا بد لنا من معرفة الدواء والعلاج النافع؛ حتى نبرأ من هذا الداء العضال، فنقول وبالله تعالى التوفيق: إن علاج مرض الغفلة يستلزم من العبد رغبةً صادقة في العلاج، وقبولاً للنصيحة، ومسارعة في العمل النافع للبعد عن الغفلة وآفاتها، والاستعانة بالله تبارك وتعالى؛ كي يوفق العبد للبعد عن خطرها وضررها، ومن علاج الغفلة ما يأتي:

أولاً: تذكر الموت والآخرة

إن تذكر الموت يرقِّق القلب، ويوقظه من غفلته؛ فينفتح القلب فيرى إنعام الله عليه وكرمه وإحسانه، ويرى مع ذلك في المقابل أفعال نفسه، وما ارتكب من قبائح وسيئات في حق خالقه سبحانه وتعالى، ويرى حقيقة الدنيا وحقارتها، وهوانها على الله، ويتجلى له مدى مشقة الموت وشدته، ويتأمل الوحشة في القبر وظلمته؛ وكأنه بعد قليل توسد بلبنة وستُر بأخرى، وقد جاور أهل البلى، وجاءته الأهوال مع ضيق اللحد وحيدًا منفردًا؛ قد تغير لونه شاخصًا متقلدًا عمله، قد ألجمه العرق، وتبرأ الخلق منه، أمه وأبوه، وهو يخشى ظلمات القيامة متحيرًا، فمن يقيل عثرته؟ ومن يؤمِّن روعته؟ ومن يجيره وينجيه؟ ومن يجيبه ويعطيه ويرضيه؟!!

إن تذكر الموت يهيِّئ النفس لتتخلى عن غفلتها فينتفع به، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُودُوا الْمَرْضَى وَاتَّبِعُوا الْجَنَائِزَ تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ» [أحمد (١٨ / ٣٢) وحسنه الألباني]. وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ» [ابن ماجه ١٥٦٩ وصححه الألباني].

فزيارة القبور تذكّر بالموت، وتجعل الإنسان يتعظ ويعتبر، ويتذكر أنه سيصير إلى ما صار إليه الأموات، وهذا يدفعه إلى العمل الصالح ,ولذا علّمنا رَسُول اللَّه ﷺ أن نلقي السلام على أهل القبور لنستعد للحاق بهم على طاعة وبر، فعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ «كَانَ إِذَا أَتَى عَلَى الْمَقَابِرِ، قَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ، أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ لَنَا وَلَكُمْ». [النسائي (٢٠٤٠) وصححه الألباني، وأصله في مسلم بلفظ آخر رقم ٢٣٠٢].

فتذكر الموت والآخرة من أنفع الأدوية والعلاج لداء الغفلة.

ثانيا: طلب العلم النافع

ذلك العلم المستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ثم العمل به، فبالعلم يُعرَف الله تعالى ويُعبد ويوحَّد، ويعرف به صحة الاعتقاد والعبادات، وطلبه عبادة، يكسب صاحبه خشية الله والتواضع للخلق، وهو طريق الوصول إلى الجنة ,ينير الطريق، ويشرح الصدر، ويثمر اليقين الذي هو أعظم حياة للقلب، وبه طمانينته وقوته ونشاطه، وبالعلم يعرف الإنسان مداخل الشيطان ووساوسه ومكايده في إفساد بني آدم؛ لئلا يخدعها ويغرّها، فتقع في حبائل مكره وكيده.

وينبغي أن يراعي العبد في طلب العلم وجه الله تعالى ,فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من تَعَلَّمَ علْمًا ممَّا يبتغَى به وَجْهُ اللَّه عز وجل، لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليُصيبَ به عَرَضًا من الدُّنْيَا لم يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يوم الْقِيَامَةِ»، يَعْنِي رِيحَهَا. [أبو داود ٣٦٦٦، وصححه الألباني].

ففي الحديث وعيد شديد لمن تعلّم علوم الدين ولا يقصد بذلك إلا الدنيا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

بل وحذر من تعلم العلم لغير وجه الله تعالى؛ فَعَنْ جَابِرٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «لا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لتُبَاهُوا به الْعُلَمَاءَ، وَلا تُمَارُوا به السُّفَهَاءَ، وَلا تَخَيَّرُوا به الْمَجَالِسَ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارَ النَّارَ» [ابن ماجه ٢٥٤ وصححه الألباني].

وعَنِ ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قبل أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْضُهُ ذَهَابُ أَهْلِه، وَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ فَإِنْ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَى ما عِنْدَه، وَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ؛ فإنه سَيَجِيءُ قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّه يَنْبُذُونَهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» [الطبراني في الكبير ٨ / ٨٥ برقم ٨٧٥٤].

وعن أبي الدَّرْدَاء رضي الله عنه قال: «ما لي أَرَى عُلَمَاءَكُمْ يَذْهَبُونَ وَجُهَّالَكُمْ لاَ يَتَعَلَّمُونَ؛ فَتَعَلَّمُوا قبل أن يُرْفَعَ الْعِلْمُ، فإن رَفْعَ الْعِلْمِ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ» [الدارمي ٢٤٥].

وقد ذم الله تعالى الذين يقولون ما لا يفعلون، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقد ضرب القرآن الكريم لمن لم يعمل بعلمه أسوأ المثل، وجعله عبرة إلى الأبد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

فمن تعلم علمًا فعمل به؛ فعمله به يقوّي ثباته في قلبه وتصوره له، وأما من علم علمًا وضيعه ولم يعمل به؛ فيكون ذلك سببا لنسيانه، قال سفيان الثوري: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل. وقال سهل بن عبد الله: العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به. وقال: الدنيا جهل وموات إلا العلم، والعلم كله حجة إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص، والإخلاص على خطر عظيم حتى يختم به.

وقال ابن القيم رحمه الله: للعلم ست مراتب: حسن السؤال، وحسن الإنصات والاستماع ,وحسن الفهم ,وتعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

والعلم يأتي على الغفلة فيدك أوتادها؛ فتهوي من جميع أركانها، فيهدم بنيانها، ويزيل ركامها، فيخرج العبد من الظلمات إلى النور ويبصر الحق والهدى.

ثالثا: ذكر الله تعالى وحضور مجالس الذكر

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وعن أبي مُوسَى -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّت» [البخاري ٦٤٠٧]، وقال الحسن البصري رحمه الله: «تَفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذِّكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مُغلق». [أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠ / ١٤٦].

وقد ذكر ابن القيم للذكر فوائد كثيرة منها: أنه يطرد الشيطان ويَقمعه ويكسره، ويُرضي الرحمن عزّ وجل، ويُزيل الغمّ والحُزن، ويجلب للقلب الفرح والسرور والبَسْط ,ويُقوّي القلب والبدن، ويُنوِّر الوجه والقلب ويَجلب الرزق، ويكسو الذاكر الحلاوة والمهابة، ويورثه محبّة الله، ويورث حياة القلب وجلاءه من صَدَئه. وصدأ القلب: الغفلة والهوى، وجلاؤه وصفاؤه: الذكر والتوبة والاستغفار، ويُكسب العبد مراقبة ربّه؛ فيدخل في باب الإحسان فيُصبح يعبد الله كأنّه يراه، وهو سبب ذكر الله عزّ وجل لعبده الذاكر كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث القُدسي عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تَعَالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَني؛ فَإِنْ ذَكَرَني في نَفْسه ذَكَرْتُهُ في نَفْسي، وَإِنْ ذَكَرَني في ملأ ذَكَرْتُهُ في ملأ خَيْرٍ منهم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إليَّ شبرًا تَقَرَّبْتُ إليه ذراعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إليَّ ذراعًا تَقَرَّبْتُ إليه باعًا، وَإِنْ أَتَاني يَمْشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [متفق عليه].

ولا شكّ أن حضور حلَق الذكر يؤدي إلى زيادة الإيمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «.. وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ من بُيُوت اللَّه يَتْلُونَ كتَابَ اللَّه ويَتدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فيمَنْ عِنْدَهُ» [مسلم ٧٠٢٨].

وعن حَنْظَلَةَ الأَسَيديِّ رضي الله عنه -وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ- قال: لَقِيَني أبو بَكْرٍ؛ فقال: كَيْفَ أنت يا حَنْظَلَةُ؟ قال: قلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قال: سُبْحَانَ اللَّه! ما تَقُولُ؟ قال: قلت: نَكُونُ عِنْدَ رسول اللَّه ﷺ يُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رأي عَيْنٍ؛ فإذا خَرَجْنَا من عِنْد رسول اللَّه ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ؛ فَنَسِينَا كَثِيرًا. قال أبو بَكْرٍ: فَوَاللَّه إنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هذا؛ فَانْطَلَقْتُ أنا وأبو بَكْرٍ حتى دَخَلْنَا على رسول اللَّه ﷺ، قلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رَسُولَ اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: وما ذَاكَ؟ قلت: يا رَسُولَ اللَّه، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رأي عَيْنٍ؛ فإذا خَرَجْنَا من عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فقال رسول اللَّه ﷺ: وَالَّذي نَفْسي بيده؛ إن لو تَدُومُونَ على ما تَكُونُونَ عِنْدي وفي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ على فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً.. ثَلاثَ مَرَّاتٍ» [مسلم ٧١٤٢].

والذكر تارة يكون باللسان؛ كالتسبيح والتحميد، والتكبير والتمجيد، وتارة يكون بالقلب كالتفكر في أدلة الذات والصفات، وفي أدلة التكاليف من الأمر والنهي؛ حتى يطلع على أحكامها، وفي أسرار مخلوقات الله تعالى وتارة يكون بالجوارح، بأن تصير مستغرقة في الطاعات، كالصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وقراءة القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

أما ذكر الصوفية المبتدع فليس من الذكر في شيء، وليس هو المقصود من الذكر المشروع، بل ما يفعلون من بدع ومخالفات وتمايل وتصفيق وحركات عشوائية وهزات لجميع البدن، مع التلفظ بكلمات يزعمونها ذكرًا، وهي لا تمتّ للذكر بصلة، فهو مخالف لشرع الله، بل من الغفلة عن الذكر الصحيح المشروع، ويشبه هذا الذكر ما كان يفعله أهل الجاهلية، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

فالذكر ضد النسيان، والغفلة نسيان وإهمال، ومن هنا فالذكر أعظم العلاج للغفلة وأنفعه، فمن داوم على الذكر وحضور مجالس الذكر أكسب قلبه نورًا تنقشع به الغفلة، ويبرأ من دائها، ويلين قلبه ويخشع كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

علاج الغفلة

الحلقة الثانية

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده...

وبعد:

تكلمنا في العدد الماضي عن علاج مرض الغفلة، وقلنا: إنه يستلزم من العبد رغبةً صادقة في العلاج، وقبولاً للنصيحة، ومسارعة في العمل النافع للبعد عن الغفلة وآفاتها، مع الاستعانة قبل ذلك كله بالله تبارك وتعالى؛ كي يوفق العبد للبعد عن خطرها وضررها ,وذكرنا من علاج الغفلة:

أولاً: تذكر الموت والآخرة.

وثانيًا: طلب العلم النافع المستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والعمل به. وثالثًا: ذكر الله تعالى، وحضور مجالس الذكر.

ونكمل ما بدأناه فنقول وبالله التوفيق:

رابعًا: الصحبة الصالحة

فالصحبة الصالحة، والرفقة الطيبة، يشدون من أزر صاحبهم، ويقوونه ويعينونه كي يتجاوز العقبات؛ لأن المرء ضعيف بنفسه، قوي بإخوانه الصالحين، والرجل الصالح لا ترى منه إلا خيرًا، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وعن أبي مُوسَى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ، لا يَعْدَمُكَ من صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أو تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَيْتَكَ أو ثَوْبَكَ، أو تَجِدُ منه رِيحًا خَبِيثَةً» [البخاري ٢١٠١].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ» [أبو داود ٤٨٣٢ وحسنه الألباني].

وعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنِ النبي ﷺ قال: «الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحدكم من يُخَالِلُ». [أبو داود ٤٨٣٣ وحسنه الألباني].

وقال ابن قُدامة المقدسي -رحمه الله- في مختصر منهاج القاصدين: «ينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمسُ خصال:

١- العقل: فهو رأس ماله، ولا خير في صحبة الأحمق؛ لأنه يريد أن ينفعك فيضرك.

٢- حسن الخُلق: فلا بد منه؛ إذ رُبَّ عاقلٍ يغلبه غضبه، أو شهوة فيطيع هواه فلا خير في صحبته.

٣- غير فاسق: لأن الفاسق لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق به، ومن خان أولَ منعمٍ لا يفي لك أبدًا.

٤- غير مبتدع: لأن المبتدع يُخافُ من صحبته؛ لأن في صحبتك له الشر كله، إما سراية البدعة، أو عدم الإنكار عليه، أو تتعلم من بدعته فيحصل لك انتكاسة.

٥- غير حريصٍ على الدنيا: لأن الحرص على المال يفسد الدين بقدر أكبر من الفساد الحاصل من إرسال ذئبين جائعين على غنم، أي يفسد فسادًا بينًا بلا روية ,كما جاء في السنة أن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». [الترمذي ٢٣٧٦ وصححه الألباني].

فالصحبة التي ينبغي أن تحرص عليها هي صحبة الصالحين فتستفيد منها؛ حيث إنهم يذكِّرونك إذا نسيت، ويعلمونك ما جهلت، ويساعدونك على ما عجزت عنه،

وينشطونك على نوافل العبادة، ويساعدونك على ما قد تغفل عنه إذا كنت وحدك؛ فالصحبة الصالحة هي مفتاح كل خير ,وهي الأمان بعد الله تعالى من الوقوع في مزالق الشهوات والشبهات, قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فمن توفيق الله للعبد أن يُرزق صحبة صالحة يعينونه على الطاعة، ويحذرونه المعصية.

ويستفاد من صحبة العلماء الخير الكثير، كالاستفادة من علمهم وأخلاقهم، فصحبة أهل العلم خير على خير، فصحبتهم زاد ورفقتهم تشترى، وكذا صحبة أهل الدين؛ لأن من صاحبهم يستفيد من أخلاقهم، ويأمن المفسدة من جهتهم, فإذا كانت الرفقة من شباب متحمس من أهل المعرفة، ومن طلبة العلم، الذين معهم علم وزهد وورع، ومحبة للعبادة، ورغبة في الاستكثار منها، فهؤلاء هم الذين يُستفاد من صحبتهم ,وكذا سائر الصفات العشرة.

خامسًا: التوبة والاستغفار

والتوبة: هي طلب محو الذنب ,والاستغفار: طلب ستر الذنب ,وإن من تاب واستغفر عاد كمن لا ذنب له، كما صح في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» [قال الألباني في صحيح الترغيب (٣ / ١٢٢): رواه ابن ماجه والطبراني ورواته رواة الصحيح].

ومعنى ذلك أن الله تعالى إذا أحب عبدًا ألهمه التوبة والاستغفار، فلم يُصِرّ على الذنوب، وإنما مدح الله عباده المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٥].

وعَنْ أَبِي سَعِيد -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لاَ أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي» [أحمد ١١١٧٨، وصححه الألباني].

وعَنْ أَبِي مُوسَى - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «يَدا الله بُسْطَان لِمُسِيء اللَّيْل لِيَتُوبَ بِالنَّهَارِ، وَلِمُسِيء النَّهَارِ لِيَتُوبَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا» [ابن أبي شيبة (٣٤٢٠٤) وصححه الألباني في ظلال الجنة].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ: اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ» [متفق عليه واللفظ لمسلم]. فالتوبة والاستغفار تجعل العبد يفيق من غفلته، وينصرف عنها؛ فتنكشف عنه الغمة، وتنفرج عنه الغيوم والكربات.

سادسًا: الدعاء والتضرع إلى الله تعالى

الدعاء والتضرع من أشرف أنواع الطاعات، وأفضل العبادات؛ أمر الله تعالى به عباده فضلاً وكرمًا، وتكفل لهم بالإجابة، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان.

عن ثوبان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرد القدر إلا الدعاء». [أحمد ٢٢٤١٣ وحسنه الألباني].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ». [أبو داود ١٤٨١ وصححه الألباني].

الغالب على الخلق أنهم لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله إلا عند إلمام حاجة؛ فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض

والغالب على الخلق أنهم لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله إلا عند إلمام حاجة؛ فإن الإنسان إذا

الدعاء والتضرع إلى الله تعالى يكشف الكرب، ويرفع البلاء، ويلين القلب، وينقي النفس، ويذهب السوء، ويزيد من إيمان العبد، ويرده إلى الحق؛ فتذهب غفلته، وتمحى زلته، وتاتي عافيته

مسه الشر فذو دعاء عريض، وصدق الله ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

فالحاجة تلجئ إلى الدعاء، والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة، ويمنع من نسيانه، ويذكر بنعمته وإحسانه. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، ثم الدُّعاءُ تتحقق به عبادة ربِّ العالمين؛ لأنه يتضمَّن تَعَلُّقَ القلب بالله تعالى، والإخلاص له، وعدم الالْتفات إلى غير الله -عزّ وجلّ- في جَلْبِ النَّفْعِ ودَفْعِ الضُّرِ، فالدعاء والتضرع إلى الله تعالى يكشف الكرب، ويرفع البلاء، ويلين القلب، وينقي النفس، ويذهب السوء، ويزيد من إيمان العبد، ويرده إلى الحق؛ فتذهب غفلته، وتمحى زلته، وتاتي عافيته.

سابعًا: المحافظة على الصلوات الخمس مع الجماعة، والحرص على قيام الليل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ؛ فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ». [متفق عليه].

فلا بد من التخفف من الذنوب التي تثقل كاهل العبد وتقعد به وتورثه الغفلة، فالذنوب تقسّي القلب، وتحرم الإنسان من الخير، وتفوّت عليه النشاط للعبادة، فالصلوات الخمس مع الجماعة عبادة يمحو الله بها الخطيئات، ويهدم ما قبلها من السيئات، ويرفع بها الدرجات .فعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «أَلا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو الله به الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ به الدَّرَجَاتِ؟ قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ. قال: إِسْبَاغُ الْوَضُوءِ على الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إلى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ؛ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ». [مسلم: ٦٦٦].

وعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «من تَطَهَّرَ في بَيْته، ثُمَّ مَشَى إلى بَيْتٍ من بُيُوت اللَّهِ؛ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً من فَرَائِضِ اللَّهِ، كانت خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً». [مسلم ٦٦٦].

وعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «أَرَأَيْتُمْ لو أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ منه كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هل يَبْقَى من دَرَنِه شَيْءٌ؟ قالوا: لا يَبْقَى من دَرَنِه شَيْءٌ. قال: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا». [متفق عليه].

وعن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ما من امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا؛ إلا كانت كَفَّارَةً لما قَبْلَهَا من الذُّنُوبِ ما لم يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ». [مسلم ٢٢٨].

وعن عَمْرِو بن عَبَسَةَ -رضي الله عنه- أَنَّهُ سمع النبي ﷺ يقول: «أَقْرَبُ ما يَكُونُ الرَّبُّ من الْعَبْدِ في جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ في تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ». [الترمذي ٣٥٧٩ وصححه الألباني].

ثامنًا: الزهد في الدنيا

زَهِد فيه وعنه: أعرض عنه، وتركه لاحتقاره، أو لتحرجه منه أو لقلته، وزَهُد في الشيء رغب عنه، ويقال: زهد في الدنيا: ترك حلالها مخافة حسابه، وترك حرامها مخافة عقابه. وقال السعدي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠-٦١]: هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا، وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات

والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها، أي: يتمتع به وقتًا قصيرًا، متاعًا قاصرًا، محشوًا بالمنغصات، ممزوجًا بالغصص.

وقال أيوب السختياني: «الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء أحبها إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمها ثوابًا عند الله تعالى: الزهد في عبادة من عُبِدَ دون الله، من كل ملك، وصنم وحجر ووثن. ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والعطاء، ثم يقبل علينا فيقول: زهدكم هذا يا معشر القراء فهو والله أخسه عند الله الزهد في حلال الله عز وجل» [حلية الأولياء (٣ / ٧)].

وعن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعديِّ قال: أتى النبي ﷺ رَجُلٌ؛ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي على عَمَلٍ إذا أنا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي الله وَأَحَبَّنِي الناس. فقال رسول اللَّه ﷺ: «ازْهَدْ في الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله، وَازْهَدْ فِيمَا في أَيْدِي الناس يُحِبُّوكَ». [ابن ماجه ٤١٠٢ وصححه الألباني].

فالزهد في الدنيا طريق البعد عن الغفلة، والانتباه من الانغماس فيها، والتخلص من خطرها وضررها.

تاسعًا: المداومة على محاسبة النفس

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩]. ويقول تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]. وقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]، فالمحاسبة حبس الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات ولومها على ما لا ينبغي من الاعتقاد والقول والفعل.

وأورد السيوطي في الدر المنثور عن عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. قال: «إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه؛ ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديثي نفسي، ولا أراه إلا يعاتبها؛ وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه».

وقال عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي
هذي حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت
إن تفعلي فعلهما هديت
إن تسلمي اليوم فلا تفوتي
أو تبتلي فطالما عوفيت

يريد بقوله: فإن تفعلي فعلهما هُديت: فعل زيد ابن حارثة رضي الله عنه، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانا قُتلا في ذلك اليوم.

وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا». [الترمذي ٢٤٥٩ وقال الألباني: موقوف].

ويروى عن ميمون بن مهران قال: «لا يكون العبد تقيًا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه».

قال ابن القيم: فإذا كان العبد مسئولاً ومحاسبًا على كل شيء حتى على سمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

ودونك حياة السلف الصالح من الصحابة الأطهار، والتابعين لهم بإحسان، تجدها مليئة بصور من المجاهدة الذاتية لأنفسهم حتى فطموها عن الشر، وأصبحت مطواعة لهم في الخير، مروضة على المسابقة للخيرات والعجلة في إرضاء الرب سبحانه بفعل كل محابه، وما يقرب منه.

واعلم أن أعدى عدوٍ لك هو نفسك التي بين جنبيك وقد خُلقت أمّارةً بالسوء، ميّالةً إلى الشر، وقد أُمرتَ بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، فإن أهملتها جمحت، وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ، رجونا أن تصير مطمئنةً فلا تغفلنّ عن تذكيرها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتها
وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ

فالمحاسبة إيقاظ النفس من غفلتها، وتنبيهها على زلتها، والحرص على عودتها وأوبتها، وحملها على تفريج كربتها، وهي أوسع أبواب نجاتها وسلامتها.

والحمد لله رب العالمين.

الموانع من

الحلقة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، سيدنا محمد، عبد الله ورسوله الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله عز وجل يَدفع عِباده إليه دفعًا تارة بالوعد بالمغفرة والعفو والرحمة والجنة والرضوان، وتارة بالوعيد الشديد بالعذاب الأليم المهين على الشرك والكفر والمعاصي.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وقال عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨-٢٩]. فنصوص الوعد تبعث في قلوب الخائفين والمذنبين الرجاء والأمل في التوبة والوعد بالمغفرة والرحمة لكل من أقبل على الله تائبًا من ذنبه.

وفي المقابل نرى نصوص الوعيد تتوعد الكفار والمشركين وأهل الكبائر المصرّين على ذنوبهم بأليم العذاب وشديد العقاب إذا لم يتوبوا ويؤمنوا؛ فإن تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات تاب الله عليهم.

نصوص الكتاب والسنة في الوعد والوعيد

والكتاب والسنة كلاهما يشتمل على نصوص الوعد والوعيد، فنصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط للأجر والعمل؛ لأن القرآن قد دل على أن من ارتد فقد حبط عمله، وكذلك نصوص الوعيد للكفار والفساق مشروطة بعدم التوبة؛ لأن القرآن الكريم قد دلّ على أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب، وهذا متفق عليه بين المسلمين، فإن الله تعالى قد بيَّن بنصوص معروفة واضحة أن الحسنات يذهبن السيئات، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره، وأنه سبحانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وأن مصائب الدنيا تكفّر الذنوب، وأنه يقبل شفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر، وأنه لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، كما بين سبحانه أن الصدقة يبطلها المن والأذى، وأن الرياء يبطل العمل، وأنه إنما يتقبل من المتقين؛ أي في ذلك العمل ونحو ذلك.

فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها، كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة، كما أنه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة.

وبهذا تبين أننا نشهد بأن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] على الإطلاق والعموم، ولا نشهد لمعيَّن أنه في النار؛ لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه؛ لأن لحوق الوعيد بالمعيَّن مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه.

فائدة الوعيد

وفائدة الوعيد: بيان أن هذا الذنب سببٌ مقتضٍ لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وانتفاء مانعه.

يوضح هذا: أنه قد ثبت أن النبي ﷺ لعن الخمر، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وشاربها وساقيها، وبائعها ومبتاعها، وآكل ثمنها. وثبت عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ؛ فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [البخاري ٦٧٨٠].

فنهى عن لعن هذا المعيَّن، مع أنه مُدْمِن خمر؛ لأنه يحب الله ورسوله، وقد لعن شارب الخمر على العموم.

إنفاذ الوعيد

إعداد/ محمد رزق ساطور

فالوعد: يرى أهلُ السنة أن العبدَ لا يستوجب بسعيه نجاةً ولا فلاحًا، ولا يُدْخِلُ أحدًا عملُه الجنةَ، ولا ينجيه من النار، وإنما الله تعالى بفضله ومحض جوده وكرمه أكد إحسانه بأن جعل لعبده عليه سبحانه وتعالى حقًا بمقتضى الوعد، والله تعالى لا يخلف الوعد؛ وعليه فإن الله تعالى إذا وعد عباده بشيء كان وقوعه مؤكدًا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق» [انظر: المنتقى من منهاج الاعتدال، ومدارج السالكين].

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم
لكن يضاعفه بلا حسبان
ما للعباد عليه حق واجب
هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع
إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا
فبفضله والحمد للمنان

شروط الوعيد

بيَّن الله تعالى في كتابه أن الوعيد الموجود في الكتاب والسنة لأهل الكبائر، وأنه بشروط: بأن لا يتوب فإن تاب؛ تاب الله عليه، قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، أي لمن تاب. وبأن لا تكون له حسنات تمحو ذنوبه؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وبأن لا يشاء الله أن يغفر له، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وعليه فإن مرتكب الكبيرة، مما دون الشرك، إذا لم يتب، ولم تكن له حسنات تمحو سيئاته؛ فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه على قدر ذنبه، ثم أخرجه من النار فلا يخلد فيها.

عن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ رضي الله عنه وكان شَهِدَ بَدْرًا، وهو أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال - وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِن أَصْحَابِهِ -: «بَايِعُونِي على أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شيئًا، ولا تَسْرِقُوا ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، ولا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بين أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، ولا تَعْصُوا في مَعْرُوفٍ؛ فَمَنْ وفى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ على اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ من ذلك شيئًا فَعُوقِبَ في الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ له، وَمَنْ أَصَابَ من ذلك شيئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إلى اللَّهِ إن شَاءَ عَفَا عنه وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فَبَايَعْنَاهُ على ذَلِكَ» [البخاري ١٨].

ثم إن النار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يقول الله تَعَالَى: أَخْرِجُوا من كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إِيمَانٍ؛ فَيُخْرَجُونَ منها قد اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ في نَهَرِ الْحَيَا أو الْحَيَاةِ، شَكَّ مَالِكٌ، فَيَنْبُتُونَ كما تَنْبُتُ الْحِبَّةُ في جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً» [البخاري ٢٢].

وأما الكفار فقد أخبر سبحانه بأنه لا يغفر لمن مات على كفره. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]. وقال سبحانه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

قال شيخ الإسلام: «وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الإِيمَانُ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَكَمَا أَنَّ مَا تَوَعَّدَ اللَّهُ بِهِ الْعَبْدَ مِنْ الْعِقَابِ قَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ بِشُرُوطٍ: بِأَنْ لا يَتُوبَ فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَبِأَنْ لا يَكُونَ لَهُ حَسَنَاتٌ تَمْحُو ذُنُوبَهُ؛ فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ وَبِأَلاَّ يَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. فَهَكَذَا الْوَعْدُ لَهُ تَفْسِيرٌ وَبَيَانٌ. فَمَنْ قَالَ بِلِسَانِهِ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَكَذَّبَ الرَّسُولَ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَكَذَلِكَ إِنْ جَحَدَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ. فَلا بُدَّ مِنْ الإِيمَانِ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ

الرَّسُولُ ثُمَّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ؛ فَإِنْ ارْتَدَّ عَنْ الإِسْلامِ وَمَاتَ مُرْتَدًا كَانَ فِي النَّارِ فَالسَّيِّئَاتُ تُحْبِطُهَا التَّوْبَةُ وَالْحَسَنَاتُ تُحْبِطُهَا الرِّدَّةُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُهُ، بَلْ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِ بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَمَنْ مَاتَ عَلَى الإِيمَانِ فَإِنَّهُ لا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ. فَالزَّانِي وَالسَّارِقُ لا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ بَلْ لا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ. فَإِنَّ النَّارَ يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ» [مجموع الفتاوى ٨ / ٢٧١-٢٧٢].

وقال ابن القيم: وأما الوعيد فمذهب أهل السنة كلهم أن إخلافه كرم وعفو وتجاوز، يُمدح الرب تبارك وتعالى به، ويُثْنَى عليه به؛ فإنه حق له، إن شاء تركه، وإن شاء استوفاه. والكريم لا يستوفي حقه؛ فكيف بأكرم الأكرمين؟» [حادي الأرواح ص ٣٨٤].

وقال النووي: «وأما حكمه ﷺ على من مات مشركًا بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة، فقد أجمع عليه المسلمون، فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها» [شرح مسلم للنووي ٢ / ٩٧].

الحكمة في الوعد والوعيد

ويجب أن نفهم حكمة الباري في الوعد والوعيد، ويمكن تلخيصها بالآتي:

يعطي المولى سبحانه وتعالى الدنيا مَنْ يحب ومَنْ لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا مَنْ يحب. والمصائب في الدنيا إما أن تكون عقوبة أو ابتلاءً: فالعقوبة فيها تكفير للذنوب، أو تنبيه للرجوع إلى الحق، أو عبرة للآخرين، أو كل ذلك. والابتلاء فيه رفع للدرجات، أو تمييز للخبيث من الطيب، أو كلاهما.

وإعطاء الله العبد من الدنيا على معاصيه لا يدل على أنه راضٍ عنه، بل قد يدل على أحد أمرين أو كليهما:

(١) قد تكون له أعمال صالحة، فيريد الله أن يعجّل له حسناته في الدنيا؛ حتى لا يكون له نصيب في الآخرة، فالله تعالى لا يظلم أحدًا مثقال ذرة، سبحانه وتعالى.

(٢) قد يكون من الاستدراج حتى إذا أخذه لم يفلته، فعن عُقْبَةَ بن عَامِرٍ عَنِ النبي ﷺ قال: «إذا رَأَيْتَ اللَّهَ يعطي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا على مَعَاصِيهِ ما يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هو اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلاَ رسول اللَّهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. [أحمد ١٧٣١١ وصححه الألباني].

ففي الوعد قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

عَنْ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ». [أحمد ٤٦٤ ومسلم ٢٦].

وفي الوعيد، قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

منهج أهل السنة والجماعة في الوعد والوعيد

وأهل السنة والجماعة يشهدون للعشرة المبشرين بالجنة، كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكلُّ من شهد له النبي ﷺ بالجنَّة شهدوا له بها.

عن عبد الرحمن بن عَوْفٍ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «أبو بَكْرٍ في الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ في الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ في الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ في الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ في الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ في الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرحمن بن عَوْفٍ في الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ في الْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ في الْجَنَّةِ، وأبو عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ في الْجَنَّةِ». [الترمذي ٣٧٤٧ وصححه الألباني].

وقد ثبت لكثير من الصحابة الشهادة بالجنة، كعكاشة بن محصن، وعبد الله بن سلام، وآل ياسر، وبلال بن رباح، وجعفر بن أبي طالب، وثابت بن قيس، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وفاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والحسن والحسين وخديجة بنت خويلد، وعائشة، وصفية، وحفصة، وجميع زوجاته صلى الله عليه وآله وسلم، وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين.

وأمَّا مَن جاءت النصوص بأنَّهم من أهل النار، فنشهد لهم بذلك، منهم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، وامرأته أم جميل أروى بنت حرب، وغيرهما ممن ثبت في حقهم ذلك.

وأهل السُّنَّة والجماعة: لا يجزمون لأحد بعينه، كائنًا من كان؛ بجنة ولا نار إلا من جزم له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن يرجون للمحسن، ويخافون على المسيء؛ ولهذا لا يُحكم على أحد قُتل أو مات بأنه شهيد؛ لأن النية مردها إلى الله تعالى. والصحيح أن يقال: نسأل الله له الشهادة نحسبه شهيدًا، إن شاء الله، ولا نزكي على الله أحدًا بصيغة الدعاء، وليس بصيغة الجزم؛ لأن الجزم قول على الله بلا علم.

ويعتقدون أنَّ الجنَّة لا تجب لأحد، وإنْ كان عمله حسنا إلا أنْ يَتَغَمَّدَه الله بفضله فيدخلها برحمته، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الجنة» فقيل: ولا أنتَ؟ يا رسول الله! قال: «وَلا أَنَا؛ إِلا أَنْ يَتَغمدني رَبي بِرحْمَة» [مسلم ٢٨١٦].

وأهل السُّنَّة والجماعة: لا يوجبون العذاب لكل مَن توجَّه إليه الوعيد - في غير ما يقتضي الكفر - فقد يغفر الله له بما فعله من طاعات، أو بتوبة، أو بمصائب وأمراض مكفرة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ الله له فَغَفَرَ له». [متفق عليه].

وأهل السُّنَّة والجماعة: يعتقدون أنَّ وعد الله للمؤمنين بالجنة، ووعيده بتعذيب العصاة الموحدين، وتعذيب الكفار والمنافقين في النار حق، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]، ولكن الله سبحانه يعفو عن عصاة الموحدين بفضله وكرمه، وقد وعدَ الله تعالى بالعفو عن الموحدين، ونفاه عن غيرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

قواعد من منهج أهل السنة

وقد أجمل أهل السنة ذلك في أصول، أهمها ما يلي:

١- من مات على التوحيد دخل الجنة - يومًا من الدهر، أصابه قبل ذلك اليوم ما أصابه.

٢- من مات على الشرك بعد بلوغ الرسالة؛ فهو مخلد في النار أبدًا.

٣- المسلم الذي يرتكب الكبائر ويصر عليها، أي: لا يتوب منها؛ لا يكفر بفعلها، ولا يخلد في النار لو دخلها في الآخرة، ما لم يستحلّها.

٤- من رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة لأول وهلة، ومن تساوت حسناته وسيئاته؛ فهو من أصحاب الأعراف، ومآله إلى الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة استحق دخول النار.

٥- من استحق دخول النار من عصاة الموحدين، فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وان شاء غفر له.

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». [متفق عليه].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي». [متفق عليه].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشِبْرٍ تَلَقَّيْتُهُ بِذِرَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ تَلَقَّيْتُهُ بِبَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ، جِئْتُهُ أَوْ أَتَيْتُهُ بِأَسْرَعَ». [مسلم ٢٦٧٥].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً». [مسلم ٢٦٨٧].

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا»: هَذَا مَثَلٌ وَمَعْنَاهُ حُسْنُ الْقَبُولِ وَمُضَاعَفَةُ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ الْعَمَلِ الَّذِي يَتَقَرَّبُ...

وعَنْ عُبَادَةَ بن الصامت رضي الله عنه قَالَ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا، اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ؛ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ رَحِمَهُ» [أبو داود ١٤٢٢ وصححه الألباني].

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُعَيْمٍ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». [أحمد ١٨٢٨٤ وصححه الألباني].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

الموانع الموانع الموانع من إنفاذ الوعيد

من إنفاذ الوعيد

الحلقة الثانية

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، محمد بن عبد الله الصادق الوعد الأمين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ,وبعد:

فقد بينا في الحلقة الماضية أن نصوص الوعد تبعث في قلوب الخائفين والمذنبين الرجاء والأمل في التوبة والمغفرة وأن نصوص الوعيد تتوعد الكفار والمشركين وأهل الكبائر المصرين على ذنوبهم بأليم العذاب وشديد العقاب إذا لم يتوبوا ويؤمنوا.

فالوعيد توعدٌ بالعذاب والغضب والعقاب، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ×فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

ويقول جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩-٣٠].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

ويقول جل وعلا: ﴿قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨].

ويقول سبحانه: ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر: ١٧-١٨]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. ويقول جل وعلا: ﴿وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

ويقول سبحانه: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢١].

فالوعيد الذي هو توعُّد من الله للكافر أو للفاسق بالعذاب هذا حقّ، والله تعالى خبره صدق، لكن وعيده مع كونه حقًا وصدقًا كما أخبر سبحانه؛ فإنه في حق المسلم الموحّد على رجاء الغُفْران، وعلى رجاء العفو؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [أبو داود ٣٦٦٠ وصححه الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا». [مسلم ١٠٩].

ومن رحمة الله تعالى أنه إذا توعد على الشرّ عفا؛ فقد جعل الله تعالى للعبد مخرجًا من ذلك الوعيد إذا قام العبد به مُنع عنه الوعيد ,وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الموانع من إنفاذ الوعيد، وأخبر أنها ثمانية؛ ثلاثة من المذنب: وهي التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية. وثلاثة من غيره من الخلق: وهي دعاء المؤمنين، وإهداء ما يمكن وصوله من ثواب الأعمال، والشّفاعة في عصاة الموحّدين. واثنان من الله تعالى: وهما المصائب المكفّرة في الدّنيا والبرزخ والآخرة، والعفو المحض بلا سبب من العباد ,وفي هذه العجالة أحاول أن أبينها فأقول وبالله تعالى التوفيق:

أولا التوبة

وقد أجمع المسلمون أن من تاب من الكبيرة؛ فإنه يُغفر له. قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

وفي حديث هجرة وإسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه.. قال عمرو: «.. أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ. فَبَسَطَ يَمِينَهُ - قَالَ - فَقَبَضْتُ يَدِي. قَالَ «مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟». قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ.

قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟». قُلْتُ أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ» [مسلم ١٢١].

فالحاصل أن التوبة النصوح تمحو السيئات وتمحو الكبائر، وتمحو الشرك، وأكبر الشرك التثليث الذي ذكره الله عن النصارى، قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣-٧٤]، فدعاهم إلى التوبة مع كونهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة.

وقد قيل:

يَستَوجِبُ العَفوَ الفَتى إذا اعتَرف
وتابَ مِمّا قَد جَناهُ واقتَرَف
لِقَولِهِ قُل لِلَّذينَ كَفَرُوا
إِن يَنتَهُوا يُغفَر لَهُم مّا قَدْ سَلَفَ

وقيل:

يا مَن بِذي اللذّاتِ قَد خشيَ التلَف
أقصِر فإنّ العفوَ حظُّ مَن اعترف
وَعَدَ الإلهُ المُذنبينَ بقولِهِ
إِن يَنتَهُوا يُغفَرْ لَهُم مّا قَدْ سَلَفَ

وقيل:

يا من عدا ثم اعتدى ثم اقترف
ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته
" إن ينتهوا يُغفَرْ لَهُم مّا قَدْ سَلَفَ "

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فكمّل به مائةً، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على رجل عالمٍ، فقال: إنه قتل مائةَ نفسٍ، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحولُ بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرضِ كذا وكذا؛ فإن بها

ناسًا يعبدون الله، فاعْبدِ اللهَ معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرضُ سوءٍ، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه الموتُ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ؛ فقالت ملائكةُ الرحمةِ: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم؛ فقال: قيسوا ما بين الأرْضَيْنِ، فإلى أيَّتِهما كان أدْنَى فهو له ,فقاسُوهُ فوجدوه أدنَى إلى الأرض التي أرادَ، فقبَضَتْه ملائكة الرحمةِ». [متفق عليه].

فهذه قصةٌ تفتح بابَ الأمل لكل عاصٍ مهما عظمت ذنوبُهُ وكبُر جُرْمُهُ، قتل مائةَ نفسٍ، ونفسُهُ لم تخلُ من نوازع الخير ودوافعه، بل في أعماقها بصيص من نورٍ وقليل من أمل وبقية من مخافة الله، ولعله تساءل فيما بينه وبين نفسه: هل انقطعت علاقتُه بربِّه؟ لم يستطع أن يفتي نفسه، فبحث عن عالمٍ يفتيه وهو يعلمُ أنَّ مسألتَه كبيرةٌ لا يستطيعُ أن يفتيَه فيها إلا مَنْ عَظُم علمُهُ؛ ولذا لم يسأل عن عالمٍ، بل سأل عن أعلم أهل الأرض، ولم يُقدِّر لمَن دلَّه على من يُفتيه أن يدلَّهُ على أعلم أهل الأرض فعلاً، وإنما دلّوه على راهبٍ؛ والرهبانُ كثيرو العبادة قليلو العلم، فاستمع الراهبُ لمسألته فاستعظمَ ذنبَه، وظنَّ أنَّ رحمةَ الله تضيق عليه، وأن مثلَ هذا الرجل لا تسعَه رحمةُ الله، وحسْبُك بذلك جهلاً ,فمدَّ هذا القاتلُ يدَه إلى هذا الراهبِ فقتله، وأتمَّ بقتله المائة؛ لأنه لم يقتنع بجوابه.

ومع ذلك الأملُ عنده بالله عظيم، فكانت الفتوى من العالم المربي المرشد، فقال له مستغربًا: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ودلَّه على الطريق الذي يجبُ عليه أن يسلكَهُ، فكانت النتيجةُ أن قبضتْهُ ملائكةُ الرحمةِ، وغُفرت ذنوبه العظيمة.

وعن عبد اللَّه بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ العبد من رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عليها طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وقد ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حتى اشْتَدَّ عليه الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أو ما شَاءَ الله، قال: أَرْجِعُ إلى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فإذا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ». [البخاري ٦٣٠٨].

وعن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سَبْيٌ، فإذا امْرَأَةٌ من السَّبْيِ قد تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إذا وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ؛ فقال لنا النبي ﷺ: «أَتُرَوْنَ هذه طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟ قُلْنَا: لا وَهِيَ تَقْدِرُ على أَنْ لا تَطْرَحَهُ. فقال: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ من هذه بِوَلَدِهَا». [البخاري ٥٩٩٩، مسلم: ٢٧٥٤].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْبَيْلَمَانِيِّ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِيَوْمٍ قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ، قَالَ: فَحَدَّثَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ آخَرَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْهُ؟ قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِنِصْفِ يَوْمٍ قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ». قَالَ فَحَدَّثَنِيهَا رَجُلٌ آخَرُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِضَحْوَةٍ قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ». قَالَ فَحَدَّثَهُ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ يُغَرْغِرَ نَفْسُهُ قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ». [أحمد ٢٣٠٦٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن وهو ثقة].

والتوبة تشتمل على أمور ثلاثة: الندم على ما مضى من المعصية، والإقلاع عنها، والعزم الصادق ألا يعود إليها؛ تعظيمًا لله وإخلاصًا له سبحانه، فإذا فعل المسلم ذلك تاب الله عليه سبحانه وتعالى، ومن تمام التوبة إتباعها بالعمل الصالح والاستقامة، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

ثانيا الاستغفار

والاستغفار هنا مقامه أخص من مقام التوبة، والاستغفار تارةً يُذكر ويُراد به التوبة، وتارةً يُذكر ويُراد به ما هو أخص من ذلك ,قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقال جل وعلا: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَيَغْفِرَ لَهُمْ». [مسلم ٢٧٤٩].

ويؤخذ من هذا الحديث عدم القنوط من رحمة الله تعالى، وأن الاستغفار سبب لمغفرة الذنوب، حتى يكثر العبد منه، فعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ الله له من كل ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كل هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ من حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ». [أبو داود ١٥٢٠ وضعفه الألباني].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يَحْكِي عن رَبِّهِ عز وجل قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فقال: اللهم اغْفِرْ لي ذَنْبِي؛ فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فقال: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدِي: أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فقال: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي؛ فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعمل ما شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لك» [مسلم ٢٧٥٨].

ومعنى قوله: «اعمل ما شِئْتَ» أي من الأعمال الصالحة، فلن تكون تلك الأعمال الصالحة هي التي ستنجو بها، وتدخلك الجنة، بل الاستغفار سبق كل الصالحات وكان السبب الأعظم في المغفرة والرضوان ودخول الجنة ،وليس معنى الحديث -كما يظن بعض الناس - اعمل ما شئْتَ، أي: من الذنوب والمعاصي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فقد كان أهل الجاهلية يسيئون الظن بالله ويقولون: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وعن أَنَسُ بن مَالِكٍ رضي الله عنه قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدَمَ إِنَّكَ ما دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لك على ما كان فِيكَ ولا أُبَالِي، يا ابن آدَمَ لو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لك ولا أُبَالِي، يا ابن آدَمَ إِنَّكَ لو أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأرض خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شيئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». [الترمذي ٣٥٤٠ وصححه الألباني].

وعن عَلِيِّ بن أبي طَالِبٍ رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول اللَّه ﷺ حَدِيثًا يَنْفَعُنِي الله بِمَا شَاءَ منه، وإذا حدثني عنه غَيْرُهُ اسْتَحْلَفْتُهُ فإذا حَلَفَ صَدَّقْتُهُ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ حدثني وَصَدَقَ أبو بَكْرٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ -وقال مِسْعَرٌ: ثُمَّ يُصَلِّي- وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إلا غَفَرَ الله له». [ابن ماجه ١٣٩٥ وحسنه الألباني].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ: «وَالله! إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيهِ فِي الْيَوم أَكْثَر مِن سَبْعِينَ مَرَّة». [البخاري ٦٣٠٧].

وعَنْ شَدَّاد بن أَوْسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللهم أنت رَبِّي، لا إِلَهَ إلا أنت، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لك بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لك بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لي؛ فإنه لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنت. قال: وَمَنْ قَالَهَا من النَّهَارِ مُوقِنًا بها فَمَاتَ من يَوْمِهِ قبل أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا من اللَّيْلِ وهو مُوقِنٌ بها فَمَاتَ قبل أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ». [البخاري ٦٣٠٦].

وصدق القائل

يا نفس عودي عن الزلات وارتدعي
وأخلصي واتركي الشهوات وارتجعي
إلى متى أنتِ في العصيان رافلة
ولم تتوبي عن الآثام أو تدعي
توبي إلى الله واستدعيه مغفرةً
فإنهُ الغافر التواب حين دعي
واستغفري لذنوبٍ جمةٍ سلفت
وابكي على ما مضى واسترجعي ودعي
لا تقطعي أملاً من فيض رحمته
فيض المراحم منه غير منقطع
فليس لي عملٌ يرضي أموت به
فلا صلاحي ولا زهدي ولا ورعي
إن لم تغثني من الغفار مرحمةً
يا ويح نفسي التي ساعت ويا جزعي

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

الموانع من إنفاذ الوعيد

الحلقة الثالثة

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، محمد بن عبد الله الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الموانع من إنفاذ الوعيد ثمانية؛ ثلاثة من المذنب: وهي التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية.

وثلاثة من غيره من الخلق: وهي دعاء المؤمنين، وإهداء ما شُرع إهداؤه من ثواب الأعمال، والشفاعة في عصاة الموحّدين.

واثنان من الله تعالى: وهما المصائب المكفّرة في الدّنيا والبرزخ والآخرة، والعفو المحض بلا سبب عن العباد، وذكرنا من الثلاثة الخاصة بالمذنب: التوبة، والاستغفار، ونكمل ما بدأناه فنقول، وبالله تعالى التوفيق:

الثالث: الحسنات الماحية:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤] أي أن من الأعمال الصالحة ما يكفّر الذنوب، وكقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر» [مسلم ٢٣٣]، وكقوله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه خمس مرات.. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا» [متفق عليه].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم، إن قُتلت في سبيل الله وأنتَ صابرٌ مُحتسِبٌ مُقبلٌ غَيْرُ مُدبرٍ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قُتِلْتُ في سبيل الله أَتُكَفَّرُ عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وأنت صَابِرٌ مُحتسب مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدبرٍ إلا الدَّيْنَ؛ فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك» [مسلم ١٨٨٥].

وعن أبي الأشعث الصنعاني أنه راح إلى مسجد دمشق، وهجَّر بالرواح، فلقي شداد بن أوس والصنابحي معه، فقلت: أين تريدان يرحمكما الله؟ قالا: نريد هاهنا إلى أخ لنا مريض نعوده، فانطلقت معهما حتى دخلا على ذلك الرجل، فقالا له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بنعمة، فقال له شداد: أبشر بكفارات السيئات وحط الخطايا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقول: إني إذا ابتليت عبدًا من عبادي مؤمنًا فحمدني على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب عز وجل: أنا قيدت عبدي وابتليته، فأجروا له كما كنتم تجرون له وهو صحيح» [أخرجه أحمد والطبراني في الكبير، وقال الألباني: هذا إسناد حسن رجاله ثقات]..

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: «إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا فاقض في ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله، لو سترت نفسك؟ فلم يَرُدَّ عليه رسول الله ﷺ شيئًا، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلا دعاه، وتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى

للذَّاكِرِينَ﴾ فقال رجلٌ من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافةً». [مسلم ٢٧٦٣].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال عمر أيكم يحفظ ما قال رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقال حذيفة: أنا. قال حذيفة: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفّرها الصلاة والصوم والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..» [متفق عليه].

بل إن حسنة التوحيد، وحسنة التوبة النصوح لا تُبْقِي واحدة منها سيئةً إلا محتها وأذهبتها، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له - لما جاءه يبايعه على الإسلام والهجرة -: «أما علمت أن الإسلامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحجَّ يَهْدِمُ ما كان قبله؟». [مسلم ١٢١].

الرابع: دعاء المؤمنين لإخوانهم بظهر الغيب:

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر ١٠].

وعن أم الدرداء رضي الله عنها قالت: حدثني سيدي (تعني زوجها أبا الدرداء) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل» [مسلم ٢٧٣٢].

عن أسير بن جابر قال: لما أقبل أهل اليمن جعل عمر رضي الله عنه يستقري الرفاق فيقول هل فيكم أحد من قرن؟ حتى أتى عليه قرن، فقال: من أنتم؟ قالوا: قرن، فرفع عمر بزمام أو زمام أويس فناوله عمر فعرفه بالنعت فقال له عمر: ما اسمك؟ قال: أنا أويس. قال: هل كان لك والدة؟ قال: نعم. قال هل بك من البياض؟ قال: نعم دعوت الله تعالى فأذهبه عني إلا موضع الدرهم من سرتي لأذكر به ربي. فقال له عمر: استغفر لي. قال: أنت أحق أن تستغفر لي أنت صاحب رسول الله ﷺ، فقال عمر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن خير التابعين رجل يقال له أويس القرني، وله والدة، وكان به بياض فدعا ربه فأذهبه عنه إلا موضع الدرهم في سرته، قال: فاستغفر له، قال: ثم دخل في أغمار الناس... [رواه أحمد ومسلم والحاكم].

وعلَّم النبيُّ ﷺ أمته أن يدعو بعضهم لبعض كما في صلاة الجنازة، فيبدأ الدعاء بالحمد لله رب العالمين، ثم الصلاة على المبعوث رحمة للعالمين، ثم الدعاء للميت ويخلص له في الدعاء، ثم يدعو لنفسه وللميت ولسائر المسلمين راجيًا من الله تعالى القبول، فقد أخرج مسلم عن عوف بن مالك قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعفُ عنه، وأكرم نُزُلَهُ ووسع مُدْخَلَهُ، واغْسِلْهُ بالماء والثلج والْبَرَدِ، ونَقِّه من الخطايا كما نَقيت الثوبُ الأبيضُ من الدنَس، وأبدِلْهُ دارًا خيرًا من داره، وأهلاً خيرًا من أهْله، وزوجًا خَيرًا من زَوْجه، وأدخِلْهُ الجنة، وأعذه من عذاب القبْر، ومن عذاب النار. حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت». [رواه أحمد ومسلم والحاكم].

وعن سعيد المقبري عن أبيه أنه سأل أبا هريرة كيف تصلي على الجنازة؟ فقال أبو هريرة: أنا لعمرو الله أخبرك: أتبعها من أهلها؛ فإذا وُضعت كبرت وحمدت الله، وصليت على نبيه، ثم أقول: اللهم إنه عبدك وابن عبدك وابن أمتك كان يشهد أن لا إله إلا أنت وأن محمدًا عبدك ورسولك، وأنت أعلم به، اللهم إن كان محسنًا فزد في إحسانه، وإن كان مسيئًا فتجاوز عن سيئاته، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده» [موطأ مالك ٣ / ٢٢٠].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر، كان قائلهم يقول: السلامُ عليكم أهل الدِّيارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية». [ابن ماجه ١٥٤٧ وصححه الألباني].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت سألت النبي ﷺ، كيف نقول في التسليم على القبور؟ فقال: قولي: السلامُ على أهلِ الدِّيارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ، ويرحمُ اللهُ المستقدمينَ منا والمُسْتَأْخِرينَ، وإنا إن شاءَ اللهُ بكُم للاَحقُونَ». [مسلم ٩٧٤].

فدعاء المؤمنين لإخوانهم بظهر الغيب وبعد موتهم يقبله الله تعالى؛ لأنه دعاء لهم بألسنة لم يعصوا الله تعالى بها، نسأل الله تعالى أن يتقبل منا ومنكم صالح العمل وصالح الدعوات، ويشرح صدورنا للدعاء للمسلمين والمسلمات ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم ٤٠-٤١]، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وذريته وآل بيته وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى كل من تبع هديهم بإحسان إلى يوم الدين، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

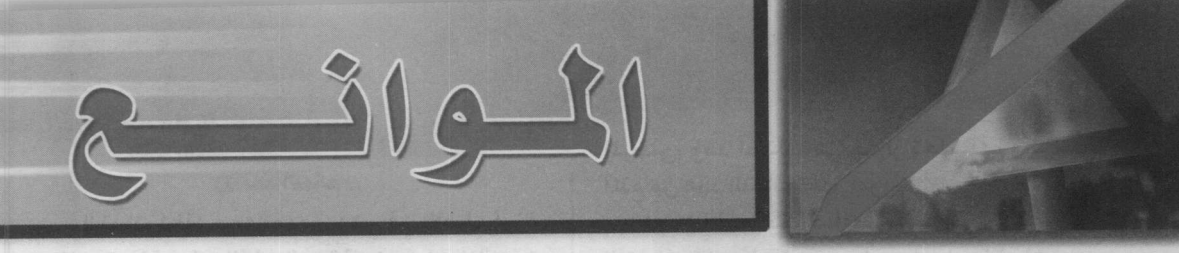

الموانع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، محمد بن عبد الله الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد بينا أن الموانع من إنفاذ الوعيد ثمانية:

ثلاثة من المذنب: وهي التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية.

وثلاثة من غيره من الخلق: وهي دعاء المؤمنين، وإهداء ما يمكن وصوله من ثواب الأعمال، والشّفاعة في عصاة الموحّدين.

واثنان من الله تعالى: وهما المصائب المكفّرة في الدّنيا والبرزخ والآخرة، والعفو المحض بلا سبب من العباد.

وذكرنا الثلاثة الخاصة بالمذنب: وهي التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، ومن الثلاثة التي من غيره من الخلق: ذكرنا دعاء المؤمنين لإخوانهم بظهر الغيب، ثم نكمل ما بدأناه فنقول وبالله تعالى التوفيق:

الخامس: إهداء ما يمكن وصوله من ثواب الأعمال

وردت الأدلة في انتفاعه بالصوم فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «من مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ؛ صَامَ عنه وَلِيُّهُ» [متفق عليه]، وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: جاء رَجُلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ أَفَأَقْضِيهِ عنها؟ قال: نعم، فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى» [متفق عليه].

عن بُرَيْدَةَ أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: وَإِنَّهَا أي أمها مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ أَفَيُجْزِئُ أَوْ يَقْضِي عَنْهَا أَنْ أَصُومَ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». [أبو داود ٢٨٧٩ وصححه الألباني].

فائدة: الأحاديث الصحيحة دلت على أن من مات وعليه نذر أنه يُقضى عنه؛ فقد روى البخاري في صحيحه أن سعد بن عبادة الأنصاري استفتى النَّبي ﷺ في نذر كان على أمه؛ فتُوفيت قبل أن تقضيه؟ فأفتاه أن يقضيه عنها فكانت سُنَّةً بَعْدُ". [متفق عليه].

ووردت الأدلة على انتفاعه بالصدقة

وفي صحيح مسلم عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي تَصَدَّقْتُ عَلَى أُمِّي بِجَارِيَةٍ، وَإِنَّهَا مَاتَتْ - قَالَ - فَقَالَ: «وَجَبَ أَجْرُكِ، وَرَدَّهَا عَلَيْكِ الْمِيرَاثُ».

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. [متفق عليه].

ووردت الأدلة في انتفاعه بالحج

فعن عبد اللَّهِ بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما

من إنفاذ الوعيد

الحلقة الرابعة

إعداد: / محمد رزق ساطور

قال: كان الْفَضْلُ رَدِيفَ رسول اللَّه ﷺ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ من خثعم، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَتَنْظُرُ إليه، وَجَعَلَ النبي ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إلى الشِّقِّ الآخَرِ، فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ على عِبَادِهِ في الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أبي شَيْخًا كَبِيرًا لا يَثْبُتُ على الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عنه؟ قال: نعم. وَذَلِكَ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ» [متفق عليه].

وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ امْرَأَةً من جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إلى النبي ﷺ فقالت: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فلم تَحُجَّ حتى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عنها؟ قال: نعم، حُجِّي عنها، أَرَأَيْت لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْت قاضيته؟ اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ» [البخاري ١٨٥٢].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ شُبْرُمَةُ؟ قَالَ: أَخٌ لِي أَوْ قَرَابَةٌ. قَالَ: هَلْ حَجَجْتَ قَطُّ؟ قَالَ: لا، قَالَ: فَاجْعَلْ هَذِهِ عَنْ نَفْسِكَ، ثُمَّ احْجُجْ عَنْ شُبْرُمَةَ» [أبو داود ١٨١٣ وصححه الألباني].

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: قَوْلُهُ ﷺ (فَاجْعَلْ هَذِهِ عَنْ نَفْسِكَ) أَرَادَ بِهِ الإِعْلامَ بِنَفْيِ جَوَازِ الْحَجِّ عَنِ الْغَيْرِ إِذَا لَمْ يَحُجَّ عَنْ نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُ: (ثُمَّ احْجُجْ عَنْ شُبْرُمَةَ) أَمْرُ إِبَاحَةٍ لا حَتْمٍ.

السادس: الشفاعة في عصاة الموحدين

الشفاعة العظمى معروفة، يُقرّ بها كل المسلمين حتى أهل البدع كالخوارج والمعتزلة، ولكن أهل البدع ينكرون الشفاعة في عصاة الموحدين. فالعلماء قصدهم في هذا الرد على الخوارج والمعتزلة الذين أنكروا الشفاعة في العصاة، الذين قالوا: إن من دخل النار لا يخرج منها. كشفاعة الشَّهيد: ففي سنن أبي داود عن نُمْرَان بن عُتْبَةَ الذِّمَارِيّ قال دَخَلْنَا على أُمِّ الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ أَيْتَامٌ، فقالت: أَبْشِرُوا فَإِنِّي سمعت أَبَا الدَّرْدَاءَ يقول: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ في سَبْعِينَ من أَهْلِ بَيْتِهِ» [أبو داود ٢٥٢٤ وصححه الألباني].

والأحاديث الدالة على خروج الموحدين من النّار متواترة، منها: حديث أنس بن مالك في حديث الشّفاعة، وحديث أبي بكر، وحديث ابن عباس رضي الله عنهم جميعًا وأحاديث أخر كثيرة، أخرج البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال أُنَاسٌ يا رَسُولَ اللَّهِ، هل نَرَى رَبَّنَا يوم الْقِيَامَةِ؟ فقال: هل تُضَارُّونَ في الشَّمْسِ لَيس دُونَهَا سَحَابٌ؟ قالوا: لا، يا رَسُولَ اللَّهِ. قال: هل تُضَارُّونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيس دُونَهُ سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يوم الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللَّهُ الناس، فيقول: من كان يَعْبُدُ شيئا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هذه الأُمَّةُ فيها مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ في غَيْرِ الصُّورَةِ التي يَعْرِفُونَ، فيقول: أنا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، هذا مَكَانُنَا حتى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فإذا أَتَانَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ في الصُّورَةِ التي يَعْرِفُونَ، فيقول: أنا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ: أنت رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ، قال رسول اللَّهِ ﷺ: فَأَكُونُ أَوَّلَ من يُجِيزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، وَبِهِ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غير أنها لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إلا الله، فَتَخْطَفُ الناس

بِأَعْمَالِهِمْ، مِنهم الْمُوبَقُ بِعَمَلِه وَمِنْهُمْ الْمُخَرْدَلُ، ثُمَّ يَنْجُو حتى إذا فَرَغَ الله من الْقَضَاءِ بين عِبَادِه، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ من النَّارِ من أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِمَّنْ كان يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلا الله؛ أَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلاَمَةِ آثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ الله على النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ من ابن آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ قد امْتُحِشُوا فَيُصَبُّ عليهم مَاءٌ يُقَالُ له مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ في حَمِيلِ السَّيْلِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ على النَّارِ فيقول: يا رَبِّ قد قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَاصْرِفْ وَجْهِي عن النَّارِ، فلا يَزَالُ يَدْعُو اللَّهَ، فيقول: لَعَلَّكَ إن أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فيقول: لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ عن النَّارِ، ثُمَّ يقول بَعْدَ ذلك: يا رَبِّ قَرِّبْنِي إلى بَابِ الْجَنَّةِ فيقول: أَلَيْسَ قد زَعَمْتَ أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ وَيْلَكَ بن آدَمَ ما أَغْدَرَكَ، فلا يَزَالُ يَدْعُو، فيقول: لَعَلِّي إن أَعْطَيْتُكَ ذلك تَسْأَلُنِي غَيْرَهُ؟ فيقول: لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، فَيُعْطِي اللَّهَ من عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهُ، فَيُقَرِّبُهُ إلى بَابِ الْجَنَّةِ، فإذا رَأَى ما فيها سَكَتَ ما شَاءَ الله أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يقول رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، ثُمَّ يقول: أو ليس قد زَعَمْتَ

أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، وَيْلَكَ يا بن آدَمَ ما أَغْدَرَكَ! فيقول: يا رَبِّ لاَ تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ، فلا يَزَالُ يَدْعُو حتى يَضْحَكَ، فإذا ضَحِكَ منه أَذِنَ له بِالدُّخُولِ فيها، فإذا دخل فيها، قِيلَ: تَمَنَّ من كَذَا، فَيَتَمَنَّى ثُمَّ يُقَالُ له تَمَنَّ من كَذَا فَيَتَمَنَّى حتى تَنْقَطِعَ بِهِ الأَمَانِيُّ، فيقول له هذا لك وَمِثْلُهُ معه. قال أبو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً. قال وأبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ جَالِسٌ مع أبي هُرَيْرَةَ لاَ يُغَيِّرُ عليه شيئًا من حَدِيثِهِ، حتى انْتَهَى إلى قَوْلِهِ هذا لك وَمِثْلُهُ معه قال أبو سَعِيدٍ: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول هذا لك وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ قال أبو هُرَيْرَةَ حَفِظْتُ مِثْلَهُ معه» [البخاري ٦٥٧٣].

ونظراً لأن الشفاعة تحتاج منا إلى بيان تفصيلي، نفسح لها بعد ذلك ما ييسره الله تعالى إن شاء الله تعالى وقدر، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وذريته وآل بيته وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى كل من تبع هديهم بإحسان إلى يوم الدين، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

تهنئة واجبة

يسر أسرة تحرير مجلة التوحيد أن تتقدم بخالص التهنئة للمهندس حسين عبد العال، بمناسبة ترقيته مديرًا عامًا ومشرفًا على مطابع الأهرام التجارية والصحفية، وعضوًا لمجلس الإدارة.

كما يسر أسرة تحرير المجلة تهنئة الأستاذ سلامة شافعي لترقيته مديرًا عامًا لمطابع الأهرام التجارية، وتتمنى لهما دوام التوفيق والرقي والتقدم.

رئيس التحرير

الموانع من إنفاذ الوعيد

الحلقة الخامسة

إعداد: / محمد رزق ساطور

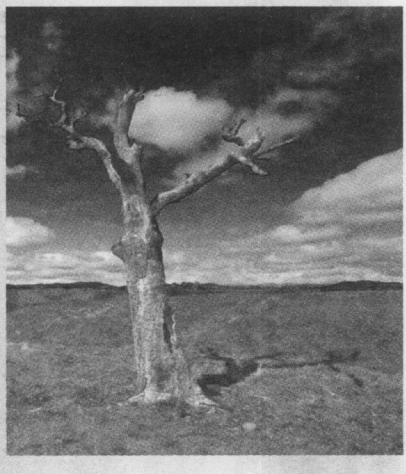

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، محمد بن عبد الله الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد بينا أن الموانع من إنفاذ الوعيد ثمانية؛ ثلاثة من المذنب: وهي التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية. وثلاثة من غيره من الخلق، وهي: دعاء المؤمنين، وإهداء ما يمكن وصوله من ثواب الأعمال، والشّفاعة في عصاة الموحّدين. واثنان من الله تعالى: وهما المصائب المكفّرة في الدّنيا والبرزخ والآخرة، والعفو المحض بلا سبب من العباد، وذكرنا الثلاثة الخاصة بالمذنب وهي: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، ومن الثلاثة التي من غيره من الخلق ذكرنا دعاء المؤمنين لإخوانهم بظهر الغيب، وإهداء ما يمكن وصوله من ثواب الأعمال، والشّفاعة في عصاة الموحّدين، ثم نكمل ما بدأناه، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

السادس: الشّفاعة في عصاة الموحّدين

قلنا بأن الشفاعة العظمى معروفة، وأهل البدع كالخوارج والمعتزلة يُقرّون بها، لكنهم ينكرون الشفاعة في عصاة الموحدين. ولذا قال فيهم ابن القيم رحمه الله:

وَلأجلِهِ قَد خَلَّدُوا أهلَ الكَبَا
ئِرِ في الجَحِيمِ كَعَابِدِي الأوثَانِ
وَلأجلِهِ قَد أنكَرُوا شَفَاعَةَ ال
مُختَارِ فِيهِم غَايَةَ النُّكرَانِ

فقد أثبتت المعتزلة الشفاعة العامة في الإراحة من كرب الموقف، وهي الخاصة بنبينا ﷺ والشفاعة في رفع الدرجات وأنكرت ما عداهما، فالشفاعات خمس: أولها: في الإراحة من هول الموقف، والثانية: في إدخال قوم الجنة بغير حساب، والثالثة: في إدخال قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب أن لا يعذبوا، والرابعة: في إخراج من أدخل النار من العصاة، والخامسة: في رفع الدرجات.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعات كلها لثبوت أدلتها، وأنها لا تحققُ إلا بشرطين: الشرط الأول:

إذن الله للشافع أن يشفعَ، كما قال تعالى ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

الشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له كما قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ويجمع الشرطين قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

قال ابن القيم رحمه الله في اعتقاد أهل السنة والجماعة:

وَاشهَد عَلَيهِم أَنَّهُم لَم يُخلِدُوا
أَهلَ الكَبَائِرِ فِي حَمِيمِ آنِ
بَل يَخرُجُونَ بِإِذنِهِ بِشَفَاعَةٍ
وَبِدُونِهَا لِمَسَاكِنٍ بِجِنَانِ

هذه الشفاعة في عصاة الموحدين. ممن يشهدون أن لا إله إلا الله، أي: يُوَحِّدون الله، لكنهم دخلوا بكبائر عملوها، وماتوا عليها من غير توبة، كالزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين والسرقة، أو قطيعة الرحم، أو الْغيبة والنميمة، أو التعامل بالربا، أو أكل مال اليتيم، أو غيرها من الكبائر، لكنهم مؤمنون مُوَحِّدون يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويصلون، فيشفع فيهم رسول الله ﷺ، قال ابن حجر العسقلاني:

وَهوَ المشَفَّعُ في العُصاةِ إذا طَمى
عَرَقٌ وَألجَمَ في الوُرودِ وَريدا
يأتي لِساقِ العَرشِ يَسجُدُ سائلاً
للهِ فينا حبَّذاكَ سُجودا
وَعَلَيهِ يَفتَحُ رَبُّهُ بِمحامِدٍ
لَم يُعطَ خلقاً ذَلكَ التَّحميدا
وَيقولُ قُل تسمَع وَسَل تُعطَ المنى
وَاشفَع تُشَفَّع وَانتَجِز مَوعودا
فَهُناكَ يَشفَعُ في الوَرى مِن مَوقِفٍ
لا تَرتَجي العَينانِ فيهِ هُجودا
ذاكَ المقامُ بِهِ يُخَصُّ مُحَمَّدٌ
وَالرُسلُ فيهِ يَحضُرونَ شُهودا
ثُمَّ الشَفاعَةُ في العُصاةِ فَإِنَّهُ فيهِ
المقَدَّمُ لا يَخافُ ردودا

والشفاعة لأهل الكبائر ثلاثة أنواع: الأول: قوم من أَهْل الكبائر رَجحت سيئاتهم على حسناتهم، فأُمِرَ بهم إلى النار فيشفع فيهم ﷺ في أن لا يدخلوا النار، فيُشفَّع فيهم ﷺ.

الثاني: في أقوامٍ دخلوا النار فيشفع فيهم ﷺ أن يخرجوا منها، فيخرجون منها كأنهم الحمم فيوضعون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبّة في جانب السيل.

الثالث: في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم وصاروا على الأعراف، في أن يعفوا الله عنهم ويُدخلهم الجنة: فهؤلاء يدخلون في عموم قوله تعالى ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] على أحد أوجه التفسير من أنَّ أصحاب الأعراف هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيُجعلون على رأس جبل بين الجنة والنار لأجل التساوي، إذا نظروا يمنة إلى الجنة سُرُّوا، وإذا نظروا شمالاً إلى النار خافوا، فَيُشفَّع فيهم ﷺ كي يجعلهم الله من أهل الجنة.

وعن جَابِرِ بن عبد اللَّه رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قال: «من قال حين يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهم رَبَّ هذه الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الذي وَعَدْتَهُ؛ حَلَّتْ له شَفَاعَتِي يوم الْقِيَامَةِ» [البخاري ٦١٤].

وعن أبي مُوسَى رضي الله عنه قال: غَزَوْنَا مع رسول اللَّه ﷺ في بَعْضِ أَسْفَارِهِ قال: فَعَرَّسَ بِنَا رسول اللَّه ﷺ، فانتهيت بَعْضَ اللَّيْلِ إلى مُنَاخِ رسول اللَّه ﷺ أَطْلُبُهُ فلم أَجِدْهُ قال: فَخَرَجْتُ بَارِزًا أَطْلُبُهُ، وإذا رَجُلٌ من أَصْحَابِ رسول اللَّه ﷺ يَطْلُبُ ما أَطْلُبُ قال: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إذ اتَّجَهَ إِلَيْنَا رسول اللَّه ﷺ قال: فَقُلْنَا يا رَسُولَ اللَّه أَنت بِأَرْضِ حَرْبٍ وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ، فَلَوْلَا إِذْ بَدَتْ لك الْحَاجَةُ قُلْتَ لِبَعْضِ أَصْحَابِكَ فَقَامَ مَعَكَ. قال: فقال رسول اللَّه ﷺ إني سمعت هَزِيزاً كَهَزِيزِ الرَّحَى أو حَنِينا كَحَنِينِ النَّحْلِ وأتاني آتٍ من ربي عز وجل قال: فخيرني أَنْ يَدْخُلَ شطر أمتي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ شفاعتي لهم، فَاخْتَرْتُ شفاعتي لهم، وَعَلِمْتُ أنها أَوْسَعُ لهم، فخيرني بِأَنْ يَدْخُلَ ثلث أمتي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةَ لهم، فَاخْتَرْتُ لهم شفاعتي وَعَلِمْتُ أنها أَوْسَعُ لهم. فَقَالَا: يا رَسُولَ اللَّه ادْعُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا من أَهْلِ شَفَاعَتِكَ، قال: فَدَعَا لَهُمَا، ثُمَّ إنهما نَبَّهَا أَصْحَابَ رسول اللَّه ﷺ وأخبراهم بِقَوْلِ رسول اللَّه ﷺ قال: فَجَعَلُوا يَأْتُونَهُ وَيَقُولُونَ يا رَسُولَ اللَّه ادْعُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا من أَهْلِ شَفَاعَتِكَ فَيَدْعُوَ لهم، قال فلما أَضَبَّ عليه الْقَوْمُ وَكَثُرُوا قال رسول اللَّه ﷺ إنها لِمَنْ مَاتَ وهو يَشْهَدُ أن لَا إِلَهَ إلا الله». [أحمد ١٩٢٢٥ وحسنه الألباني].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ فَيُرْعَبُ الْعَدُوُّ مِنْ مَسِيرَةِ

شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَقِيلَ لِي سَلْ تُعْطَهْ وَاخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي فِي الْقِيَامَةِ وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا» [ابن حبان ٦٤٦٢].

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» [أبو داود ٤٧٣٩ وصححه الألباني].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قال: قِيلَ يا رَسُولَ اللَّهِ من أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِكَ يوم الْقِيَامَةِ؟ قال رسول اللَّهِ ﷺ: لقد ظَنَنْتُ يا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عن هذا الحديث أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ، لِمَا رأيت من حِرْصِكَ على الحديث؛ أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِي يوم الْقِيَامَةِ من قال لَا إِلَهَ إلا الله خَالِصًا من قَلْبِهِ أو نَفْسِهِ» [البخاري ٩٩].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ النَّارِ بَعْدَ مَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيُسَمِّيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ» [البخاري ٦٥٥٩].

وقد احتج المعتزلة والخوارج في أنَّ الشفاعة لأهل الكبائر لا تنفع، وأن الشفاعة لمن في النار لا تنفع، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ووجه الاستدلال عندهم من الآية أنَّهُ قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ بالجمع، والذين يشفعون يوم القيامة هم الذين أذن الله لهم بالشفاعة وهم الأنبياء والمؤمنون، قالوا: فدلت الآية على أنَّ من في النار لا تنفعه الشفاعة- شفاعة الشافعين-، لأجل عموم لفظ الشافعين فهو عام في كل من يشفع.

والرد على ذلك: أنَّ هذه الآية جاءت في سياق ذكر الكفار، وأنهم في النار، قال سبحانه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨].

وقد وصفهم الله تعالى بقوله ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ وهؤلاء هم الكفار.

والمسألة أن الشفاعة لأهل الكبائر هي في مَنْ كان مسلماً، أما المكذّب بيوم الدين والذي لم يصحَّ إسلامُه فإنه ليس هو محل البحث. فاستدلالهم بالآية في غير محله؛ فالمشركون ولو شفع بعضهم لبعض وظنوا أنَّ آلهتهم تشفع لهم فما تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنهم مشركون كفار، والكافر لم يرضَ الله عنه، ومن شرط الشفاعة الرضا. والله سبحانه إنما تنفع الشفاعة عنده لمن يأذن الله له ولمن يرضى.

ولهذا نقول: إنَّ من مَنَعَ الشفاعة لأهل الكبائر من المعتزلة والخوارج مبني على مذهبهم الرّديء في أنَّ فعْلَ الكبيرة كُفْر، وأن فاعلها يوم القيامة يكون من أهل النار والعياذ بالله، وهذا باطل.

وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ أربع مرات، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً قال: إذا كان يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ الناس بَعْضُهُمْ في بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لنا إلى رَبِّكَ فيقول لَسْتُ لها، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فإنه خَلِيلُ الرحمن فَيَأْتُونَ إبراهيم فيقول لَسْتُ لها، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فإنه كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فيقول لَسْتُ لها وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فإنه رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ؛ فَيَأْتُونَ عِيسَى فيقول لَسْتُ لها وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فيأتونني فَأَقُولُ: أنا لها فَأَسْتَأْذِنُ على رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بها لَا تَحْضُرُنِي الآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ له سَاجِدًا، فيقال يا محمد ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لك وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فيقال انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ منها من كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ من إِيمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ له سَاجِدًا فَيُقَالُ يا محمد ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لك وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فيقال انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ منها من كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أو خَرْدَلَةٍ من إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ له سَاجِدًا، فيقال يا محمد ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لك وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فيقول انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ من كان في قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ من إِيمَانٍ، ثُمَّ يستأذن فيأذن له ربه سبحانه في المرة الثالثة فيقول له فَأَخْرِجْ من كان في قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ من النَّارِ، ثُمَّ يستأذن فيأذن له ربه سبحانه في المرة الرابعة فيقول ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ له سَاجِدًا فَيُقَالُ يا محمد ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يا رَبِّ ائْذَنْ

لي فيمَنْ قال لاَ إِلَهَ إلا الله فيقول: وَعِزَّتي وَجَلاَلي وَكِبْرِيَائي وَعَظَمَتي لأُخْرِجَنَّ منها من قال لاَ إِلَهَ إلا الله» [البخاري ٧٥١٠].

فهذه الشفاعة لأهل التوحيد من أصحاب الكبائر الذين دخلوا النار بحسب تفاوت أعمالهم ممن غلبتهم الذنوب والمعاصي، حتى إن آخر أهل النار خروجاً منها يقول فيه النبي ﷺ: «إني لأَعْلَمُ آخرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا منها وَآخرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً؛ رَجُلٌ يَخْرُجُ من النَّارِ حبوًا فيقول الله اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إليه أنها مَلأَى فَيَرْجِعُ فيقول يا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى فيقول: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إليه أنها مَلأَى فَيَرْجِعُ فيقول يا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى فيقول: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ فإن لك مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا أو إِنَّ لك مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا فيقول أتسخر مِنِّي أو تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ فَلَقَدْ رأيت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حتى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وكان يقال ذلك أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً» [متفق عليه].

وبعد أن يخرجوا من النَّار لا يبقى فيها بعد ذلك إلا من حبسه القرآن، كالمُشْرِكين، كما قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالشرك يمنع الإنسان المشرك من الخروج من النار، وكالمنافقين النفاق الأكبر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء ١٤٥]، وهؤلاء كذلك محرومون ومحجوبون عن شفاعة النبي ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، وكذلك الذين ارتكبوا الكفر الأكبر والنفاق الأكبر وسائر نواقض الإسلام المعروفة محرومون من الشَّفَاعَة، وهناك أيضاً شفاعة لإخراج أهل الكبائر من النَّار بعد أن دخلوها، للملائكة وللنبيين وللمؤمنين. فقد أخرج مسلم في حديث الشفاعة عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ.... فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ فَيُقَالُ لَهُمْ أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتْ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا وكان أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يقول إن لم تُصَدِّقُونِي بِهذا الحديث فَاقْرَءُوا إن شِئْتُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ من لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيقول الله عز وجل شَفَعَتْ الْمَلاَئِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ولم يَبْقَ إلا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً من النَّارِ فَيُخْرِجُ منها قَوْمًا لم يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قد عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ في نَهَرٍ في أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ» [مسلم ١٨٣].

ولذلك فنحن ندعو إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي هو أساس النجاة في الدنيا والآخرة، وقد أجمع أهل العلم من أهل السنة والجماعة على قبول أحاديث الشفاعة، والتي بلغت التواتر أن النبي ﷺ يشفع، وأن الأنبياء يشفعون، وأن الملائكة يشفعون، وأن المؤمنين يشفعون، وأن الشهداء يشفعون.

نسأل الله تعالى أن ينفعنا بشفاعة النبي المختار، وبشفاعة الشافعين من الأنبياء والملائكة والمؤمنين والشهداء والصالحين، وأن يجعلنا من الفائزين الناجين من عذاب النار، وأن يجعلنا من المقربين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وذريته وآل بيته وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى كل من تبع هديهم بإحسان إلى يوم الدين، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير. وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

إشهار

تم بحمد الله إشهار فرع جمعية أنصار السنة المحمدية بقرية طاهر، كفر الشيخ وذلك طبقاً للقرار رقم ١٢٩٩ بتاريخ ١٦ / ١ / ٢٠١١م

والله ولي التوفيق

نظرات في حديث توبة قاتل المائة

الحلقة الأولى

إعداد/ محمد رزق ساطور

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، محمد بن عبد الله ورسوله الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

عن أبي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «كان فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تسعة وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عن أَعْلَمِ أَهْلِ الأرض، فَدُلَّ على رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فقال: إنه قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ له من تَوْبَةٍ؟ فقال: لَا. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ به مائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عن أَعْلَمِ أَهْلِ الأرض، فَدُلَّ على رَجُلٍ عَالِمٍ فقال: إنه قَتَلَ مائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ له من تَوْبَةٍ؟ فقال: نعم، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟! انْطَلِقْ إلى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فإن بها أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، ولا تَرْجِعْ إلى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فيه مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فقالت مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جاء تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إلى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إنه لم يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ في صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فقال: قِيسُوا ما بين الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كان أَدْنَى فَهُوَ له، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إلى الأرض التي أَرَادَ؛ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ» قال قَتَادَةُ: فقال الْحَسَنُ: ذُكِرَ لنا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ» [أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٦/٥٩١) (٣٤٧٠) ومسلم في التوبة باب قبول القاتل وإن كثر قتله (١٧/٨٢/٨٣)، وغيرهما.

وفي هذا الحديث من الكنوز والفوائد الكثير لمن تدبر فيه، وها نحن نذكر بعضاً منها، وبالله تعالى التوفيق:

الأولى: الاعتبار بما مضى في السابقين، وبمن كانوا قبلنا، فقد كان منهم من رضي الله عنهم وتقبل منهم، وأقال عثرتهم وأنار بصيرتهم، فكل من طلب من الله تعالى العفو، عليه أن يستقيم على أمره، ليقبل منه ويتجاوز عنه، وأن من لم يعتبر بغيره ويرجع عن غيه، كان

Upload by: altawhedmag.com

عبرةً لمن يأتي بعده، فالنبي صلى الله عليه وسلم يربط هذه الأمة بمن سبقها على طريق التوبة والإيمان؛ لأن دين الأنبياء واحد وهو الإسلام وحتى يعلم المسلمون أننا لا نسير في طريق التوبة وحدنا، بل لقد سار في هذا الطريق كل الأنبياء والمرسلين وأتباعهم الذين صدقوا في إيمانهم، أما من بدَّل وغيَّر فإننا نبرأ إلى الله تعالى منه بل ويبرأ منه الأنبياء والمرسلون ومن صدق من أتباعهم.

الثانية : أن قساوة القلب، والبعد عن الله، والجهل واقتراف المعاصي، وفعل القبائح والسيئات لها حد ولها نهاية، من وضع لها حداً في الدنيا بالتوبة فقد فاز، وإلا كانت النهاية في النار . عياذاً بالله منها . فهذا قاتل محترف قتل تسعة وتسعين نفساً، وبعد ذلك يمل من كثرة هذه القبائح، ويكرهها، ويريد الهرب والبعد عنها، ويرجو رحمة ربه سبحانه، ويطلب التوبة ويسأل عنها، فطريق العصيان كله ملل ونَصَب وشقاء وهلاك وتعب، فالمخالفات من شأنها أن تهلك القلب ولا تسعده، تُرى ماذا كان يريد هذا الرجل بعد أن قتل تسعة وتسعين نفساً؟ ربما كان سعيداً سعادةً مؤقتةً زائفةً بذلك، وربما كان يُثبت لنفسه هذه السعادة الزائفة بقتل الأنفس، ومع ذلك ما وجد مما فعله إلا الشقاء والضياع والرعب والفزع، والاضطراب والقلق، هذا حينما أبصر الحق وزالت عنه غشاوة الباطل، فلا بد من حل للخروج من هذه الأزمات، إن ذلك لا يكون إلا بالقرب من الله تعالى والتوبة له، والانقياد لأمره تعالى، ولذلك لما وقف الراهب ليحول بينه وبين الله، والنور الذي شعر أن فيه نجاته، أحس أن ذلك الراهب يحول بينه وبين السعادة الحقيقية وأراد أن يرده إلى الوحل والى ما قاسى منه من هلاك وضياع ودمار و... فلذلك قتله غير آسف على قتله، ليجد بعدها العالم ليرشده حتى تكتمل سعادته.

الثالثة : قصور عقول بني آدم، وعدم إدراكها لكثير من مصالحها وأنها قاصرة عاجزة ما لم ترتبط بالشرع، فلو أن إنساناً فكر بعقله، في شأن قاتل محترف، ومجرم سفاك للدماء قتل تسعة وتسعين نفساً، هل يهتدي للتوبة؟ إن العقل بكل مقدماته وبديهياته وتحليلاته ونتائجه سوف يخرج تصوره عن هذا القاتل بأن حواسه أُغلقت، فالبصر أعمى لا أمل في أن يبصر والقلب ميت لا أمل في حياته، والأذن صماء لا يمكن أن تسمع الحق، واللسان كذلك، وأعضاؤه مهيأة لكل شيء ما عدا الحق، ثم يشاء العليم الخبير أن يختم لهذا العبد خاتمة طيبة، فلا يُمكِّن منه أحداً ليقتله قبل أن يتوب، فلا تَدَركه منية حتى يسأل ويعزم العودة، ويقبل على الله ليقبل منه توبته، وهذا من رحمة الله بالتائبين، فلا بد للعبد أن يشغل نفسه بالله ويرجع إليه ليوفقه، ولا يستعظم ذنوبه، فالله وعد بالغفران، فلابد من الرجوع السريع والله الموفق.

الرابعة : لم يكتف هذا الرجل بالسؤال عن أي عالم فهو يريد توبة تخلصه من كل ذنوبه فيريد أفضل العلماء، لم يسأل أحداً من حاشيته وصحبته فهو أدرى الناس بهم، وقد استقر في النفوس والفطر أن الحق والهداية والنور لا يدل عليهم إلا أهل العلم، لذا بدأ رحلة البحث عن كيفية التخلص من ذنوبه، ومن الظلم الذي اقترفه، فقد استشعر أن حالته لا يصلح فيها أي عالم، بل يريد أعلم أهل الأرض ليدله على خلاصة الأمر ليستريح من ذلك العناء والنصب، وحينما لم يجد بُغيته في المرة الأولى لم ييأس، وظل يسأل عن أعلم أهل الأرض حتى وفقه الله إلى عالم فتاب على يديه.

الخامسة : أن التائب حين سأل الناس عن أعلم أهل الأرض، فدله من سأله عن العالم بحسب ما يعرف، فبعض الناس يظنون في العالم الظنونا، فمنهم من يعتبر كل من نُسب إلى الدين عالماً، كأولئك الذين ينتفعون بالدين ويقرءون القرآن على القبور نظير الأجور، أو المتصوفة الذين يتمسحون بالقبور ويدعون الناس للاستغاثة بهم

Upload by: altawhedmag.com

والملاذ بقبورهم، أو ينتسبون بالعلم بالكلام دون العمل، هؤلاء يحسبهم الناس علماء، أو بشكلهم أو هيئتهم، فلما دله الناسُ على من اعتبروه أعلم أهل الأرض بظنهم، أحس لما وقف بين يديه وكلمه أنه ليس هو العالم ومن ثَم فليس هو المطلوب، فنور العلم لم يظهر ونُصح العالم ورفقه وحلمه غاب واندثر، وظهر الجهل والحمق والتسرع في الأحكام، فأفتى بغير علم وصدَّ التائب عن الطريق وحجب الرحمة عن التائب حتى ضاق الرجل به ذرعاً ولم ير بُدّاً من قتله، ثم عاد التائب ليسأل الناسَ عن أعلم أهل الأرض، ولم ييأس من الوصول إليه، ولم يحكم على الكل بما وجد في البعض، فهذا الرجل مع ما فيه من ظلم وقتل وضلال لم يقل: كلهم على هذا الحال، بل كان منصفاً، وعاد ليسأل الناس عن أعلم أهل الأرض حتى وفّقه الله إلى عالم فتاب على يديه .

السادسة : حينما أفتى الراهب هذا الرجل بأنه لا توبة له، أفتاه بجهل وكانت هذه الفُتيا سبباً في قتله، وأما العالم فحين أفتى نفس الرجل أفتاه بعلم، فانقاد له وأذعن ولم يخالفه، ولم يعترض عليه ونَفَّذ كل ما أمره به، وهذا من بركة العلم وكذلك فإن العلم يجعل صاحبَه يستوعب الجاهل والمجرم والقاتل فيؤلف قلبه، ويداوي جرحه ولا يتأفف من رائحة المعاصي التي تفوح منه، ولذلك فإن أهل العلم هم الأطباء والمرضون والخدم للخلق، فلا ينبغي أن يُقَنِّطوا الناس من رحمة الله، بل التوبة مفتوحة حتى الغرغرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة عبده ما لم يغرغر بنفسه». [أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن وهو ثقة].

السابعة : إن العالم هو الذي يحبب الناس في الله، ويرغّبهم في رحمته، ويبين لهم سعة حلمه وعفوه وكرمه لمن تاب وأناب، ولذلك قال العالم للرجل : «مَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟!»، فالعلاقة بين العبد وربه موصولة دائمة، فلو أن العبد قطعها وانغمس في شهواته وانطوى على ملذاته، وذاب في رغباته، فإن الله تعالى لا يقطعها ، فهو الذي يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، والعالم مُطالَب أن يدل الناس على الله وعلاقة العبد بربه لا يطلع عليها إلا الله، فإن شاء قبل منه وغفر له وعفا عنه « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ »[الأنفال: ٣٨].

الثامنة: أن العالم لا يقف عند حد الفتوى الجافة، ولكن عليه أن يُوجد لهذا السائل مخرجاً كريماً، ويساعد فيه العاصي على أن يتجاوز المحنة، ويرفع عنه عناء الذنوب، ويدله على الطريق، ويبصّره بطبيعة هذا الطريق، فلقد كان من الممكن أن يكتفي العالم بأن يقول لهذا الرجل: نعم باب التوبة مفتوح، فتب إلى الله، ويسكت عند هذا الحد، ولكن العالم لم يكتف بذلك، بل إنه دله كيف يعمل؟ فقال له : (انْتَ أَرْضَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا نَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ) فدله على قوم صالحين يعبد الله معهم في أرض كذا، وسماها للرجل؛ لأن صاحب المعصية مهما صحت توبته فهو في حاجة إلى من يعلّمه ويوجهه، ومن هنا فإن العالم ينبغي أن يجيب السائل بأكثر من السؤال، أو بما وراء السؤال، ولذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ: هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ) [أخرجه مالك في الموطأ والنسائي وابن خزيمة وابن ماجه وأحمد]، فلم يجبه بما سأل عنه فحسب، بل بما يفيده وينفعه.

التاسعة: أن العالم له فضل على العابد ؛ لأن الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له، غلبت

Upload by: altawhedmag.com

عليه العبادة، فاستعظم وقوع ذلك القتل الكثير، وأما الثاني وهو العالم فغلب عليه العلم، فأفتاه بالصواب ودله على طريق النجاة، وفي هذا فضل العلم وطلبه، خاصة في هذا الزمان الذي قل فيه طلاب العلم وكثر فيه الجهل والتنافس على الدنيا، عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قال: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَجُلَانِ؛ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فقال رسول اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي على أَدْنَاكُمْ، ثُمَّ قَالَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السماوات وَالْأَرَضِينَ حتى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ» [أخرجه الترمذي وصححه الألباني].

وعن أَبي هُرَيْرَةَ قال: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «كَانَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْآخَرُ مُذْنِبٌ، فَأَبْصَرَ الْمُجْتَهِدُ الْمُذْنِبَ عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ لَهُ: خَلِّنِي وَرَبِّي، قَالَ: وَكَانَ يُعِيدُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: خَلِّنِي وَرَبِّي، حَتَّى وَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَاسْتَعْظَمَهُ فَقَالَ: وَيْحَكَ أَقْصِرْ، قَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا، أَوْ قَالَ: لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا، فَبُعِثَ إِلَيْهِمَا مَلَكٌ فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ جَلَّ وَعَلَا، فَقَالَ رَبُّنَا لِلْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ عَالِمًا أَمْ كُنْتَ قَادِرًا عَلَى مَا فِي يَدِي أَمْ تَحْظُرُ رَحْمَتِي عَلَى عَبْدِي؟ اذْهَبْ إِلَى الْجَنَّةِ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ» [أخرجه أبو داود وابن حبان قال الألباني إسناد جيد].

العاشرة: فضل الصحبة الطيبة، واختيار الصاحب الذي يذكّرك بالله، ولا يحرمك من نصيحته، يحافظ عليك حتى من شر نفسك التي بين جنبيك، ولذلك، إن من بركة هذه الصحبة الطيبة أن غفر الله لهذا الرجل بنية اقترابه من الصحبة الصالحة، فإن كان من يقترب من الصحبة الصالحة يُصنَع معه ذلك، فما بالك بالصاحب الخليل والرفيق القريب، ففي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» [أخرجه البخاري في صحيحه].

وعَن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلاً، يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكر قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضًا بأجنحتهم، حتى يملئوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم من أين جئتم؟!.....قال فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا، قال: فيقولون: رب! فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم، قال: فيقول: وله غفرتُ؛ هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» [أخرجه البخاري ومسلم].

الحادية عشرة: التحول عن مكان المعصية من أنفع الأدوية لمفارقة المعاصي؛ لأن وجود العبد في نفس المكان الذي تعود فيه على الفحش والمخالفات ربما يحن الإنسان للمعاصي وهو في نفس المكان ، أما البعد عنه فإنه يولد الإيحاش منه، ويعلم أن هذا المكان،كان سبباً في هلاكه، فيبغضه لنفس السبب، ولذا فإن البعد عن مكان المعصية علاج نافع، ولو كان هذا البعد مؤقتاً، فإن هدى الله أهل المكان الأول جازت العودة لهم؛ لأنهم سيساعدوه على الاستقامة، أما إذا خلا عن ناصح أمين، فالانسلاخ أولى والبعد أنفع. والله نسأل الهداية والرشاد وحسن الخاتمة.

والحديث بقية إن شاء الله تعالى.

Upload by: altawhedmag.com

نظرات في حديث توبة قاتل المائة

الحلقة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، محمد بن عبد الله ورسوله الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

إعداد/ محمد رزق ساطور

ذكرنا في هذا الحديث من الفوائد: الاعتبار بما مضى في السابقين، وأن قساوة القلب لها حد ولها نهاية، وأن المستكثر من أي شيء يمل منه إلا المستكثر من الطاعات والبر والإيمان، فإنه وإن فتر بعض الوقت لا يمل من الطاعة ، وقصور عقل بني آدم ما لم ترتبط بالشرع، وأن التائب حين يريد التوبة ويطلبها عليه أن يسأل عن حكم أخطائه وكيف يتحلل منها، وأن التائب حين سأل الناس عن أعلم أهل الأرض، فدله من سأله عن العالم بحسب ما يعرف، وأن العالم هو الذي يحبب الناس في الله، وأنه لا يقف عند حد الفتوى الجافة، بل يوجد لهذا السائل مخرجاً كريماً، فينبغي البحث عن هذا الصنف من العلماء، وأن العالم له فضل على العابد؛ وفضل الصحبة الطيبة وغير ذلك، ثم نكمل ما بدأناه فنقول وبالله تعالى التوفيق:

الثانية عشرة:

أن الشيطان أبعد عن الجماعة منه عن الواحد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:» خطبنا عمر بالجابية، فقال:....عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة، من سرته حسنته، وساءته سيئته، فذلكم المؤمن» [أخرجه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي] وأن من أراد التوبة لا بد أن يلتحق بصحبة طيبة، فالمرء بمحبته لأهل الخير لصلاحهم واستقامتهم على أمر الله يلتحق بهم ويصل إلى مراتبهم، وإن لم يكن عمله بلغ مبلغهم: فقد أخرج البخاري عن عبد الله بن مَسْعُود رضي الله عنه جاء رَجُل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ ! كَيْفَ تَقُولُ في رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا ولم يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمَرْءُ مع من أَحَبَّ» [صحيح البخاري].

وعن أَنَس بن مَالِك رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا أنا وَالنبيُّ صلى الله عليه وسلم خَارِجَان من الْمَسْجِد فَلَقِينَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّة الْمَسْجِد، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أَعْدَدْتَ لها، فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قال: يا رَسُولَ اللَّهِ ما أَعْدَدْتُ لها كَبِيرَ صِيَام ولا صَلَاة ولا صَدَقَة، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قال أنت مع من أَحْبَبْتَ» [صحيح البخاري].

وعند مسلم قال أَنَسٌ: فما فَرِحْنَا بَعْدَ الْإِسْلَام فَرَحًا أَشَدَّ من قَوْلِ النبي صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّكَ مع من أَحْبَبْتَ» قال أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لم أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ»، ولا يترك المرء نفسه وحده، حتى لا يقع في مصايد الشيطان ومخالبه ووساوسه التي تفسد على العبد علاقته بالله تعالى.

الثالثة عشرة:

أن الموت يأتي بغتة، « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ» [ق: ١٩]، وأن العبد إذا علم أنه مهدد بالموت صحح نيته، وعقيدته وعبادته فيلقى الله تعالى على نية حسنة، فمن كان يظن أن يموت هذا القاتل وهو لا يزال بصحته وقوته، والدليل على ذلك أن الرجل الذي ذهب ليستفتيه لما استفزه وأخبره أن لا توبة له قتله وأكمل به مائة، مع أن المسألة لا تتعلق لا بالصحة ولا بالسن.

وطالما أن العبد لا يدري متى يموت فينبغي له أن يستعد للموت قبل أن يأتي بغتة، وعلمه بذلك يدفعه إلى سرعة التوبة والإنابة والتذلل والندم، حتى يعطيه الله فوق نيته الطيبة بغير حساب كرماً منه تعالى وإحساناً.

الرابعة عشرة:

إذا أحب الله تعالى عبداً قبل منه توبته، ووفّقه

إليها، ومن ثم فإذا علم العبد ذلك حرص عليها لينال هذا الحب والرضوان حتى إذا ما قبض، لقي الله تعالى وهو عنه راض ولما توقف الحكم على هذا الرجل على المسافة بين الأرض الطيبة أو الأرض السوء، طوى الله تعالى الأرض، وقرّب التائب من الأرض الطيبة ليكون من أهلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الخامسة عشرة:

فضل وشرف ابن آدم وأنه حين يستقيم على أمر الله فإنه يكون أشرف من الملائكة، بل إن الملك الذي نزل ليحكم بين الملائكة تصور في صورة آدمي، وهذا يدل على شرف الصورة، فكيف بالأصل إذا استقام وأناب لله رب العالمين «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » [الإسراء: ٧٠].

السادسة عشرة:

أن العابد بغير علم يضر نفسه وغيره. فكل صاحب مهنة إذا كان على غير علم ضر غيره ولم يك أميناً في مهنته ولا صادقا في نصيحته، ولا ينبغي أن يُرجع إليه في شيء، ولذلك فإن الله عز وجل مَنّ على آدم عليه السلام بنعمة العلم التي رفعت من قدره عليه السلام إلى الدرجة التي جعلت الملائكة يسجدون له تكريمًا له، قال الله تعالى: « وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ » [البقرة: ٣١- ٣٤].

السابعة عشرة:

قبول التوبة من جميع الكبائر بما فيها القتل، وإن كان القاتل عمداً وهو مذهب جمهور العلماء، فهو وإن كان شرعاً لمن قبلنا فقد قرره شرعنا، قال تعالى «وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

قال ابن حجر في فتح الباري: « وفيه - أي الحديث الذي نحن بصدده - مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس، ويحمل على أن الله إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه... وقال عياض: وفيه أن التوبة تنفع من القتل كما تنفع من سائر الذنوب.....»

قال ابن كثير: والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحا، بدّل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته».

فإن قيل: وكيف تقبل توبة العبد القاتل وفي عنقه حقوق لبني آدم، وشرط التوبة رد المظالم إلى أهلها؟ فيجاب عن هذا بأن الله تعالى إذا رضي عن العبد وقبل توبته أرضى عنه خصومه. قال الطيبي: إذا رضي الله عن عبده أرضى عنه خصومه وردّ مظالمه».

الثامنة عشرة:

أن الذنوب وإن عظمت فعفو الله أعظم، وإن صدقت توبة العاصي حقت رحمته. وفيها أيضا سعة رحمة الله رب العالمين، وأن الله تعالى يريد أن يتوب على عبده كما قال تعالى: «وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا » [النساء: ٢٧]، «وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » [الشورى: ٢٥].

التاسعة عشرة:

أن بيئة المرء التي يعيش فيها لها اثر كبير على سلوكه وعلاقته بالله جل جلاله؛ وقد ذكر العلماء أن مفارقة التائب للمواضع التي أصاب فيها الذنوب من الأمور المستحبة والمعينة على ثبات التوبة وقوتها، وكذلك مقاطعة الحاثين له على المعصية، واستبدالهم بصحبة من أهل الخير والصلاح المقتدى بهم، فمثلاً من كان يشرب الخمر وأقبل على الله ورغب في التوبة فإنه يجب عليه أن يهجر أصحابه الذين يشربونها والمجالس التي تشرب فيها.

العشرون:

ليسأل كل منا نفسه، إذا نزل بنا الموت الآن فهل تنزل ملائكة الرحمة أم تنزل ملائكة العذاب أم

ينزل الفريقان فيختصمان ويحرص كل فريق منهما على أن يأخذ تلك الروح معه؟ يقول الله تعالى « ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » [النحل: ٣٢]، ويقول تعالى « ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » [النحل: ٢٨]، ويقول الله تعالى: « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ » [الأنفال: ٥٠].

الحادية والعشرون:

ليقل كل واحد منا لنفسه: أيليق بي أن أكون من أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم لا أدخل الجنة؟ في حين أن رجلاً ممن قبلنا قتل مائة نفس وتاب ودخلها، مع أن القتل شنيع، قال عنه الله تعالى « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ۛ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ » [المائدة: ٣٢]، فانظر إلى إثم الرجل ووزره الذي يحمله قَتل الناسَ جميعاً مائة مرة، ثم استطاع أن ينخلع من ذلك الإثم كله بالتوبة الصحيحة الصادقة، فمهما بلغت ذنوبي من الممكن أن أنخلع عنها بالتوبة فما الذي يؤخرك عن ذلك، فبادر بالتوبة حتى تجدد الأمل في الجنة.

الثانية والعشرون:

التائب حبيب الرحمن يفرح الله تعالى بتوبته؛ فيسد حاجته ويرضيه، ويزيده من فضله، ويجبر كسره، ويقوي عزمه ويرضي عنه الخصوم، ويصحح نيته وعمله، أخرج البخاري عن الحارث بن سُوَيْد حدثنا عبد الله بن مَسْعُود حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنْ النبي صلى الله عليه وسلم وَالْآخَرُ عن نَفْسه قال: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عليه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ، فقال به هَكَذَا قال أبو شِهَابٍ بيده فَوْقَ أَنْفِهِ، ثُمَّ قال: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ من رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عليها طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وقد ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حتى اشْتَدَّ عليه الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أو ما شَاءَ الله قال: أَرْجِعُ إلى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فإذا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ»، لذلك لما « اخْتَصَمَتْ فيه مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَأَوْحَى الله إلى هذه أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى الله إلى هذه أَنْ تَبَاعَدِي، وقال قِيسُوا ما بَيْنَهُمَا فَوُجِدَ إلى هذه أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ له ».

فواضح أنهم إن قاسوا قبل أن يوحي الله تعالى إلى هذه أَنْ تَقَرَّبِي وإلى هذه أَنْ تَبَاعَدِي؛ لكان أقرب للأرض التي كان فيها ولهلك، لكن الله تعالى لما قبل منه توبته أَوْحَى إلى هذه أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى إلى هذه أَنْ تَبَاعَدِي فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وهذا فضل الله للتائبين، فلنحرص على التوبة لتحسن خاتمتنا. هذا آخر ما تيسر في هذا الحديث المبارك، فأسأل الله تعالى القبول لي ولجميع المسلمين. والحمد لله رب العالمين.

إشـــهـــار

طبقاً لأحكام القانون ٨٤ لسنة ٢٠٠٢م

١ - تم بحمد الله إشهارفرع أنصار السنة المحمدية فرع جهينة القبلية مركز فاقوس تحت رقم ٢٨٦٨ لسنة ٢٠١٢م

٢ - تم بحمد الله إشهارفرع أنصار السنة المحمدية فرع الحجازية مركز الحسينية تحت رقم ٢٦٤٥ لسنة ٢٠١٢م

إنا لله وإنا إليه راجعون

تحتسب جماعة أنصار السنة المحمدية عند الله تعالى واحداً من خيرة رجالها وهو الشيخ حسين جاد الله رئيس فرع ترسا بالجيزة ، نسأل الله العلى القدير للمتوفى المغفرة والرحمة

الأمين العام أحمد يوسف